على درب الوحدة العربية

قام

اتحاد الجمهوريات العربية

أديب اللجمي

«إن اتحاد الجمهوريات العربية جماهيري القاعدة، اشتراكي المضمون، ديمقراطي التكوين»
من خطاب الرئيس القائد حافظ الأسد

في اليوم الأول من هذا الشهر أيلول (سبتمبر) عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين، قامت دولة اتحاد الجمهوريات العربية، لتضمّ كلاً من الأقطار العربية: مصر – سورية – ليبيا في شكل من أشكال الاتحاد الفيدرالي.

إن للحقوقيين وفقهاء القانون الدولي أن يتحدثوا عن نسبة الاندماج بين الدول العربية الثلاث في هذا الاتحاد، أو عن مدى مطابقة خصائص الاتحاد العربي مع ماقام من نماذج فيدرالية أو كونفيدرالية في بلاد العالم حتى الآن. ان موضوعاً كهذا يدخل في نطاق الاجتهاد الحقوقي الدولي، وهو شيء مفيد بذاته، ولكنّ المعنى الحقيقي لاتحاد الجمهوريات العربية لايكمن في صيغه الحقوقية، بقدر مايكمن في قاعدة بنيانه الشعبية.

أن أول تطلعات الشعب العربي كان وما يزال إقامة دولة الوحدة ، الدولة العربية الواحدة . ولا يخطر ببال المواطن العربي أن تكون هذه الوحدة نتاج عملية حسابية ، أو موضوع تجارة ، يدخل في إطار الربح والخسارة ، بل ولا مجرد « لقاء بين الأشقاء » حسب التعبير الشائع على بعض الألسنة والأقلام . إن الوحدة كانت ، وستظلّ المقوّم الأول لوجود الشعب العربي . فإذا لم تتحقق فسيستمر الشعب يعيش حالة الضياع والاستلاب ، مفتقراً الى هذا المرتكز المتين . من هنا كان لابدّ من التأكيد على أن الشعب العربي هو الذي أراد هذا الاتحاد ، وبالتالي هو الذي أقامه . وقد كان للرؤساء العرب الثلاثة شرف الوفاء لهذا التطلع ، وشرف حمل هذه الرسالة بأمانة ورجولة تحقيقاً للارادة الشعبية ، فاستحقوا بذلك تقدير الجماهير ، وعرفانها ، وتأييدها .

قام الاتحاد إذن لا تلبية لرغبة دول عربية ، بل استجابة لارادة شعبية ، والشعب كان ولا يزال تقدمياً في أهدافه وكفاحه ، فكان هذا الاتحاد اتحاداً بين قوى عربية تقدمية ، بين أنظمة عربية تقدمية تناضل مع الشعب ، لا ضد الشعب .

« انطلاقاً من الحقيقة الكبرى التي عبرّ عنها التاريخ الطويل ، وهي أن وحدة الوطن العربي ، بما تتيحه من امكانات ، وبما توفره من طاقات سياسية وعسكرية واقتصادية ، هي الرد الحاسم على تحديات الاستعمار والصهيونية ، وهي السبيل الى استرداد الكرامة وتحرير الأرض والإجهاز على كل صور الاستعمار والاستغلال والتخلف في وطننا العربي ...

« وتصميماً على بناء الوطن العربي المتحرر ، القادر على مواجهة تحديات العصر ، ومقتضيات التقدم ، وأداء دوره الحضاري والانساني داخل مجتمعه وفي المجتمع الدولي ...

« وتقديراً وعرفاناً لتضحيات أجيال بعد أجيال من أمتنا العربية ، خاضت بشرف وكرامة معارك تحقيق الذات القومية ، ولتثبيت الاستقلال

والحرية السياسية والاجتماعية ، دون أن يتزعزع ايمانها بأملها الكبير ....
فإنه من ذلك كله ، ووفاء لذلك كله ، اتفق الرئيس أنور السادات ، والرئيس العقيد معمر القذافي ، والرئيس حافظ الأسد ، على إقامة اتحاد الجمهوريات العربية بين دولهم الثلاث .. » ذلك ما جاء في اعلان بنغازي الصادر في السابع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٧١ .

ولأن الاتحاد هو اتحاد شعب ، فان وقفنا منه نحن العرب ، في هذا القطر السوري على الأقل ، موقف ذو وجهين متمايزين ، بل متكاملين : وجه يتجلى في الفرحة الطيبة الصادقة بتحقق خطوة جدية عملية على طريق الوحدة ، ووجه يتجلى في الحذر من أن تكون هذه الخطوة ، لا نقطة البداية ، بل خاتمة المطاف . ذلك ان اتحاداً يقوم ولا ينتهي فيما بعد الى وحدة كاملة ، يغدو غاية بذاته ، وبالتالي أداة تعويق . وللخروج من هذا المحذور ، لابد من مواصلة النضال والجهد لضم اقطار عربية جديدة الى الاتحاد ، ثم لتحويله الى وحدة . فالبنيان الوحدوي هو بالنتيجة نضال عربي ، وإذا قلنا نضالاً ، عنينا بذلك مسؤوليات .

إن اتحاد الجمهوريات العربية ليس مجموعة من المزايا وحسب بل هو مجموعة من المسؤوليات والمهام . في طليعة هذه المهام مسؤولية كل مواطن عربي عن حماية الاتحاد من أعدائه في الداخل أولاً ، وفي الخارج ثانياً . إن أعداء الاتحاد من أبناء الوطن العربي ، على قلتهم ، قد يكونون أكثر ايذاء له من اعدائه الخارجيين . هؤلاء مكشوفون يسهل تسليط الضوء الفاضح عليهم ، اما اولئك فمقنعون يعملون تخريباً في بنية الاتحاد من الداخل وهم مستترون ببراقع متعددة من تقدمية مزيفة وولاء كاذب ، ولكنهم في حقيقة سلوكهم ونواياهم مناهضون لكل ثورة عربية أصيلة . يضاف اليهم حشد شرس من قوى الرجعية واصحاب المصالح الصغيرة الذين لا يرقى نضالهم الى أعلى من تكديس الأموال في المصارف ، وتكديس الجاه على حساب الأمة إضافة الى ما يلقون من دعم استعماري .

على أن المسؤولية لا تقتصر على مجرد إحباط نزعات الاذى التي يمكن ان تلحق بالاتحاد . ان أي اتحاد عربي منطلق من الأسس التقدمية النضالية التي انطلق منها اتحاد الجمهوريات العربية ، ينبغي أن يكون كالشجرة المهيأة الى المزيد من النمو ، والى المزيد من الخضرة والثمار ، والى المزيد من الفيء والظل . ان اتحادنا لم يقم بقصد ايقاف مد العدوان والشر وحسب ، بل قام ليشيد نموذج المجتمع العربي الاشتراكي الجديد . أمامنا مجالات كبيرة وعريضة لاعادة النظر والمراجعة فربما أصبح كثير من الأطر التي كان يجري نشاط المجتمع داخلها في الأقطار العربية الثلاثة ، قبل قيام الاتحاد ، ضعيف الجدوى بعد قيامه . لابد من المراجعة في مفهومنا للنضال – حيث كان متفرقاً وهو الآن موحد – وفي مفهومنا للعمل ، وبناء الاشتراكية ، وتنظيم القاعدة الشعبية ، وتحويل مجتمعنا الى مجتمع يناضل بإيمان يغذيه وعي وعلم وثقافة .

لابد من أن تصبح الثقافة في مفهوم الانجاز الوحدوي الجديد ، أداة لتحسين حال الانسان العربي ، وقوة توقد الثورة العربية ، وجزءاً لا يتجزأ من النضال التحرري ، لأن الثقافة الحقة هي تحرر وانعتاق .

لابد من أن تنتظم جميع فئات الشعب في دولة الاتحاد في منظمات شعبية تمارس مهام التحويل الاشتراكي ، والبناء القومي ، والنهضة الحديثة . سيصبح أمام الكاتب في دولة الاتحاد مجتمع عربي ، يتجاوز عدد أبنائه الاربعين مليوناً ، وتتجاوز أبعاده حدود المشرق العربي وحده ، أو حدوداً من المغرب العربي وحده ، مجتمع يواجه أوضاعاً جديدة ، وتحديات جديدة ، وتقع على عاتقه أعباء من نوع جديد ، وسيكون على الكاتب العربي ان يحيط بجميع هذه التحولات ، وأن يتمثلها ، وأن يكون في طليعة المستوعبين لها ، ليقدمها أدباً حياً وفكراً متفتحاً ، ومفاهيم تنبض بحياة جديدة وتدفع الى مزيد من التقدم والعمل والتحرر . سيكون على الاتحاد أن يصبح أداة جذب لسائر الأقطار العربية لكي تنتسب اليه وتدعمه ؛ فبذلك تتحقق الوحدة الكبرى . « لقد كان منطلق الجهود الكبيرة

والمستمرة التي بذلت خلال الأشهر الخمسة الأخيرة تحقيقاً لهذا الهدف أن العاطفة وحدها ، مهما سمت ليست أساساً للعمل الجاد الواعي ، وأن الشعارات مهما سلمت ليست كافية كمنطلق على طريق العمل الوحدوي ، وأنه لابد لهذا العمل من أسس علمية ودراسات تأخذ الواقع بعين الاعتبار ، وتمهد لخطوات اسرع وأبعد مدى نحو هدف الوحدة الكبرى» (من بيان الرئيس القائد حافظ الأسد الى الشعب العربي السوري مساء الاثنين ١٩٧١/٨/٣٠) .

ان قبول الشعب العربي بقيام الاتحاد اليوم ، انما هو قبول لبنية من بنى الوحدة العربية في نطاق ظرف تاريخي عربي ودولي معين . وهو في الوقت ذاته حافز على دفع الاتحاد الى الوحدة، والى اقامة البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تبرهن فعلاً على أن الشعب العربي واحد ، وأن ارادته في الوحدة ليست نتاج اندفاعة عاطفية ، بل تعبيراً عن تصميم اصيل وراسخ على اقامة دولة حديثة واحدة رغم كل ما اصاب هذه الأمة من تجزئة وتمزق .

ان اليوم الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ هو بداية مرحلة جديدة من تاريخ النضال التحرري الوحدوي للشعب العربي . ماترى ستكون عليه سمات هذه المرحلة الجديدة ؟ من سيقول لنا كيف تصبح دولة الاتحاد بعد ثلاث سنوات أو عشر ؟ ان ثمة حقائق موضوعية ليست بحاجة الى جهود المتنبئين ليكشفوا عنها، فقد استخلصها هذا الشعب من كفاحه الماضي وقد امتد عبر قرون طويلة ، وستظل صالحة للمستقبل ، خلال ما تبقى من هذا القرن على الأقل .

أولى هذه الحقائق أن أمام النضال العربي طريقاً طويلة شاقة . ان تحرير الارض ، كتحرير العقل ، يحتاج الى جهد لا يعرف حدوداً الا حدود الإصرار على بلوغ الهدف المنشود . ليست اسرائيل وحدها عـدو التحرر العربي ، ولا

الامبريالية بمفردها .. ألف عامل آخر من العوامل الداخلية ما تزال تقف في وجه التفتح الشعبي ، وتلتهم دون نتيجة ايجابية كفاح الملايين من شعبنا . كم من طاقات طيبة نبددها ، وكم من قوى نستهلكها دون أي مردود ؟ فليس التحرر طرد الدخيل وحسب، بل هو تحرر العقل من كل ماران عليه من غشاوات وظلمات.

وثانية هذه الحقائق أن جهد المواطن العربي في القرن العشرين لن يؤتي أكله الا في نطاق جماعي . ان الطاقات العربية ، لا تختلف في شيء عن الثروات العربية والموارد الاقتصادية العربية ، كلها تصبح قوى عظيمة ونافعة حين تجتمع مع بعضها وتتوحد. بذلك يتحقق التحرر، مثلما يتحقق البناء ، وبذلك يمكن أن تقوم اشتراكية عربية تحقق الرخاء والعيش الكريم لكل فرد ، وللجماعة كلها .

وثالثة هذه الحقائق أن التقدم الذي ينشده المجتمع العربي لا يمكن احرازه بوسائل غير ثورية . جميع اشكال الرأي الذي يتشدق به أنصار الليبرالية والتطور المتدرج هو دليل على جهلهم بالواقع ، ان لم يكن دليلاً على سوء نواياهم ازاء شعبهم . ان أمة فاتها عصر البخار وعصر الكهرباء ، وكذلك الحضارة الصناعية الاولى والثانية لا تستطيع قطعاً أن تساير عصر الذرة والسيبرنتيك وأن تتفاعل معه اذا لم تحقق تطورها على شكل قفزات ثورية . لا يمكن أن تنفصل الوسائل عن الغايات . الغايات الثورية تتطلب وسائل ثورية ، والانتقال من التخلف الى التقدم بالنسبة الى شعب كالشعب العربي يحتاج قبل كل شيء الى هذا التناسق بين الغاية والوسيلة . وحين تكون الغايات عظيمة، وتكون الارادة الدافعة اليها كبيرة، فان الانجازات ستكون متكافئة معها وتكون من مستوى شعب حي ، جدير بمواكبة الحضارة الحديثة بل والاسهام في تشييد صرحها .

في السياسات النفطية العربية

عصام الزعيم

اسفرت المجابهات الأخيرة بين الاقطار المنتجة والمصدرة للنفط - العربية بمعظمها - والشركات النفطية الدولية الانكلو اميركية وخلفها الفرنسية العامة والمختلطة عن توقيع اتفاقيات طهران وطرابلس مؤخراً[1]، بعد ان واجهت البلدان المنتجة المصالح النفطية الدولية المتضامنة فيما بينها بوحدة في الموقف وبالتلاحم، واليوم فما زال النزاع قائماً بين الجزائر ومجموعة الشركات الفرنسية العاملة فيها ان العامة الحكومية منها او المختلطة. ان تأميمات ١٩٧١ قد زعزعت المواقع الفرنسية التي ارستها اتفاقيات ايفيان سنة ١٩٦٢ وعدلتها اتفاقات المشاركة التعاونية سنة ١٩٦٥. وقد وقع اتفاق بين الشركة الفرنسية للنفط وشركة سوناطراك الجزائرية تلا فتح المفاوضات في ٢١ تموز (يوليو) الماضي بين الشركة الفرنسية العامة ايراب والسلطات الجزائرية.

---

(١) لم تشذ عن هذا الاجماع الصدامي سوى شركة ايني ENI الحكومية الايطالية الناشطة في العديد من الاقطار العربية كما هو معلوم.

ومن المهم بمكان دراسة الممارسات النفطية للاقطار العربية ليس في منظور هذه المعارك الأخيرة ونتائجها فحسب وانما أيضاً من حيث استراتيجية التحركات النفطية المتباينة للحكومات العربية . ان هذه الاهمية تأتي من الطبيعة الموحدة - موضوعياً - لهذه المجابهة على تعددها وتنوعها ومن العلاقات الجدلية المتبادلة فيما بينها ، فالشركات العاملة تشكل قوة متكاملة تجمعها مصالح استراتيجية واحدة وان غطت هذه المصالح باشكال متناقضة او متباينة من التكنيك والسياسات المرحلية ، ومصير أي سياسة نفطية قطرية مرهون بالسياسات النفطية الاخرى مثلما الانتاج الانفرادي يتأثر باستمرار بوتائر الانتاج الاخرى التي تحددها الشركات الكبرى المهيمنة ولا سيما في ذروات الصدام ، وقد جاء انشاء مكتب التنسيق لشركات العالم النفطية على اختلافها خلال ازمة طهران برهاناً جديداً على الطابع الشامل للمجابهات النفطية مع هذه الشركات ، إن اعوز امرءاً البرهان .

ونخلص الى القول ان رسم الخطوط العريضة للسياسات النفطية العربية أمر عملي لأنه مقدمة لطرح استراتيجية عربية تحررية متقدمة في مضمار النفط .

السياسة النفطية الجزائرية

من الاحتلال الاستعماري ورثت الجزائر القانون النفطي الصحراوي لعام ١٩٥٨ وتواجد الشركات الفرنسية (ايلف - ايراب ELF/ERAP الحكومية والشركات الفرنسية للنفط C. F. P. المختلطة) واخرى انكلو ساكسونية مثل شل SHELL وغيتي GETTY وسنكلير SINCLAIR . وبعد توقيع اتفاقات ايفيان في آذار (مارس) ١٩٦٢ ، اجرت الجزائر اتصالات مع فرنسا التي باتت شريكها الاول بغية تعديل علاقاتها الجديدة وفقاً للقانون الصحاري ومنذ ذلك الحين ، تميزت السياسة الجزائرية بالمظاهر التالية :

١ - استراتيجية استرداد القطاع النفطي بهجوم متصاعد يستهدف تغيير موازين القوى ، وبالفعل فقد استعملت الجزائر اسلوب الضربات المتلاحقة مستندة الى مبررات متعددة :

- فنية : بتناول شروط الاستخراج وصيـانة الاحتياطي الثابت وتطويره مع زيادة الانتاج .

- مالية : وتتناول إما زيادة حصة البلد من الارباح كما يدل اتفاق تموز (يوليو) ١٩٦٥ ، او زيادة الجزء من الارباح الذي توظفه الشركات العاملة ثانية في صناعة النفط بالجزائر .

- حقوقية : كتأميم شركة سنكليرميديترانيان Sinclair Mediterranean بعد ان اندمجت شركة سنكلير الام مع شركة اتلانتيك ريشفيلد Atlantic Richfield في الولايات المتحدة دون ابلاغ الجزائر بهذا الاندماج .

- سياسية بحتة : كالرد على ضلوع الولايات المتحدة مع اسرائيل في حزيران يونيو ١٩٦٧ لضرب الشركات الانكلو ساكسونية .

٢ - التجزئة من اجل النصر ، ذلك هو بايجاز الشعار المبدئي للجزائر في مساعيها لمجابهة الشركات العاملة ، كلا منها على انفراد حيث تبدل الجزائر تسلسل المجابهات ، فتتصدى للشركات الاميركية والكبرى بالذات في مجرى الاحداث المحمومة سنتي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ مؤجلة لاعتبارات تكتيكية نزاعاتها مع الشركات العاملة الاخرى ، أي الفرنسية .

وبالفعل ، فان التكتيك القائم على « عض » الشركات الأجنبية له مزية الحد من المخاطرات وتقليل ردها وبكلمة ، توطيد آخر ماتنتزع من مواقع جديدة ، من خلال عمليات اجتزاء مرحلية .

وعلى الصعيد الهيكلي ، تحمل السياسة النفطية الجديدة تجزئة مزدوجة :

افقية : بين النفط الخام والغاز الطبيعي وبين مساحات الامتياز الفرنسية والمساحات الانكلو - اميركية .

شاقولية : بين مرحلة انتاج الخام والمرحلة التالية لها ولاسيما بين الانتاج ونقل التصريف ، بين الانتاج والتكرير وأخيراً بين الانتاج والبترو كيمياء .

ومن خلال هذه الممارسة تقوي الشركة الوطنية مواقعها وتزيد حصتها في القطاع الذي تحس فيه بانها نسبياً افضل موقفاً مع شريكاتها الاجنبية وذلك باستخدامها الوضع المؤاتي لها الذي أوجدته لتعض من ثم على القطاع المجاور مجتزئة منه المزيد .

٣ - وعلى العموم ، فان الهجوم الجزائري يتجه باتجاه المصب اذ يستهدف التمركز المطلق في البترو كيمياء داخل حدود القطاع العام بينما مايزال انتاج الخام وتوفير الخبرة الفنية تعطيان قطاعاً وطنياً متواجداً مع قطاع مختلط (جزائري - اجنبي) . أما بالنسبة لقطاع الغاز الطبيعي ، فان عدم اهتمام الشركات العامة اهتماماً مبكراً بتجميع الغاز وتكييفه واستثماره كان بالضبط العامل المساعد على انتقال هذا القطاع بسرعة ملحوظة الى ملكية الدولة وحصره بها بصورة كاملة منذ التأميمات الأخيرة في مطلع ١٩٧١ . كذلك فان النشاط الشديد الذي تبذله الدولة الجزائرية في البحث والتنقيب هو واحد من أهم الحجج التي يقدمها المسؤولون الجزائريون لاظهار عدالة المطالب الأخيرة مثلاً كما يظهر في خطاب

وزير الصناعة والطاقة الجزائري في جلسة افتتاح ندوة النفط والتنمية العربيــة بالجزائر في تشرين الأول اكتوبر ١٩٧٠ .

لقد اقامت الاتفاقات التعاونية سنة ١٩٦٥ مشاركة متكافئة في مساحات البحث والانتاج مع تسهيلات للجزائر في تمويل الاستثمارات، وفي تقاسم مساحات الانتــاج وبتطور تقاسم الأرباح من ٥٠ الى ٥٣ بالمائة في ١٩٦٥ - ١٩٦٧ ، ٥٤ بالمائة في ١٩٦٨ و ٥٥ بالمائة فيما بعد ، لصالح الجزائر .

ولكن تأميمات النفط جزئياً والغاز بكامله في مطلع سنة ١٩٧١ هي التي أتت بميزان جديد للقوى يمكننا وصفه بالاستثمار الغازي الوطني المباشر وبالمشاركة المالية بنسبة ٥١/٤٩ في النفط الخام. مما يدفعنا للاعتقاد بطابعه الكامن الدينامیکي والتطوري .

غير ان هذه التدابير لم تستهدف قلب أسس السياسة الجزائرية في مشاركة فرنسا ولا حرف اتجاهها المتمثل في توجيه الخام الجزائري الى السوق الفرنسية وانما ابتغت تعزيز مواقع الجزائر ضمن هــذا التحالف الثنائي واستخدام النسبة الجديدة للمشاركة المالية كضمانة لاستمرار تصريف النفط الخام الجزائري في سوقه الفرنسية التقليدية ، وبقية اسواقه الاوربية ، و كوسيلة لمضاعفة اسهام الدخول النفطية في تمويل التصنيع الجزائري .

٤ - ولكي تصوغ السلطة الجزائرية البــديل الفني والمالي والاداري وتطرحه ، فانها تجند لهذا الغرض ، شركتها الوطنية سوناطراك Sonatrach وبفضل تكتيك الهجومات المتدرجة في الزمن وفي الامتداد الجغرافي : قطاع الغاز وقطاع الخام ، القطاعات الجزئية لكل مما سبق، وقطاعات الشركات العاملة

- الحكومية والمختلطة - ، تتوفر لدى سوناطراك الثقة الضرورية بالنفس والمرونة والقدرة على التأقلم ازاء التغيرات .

٥ - ان سياسة الجزائر النفطية تعطي الأولوية للبنـــاء المحلي وتشييد المشاريع الجديدة ولكنها ، بنفس الوقت ، تحرص على تحقيق تضامن فعلي هو اكثر من حيوي بين البلدان العربية على المستوى السياسي (جبهة العراق وليبيا والجزائر ومصر) وفي نطاق منظمة الدول العربيـة المصدرة للنفط مع التركيز على التحرك ضمن منظمة الاوبك وهو المجال الرئيسي للتحرك الخـارجي للجزائر . كما ان الصلات الثنائية مع ليبيا بالذات تشهد بعد ثان للاهتمام التضامني لهذه السياسة .

التأميم والتجربة السورية

من على الأوضية القومية والسياسية أساساً، صاغت الحركة الوطنية العربية بالحقيقة مسألة التأميم الخطـيرة وعمقتها في الأوساط الشعبيه : ان جملتين من المسؤوليات التي يتحملها الغرب (الانكلو - اميركي بشكل خاص) قد ترددتا باستمرار لنشر المذهب الوطني النفطي وهما اضطهاد الشعب العربي الفلسطيني على يد الصهيونية المتحالفة مع الدول الامبريالية أولاً ، ثم تجزئة الوطن العربي وما أعقبها من حكم سياسي وعسكري اجنبي واصطناع ما يشبه الدويلات [١] ، وهذا القول يصح أكثر ما يصح على نظرة القوى الوطنيـة والاشتراكية في سورية الى

(١) EL - Zaïm, Issam : « L'Hégémonie Petrolière Etrangére et Indust rialsation PétroLiére arabe » Rapport au Colloque Sur la Renaissence du Monde Arabe, Uiversité de Luvoin , Novembre 1970 , 71 P.

خلفيات قضية النفط العربي . ان الشروط الخاصة باستثمار سورية نفطها استثماراً وطنياً ومباشراً هي بالدرجة الرئيسية ستة شروط [1] :

١ ـ ارادة سياسية منهجية على صعيد السلطة الوطنية التقدمية :
بعد ان صدر قانون تأميم الثروات النفطية والمعدنية والتي في باطن الارض الصادر في نهاية ١٩٦٤ تبنت السلطة التي اقيمت بعد ٢٣ شباط فبراير ١٩٦٦ مهمة ترجمة هذا القانون الى واقع حي في صالح الاقتصاد الوطني والتحرر .

٢ ـ فترة طويلة من التنقيب الاجنبي : في البدء قامت مجموعة شركة العراق تحت اسم شركة نفط سورية (S. P. C.) بالتنقيب ثم اوقفت اعمالها معلنة رسمياً انها لم تعثر على خام تجاري ، ثم جاءت شركة كونكورديا الالمانية الغربية والمرتبطة بالرأس المال الاميركي وكذلك شركة منهل الاميركية فعثرتا على خامات السويدية وقراتشوك غير انها فشلتا في استثمار الخامات المكتشفة واجبرتا على الرحيل[2] رغم ان كونكورديا وجدت آذاناً صاغية فتابعت الضغوط والوعود حقبة من الزمن بالمساومة على تمويل بناء سد الفرات من قبل المانيا الغربية حتى أممت الثروة النفطية ووقع عقد السد مع الاتحاد السوفياتي .

٣ ـ اللجوء الى المساعدة المالية والفنيـة للبلدان الاشتراكية على مختلف المستويات :

ـ المساعدة المالية والفنية والخبراء من الاتحاد السوفياتي في مستويات

---

(١) عصام الزعيم : التجربة النفطية السورية في الاستثمار الوطني المباشر ، ابعادها وخصوصيتها ، محاضرة في غرونوبل ٣٨ صفحة بالفرنسية .

(٢) د . محمد العمادي : « تجربة الجمهورية العربية السورية في ميدان استثمار النفط وطنياً » ، بحث مقدم إلى ندوة البترول والإنماء الاقتصادي في البلاد العربية المعقودة في الجزائر ، تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٠ .

التنقيب والحفر والانتاج . ان المخطط البياني لهذه المساعدة يتسم بصعود ملحوظ ومتواصل في مرحلة أولى طويلة هي مرحلة تطوير الحقول واستثمارها في مختلف أرجاء البلاد ثم تستقر هذه المساعدة لتتضاءل نسبياً بعد استكمال البنية التحتية لقطاع النفط الوطني ، على المدى البعيد .

- المساعدة المالية والفنية وبالخبراء من تشيكوسلوفاكيا في التكرير وتكوين الفنيين العرب و كذلك في قطاع الاسمدة .

٤ - اللجوء الى معونات الهيئات الفنية والهندسية الحكومية للبلدان الغربية كلما بدا ذلك ضرورياً ، ولكن بحصرها وتقليصها باستمرار . لقد قام المعهد الفرنسي للنفط بالدراسة المخبرية ووضع المواصفات المتعارف عليها للعينات الاولى من الخام السوري وكان ذلك في بدء مراحل الاستثمار ، كما بنت شركة سنام بروجيتي Snam Projetti الحكومية الايطالية وهي شركة المقاولات والهندسة التابعة لشركة Eni خط الانابيب ، قراتشوك - طرطوس ، كما ان مكتب الهندسة التابع لمعهد النفط الفرنسي قدم مساعدة فنية عند توسيع مصفاة حمص وتعديلها لاستقبال الخامات السورية (*) .

٥ - سياسة تجريبية للتسويق المباشر في الخارج ، فقد باعت الدولة الكميات الاولى من خامها الوطني في اوربا الغربية تنفيذاً لاتفاقات مقايضة ولكنها آثرت غالب الاحيان البيع المباشر للحصول على القطع النادر ثم وقعت عقد مقايضة مع شركة فيات الايطالية اثار كثيراً من الجدل ، ويبدو ان المسؤولين عن النفط عادوا للبيع المباشر بالاولوية بغية الحصول على القطع النادر .

(*) كررت مصفاة حمص منذ ان انشأتها تشيكوسلوفاكيا وسلمتها الى سورية خامات العراق ورافق توسيعها تعديل لتكرير الخامات السورية فيها .

ومؤخرا رفعت سورية اسعارها المعلنة Prix affichés بنسبة كبيرة كما انتزعت من شركتي نفط العراق والتابلاين زيادة محسوسة من عوائد مرور النفط في اراضيها .

وتتضح باستمرار الحاجة الى تعاون مع الجزائر لخلط الخامات السورية بالخامات الجزائرية اي خامات ثقيلة كبريتية واخرى خفيفة قليلة الكبريت بحيث تقوي القوة الشرائية لهـــذه الخامات وتتوفر افضل الشروط لتسويقها في اوربا .

٦ - تخطيط طويل المدى يستهدف انشاء صناعة البتروكيمياء والاسمدة يساير اصلاح الهيا كل الزراعية والبناء الصناعي وارساء البنى التحتية .

ومن المؤكد ان فقدان جدول بالعلاقات القطاعية المتبادلة Tableau Inter-sectoriel وضعف التنسيق بين القطاعات في مستوى الانماء يحولان دون تلمس كل الآثار الاقتصادية والاجتماعية المباشرة المترتبة على استثمار النفط حتى الآن .

ان تخطيط التصنيع البتروكيمائي والتجهيزات القطاعية التفصيليـــة في الزراعة والصناعة ضروري لاعطاء الاستثمار الوطني للنفط أقصى ابعاده الاقتصادية.

<u>سياسة ليبيا النفطية</u>

تحمل السياسة الليبية تأثير اطارها التطبيقي المتأخر زمنياً . في عام ١٩٥١ اصبحت ليبيا مستقلة فعلا من الوجهة السياسية وبعد أربعة أعوام أي في سنة ١٩٥٥ سنت حكومتها آنذاك الصيغة الأولى من القانون النفطي الليبي .

ان الامتياز هو الصيغة الحقوقية الرئيسية لاذون الاستثمار الممنوحة للمصالح الأجنبية غير ان المقصود بالامتياز هنا ليس ما عرف ما قبل الحرب الثانية . فامتيازات التنقيب هنا محددة جداً بالزمان والمساحة ، فهي مقرونة بالزامات بان

ترد شركات الامتياز مساحات امتيازاتها تدريجياً وفي مدد متلاحقة ومحددة ، كما ان كل شركة اجنبية مدعوة لانشاء مصفاة فور اكتشافها النفط .

في سنة ١٩٦٤ قدرت مساحات الامتياز بثلثي أراضي البلاد . فكانت موزعة على ٢٥ شركة تنتمي حقوقياً الى ٧ امم . وقد اتخذت السلطات الليبية من هذا التوزع سلاحاً بيدها في وجه الشركات حيث ان الشركات الأجنبية العاملة هناك مختلفة بالفعل من حيث الأهمية ودرجة التمركز الافقي أي مقدار التحكم بمصادر نفطية اخرى خارج ليبيا ، وقد استغلت ليبيا بسرعة هـذا الاختلاف في كل معركة خاضتهـــا مع العاملين الأجانب . وعن طريق الزام الشركات برد المساحات الممنوحة لها الى ليبيا بصورة متدرجة في المساحة والزمان معاً ، نجحت السلطات الليبية في مسعاها بتسريع وتنشيط أعمال البحث واستثماراته وذلك لأن الاكتشاف التجاري هو وحده الذي يكسب بنفس الوقت توظيف الاستثمارات صفتها الرابحة وهو ، فضلاً عن ذلك ، يتيح تجديد الامتياز حيث تم اكتشاف النفط الخام بنجاح في المرحلة الأولى .

باصدارها القانون النفطي الجديد الصادر في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٦٥ استهدفت ليبيا زيادة عوائدها ومدخولها من النفط . لم يتناول القانون الامتيازات الممنوحة للشركات في الماضي ولكن الحكومة الليبية اعطت في مجال الامتيازات الجديدة للشركات التي تبادر قبول الخضوع طواعية لأحكام القانون الجديد رغم ان هذا القانون لم يشمل الامتيازات الممنوحة لها قبل صدوره ، وهكذا تمكنت ليبيا من جر الشركات للقبول بالشروط المعدلة للاستثمار باعطاء الاسبقية في تجديد الامتيازات على المساحات المستردة (٥٠ بالمائة في نهاية ١٩٦٥) للشركات التي تعرض ، نسبياً ، افضل الشروط على الدولة الليبية ، وقد أثار ذلك تنافساً حاداً

بين الشركات الصغيرة والكبيرة كانت نتيجته ان حصة ليبيا من الأرباح زادت عن السقف الأدنى المحدد بالقانون الجديد تنفيذاً لقرار منظمة الاوبك (Opec) القاضي بتقاضي الدولة ٥٠ بالمائة من الأرباح مع تنفيق الريع (أي ادراج ريع ١٢٫٥ بالمائة في الأسعار المعلنة كعنصر من عناصر نفقة الانتاج وليس من دخل الدولة المنتجة) . أخيراً فرضت السياسة الجديدة المقررة سنة ١٩٦٥ تطبيق قرار آخر من قرارات منظمة الاوبيك وهو دفع الشركات ضريبة اضافية تصاعدية على التسويق .

وبسقوط الملكية وقيام حكم وطني راديكالي اتخذت تدابير جديدة متعاقبة شددت رقابة الدولة على النشاط البترولي . ففي حزيران يونيو ١٩٧٠ أممت الدولة استيراد المنتجات المكررة وتوزيعها في السوق الليبية وأناطت ذلك بالشركة الليبية الوطنية للنفط لينوكو (Linoco) وقررت الجمهورية العربية الليبية انه من غير المعقول ان يستمر بلد ينتج ١٦٥ مليون طن من النفط باستيراد المنتجات المكررة لسد حاجاته وبلورت مشروعا ببناء مصفاة طاقتها ٤٠ الف برميـــل يومياً غرب العاصمة طرابلس ومشروعاً ثانياً ببناء مصفاة في المريسة قرب طرابلس طاقتها اليومية ٥٠ الف برميل .

وبالاضافة الى هاتين المصفاتين لتكرير الخام هناك مشاريع معامـــل الامونياك ومادة الفحم الاسود البترو كيميائية (Carbon Black) ، بينما تنفذ بعض الشركات العاملة مشاريع الغاز الطبيعي المسال (GNl) ومادة الميتانول (Methanol) البترو كيميائية .

ان المطاليب الليبية تقترب جداً من مطاليب الجزائر . فهي تتناول تقنين الانتاج (تنظيم وتائر ازدياده) وشروط الاستخراج الفنية أولاً كما تتناول

حساب قاعدة الالزام الضرائبي (مبدأ الاسعار المعلنة) على ضوء الانعكاسات الاقتصادية على التجارة الدولية للنفط من جراء اغلاق قناة السويس ثانياً وهي تشمل اعادة استثمار الأرباح التي تحققها الشركات العاملة ، في ليبيا ثالثاً ونقل الفوائد الاقتصادية للنشاط النفطي الأجنبي الى الاقتصاد الليبي عامة أي بعبـــارة اخرى لتنشيط الصناعات النفطية والبتروكيميائية والتنمية الاقتصادية الحديثة .

ولكنها بحكم حداثتها وخطورة عنصر المخاطرة فيها لاسباب تتعلق بتركيب الاقتصاد الليبي متخلفة عن الجزائر التي ولجت باب التأميم منذ سنوات وتقدمت في دربه مؤخراً . وبالواقع فان الاقتصاد الليبي وتنميته يعتمدان اعتماداً تاماً تقريباً على النفط وقد أدت الحمى النفطية الى تخريب الزراعة وتضخم الأسعار والاجور في المدينة ونمو الخدمات والنشاطات العقارية وغيرها من المضاربات نمواً رهيباً يتسم بالخلل . وتحت تأثير النماذج العربية الاخرى من السياسات النفطية انشئت مؤسسة حكومية للنفط في نيسان ابريل ١٩٦٨ ولكن دورها ظل ملتبساً وهامشياً خلال السنتين الاوليين .

ولكن التصدي لإشكالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية دفع الدولة الليبية لتصور تدخل ايجابي ومتعاظم من قبل في قطاع النفط ذي الأهمية الحيوية وعلى غرار الاقطار العربية التي يطغى فيها نظام الامتيازات ، فتجنح لتبني اشكال المشاركة المالية والمقاولة بحيث تتواجد هذه الصيغ المختلفة للاستثمار ، اتجهت ليبيا الى نظام المشاركة ووقعت في نيسان ابريل ١٩٦٨ (أي قبل ثورة ايلول سبتمبر ١٩٦٩) اتفاقية مشاركة (Joint — Venture) بين شركة اكيتين - ايلف : Aquitaine — ElF المتفرعة عن المجموعة الحكومية الفرنسية الثنائية (SNPA(Aquitaine وايلف - ايراب Elf Erap والمؤسسة الليبية الوطنية للنفط . وفي عام ١٩٦٩

وقعت عقود مشاركة جديدة : عقد أول في أيار مايو مع شركة اجيب AGip المتفرعة عن شركة ايني Eni الحكومية الايطالية وعقد ثان مع الشركة الاميركية الخاصة « المستقلة » آشلاند اويل Ashland Oil وفي الشهر التالي اي حزيران يونيو ١٩٦٩ عقد مشاركة أيضاً مع شركة شل Shell البريطانية الهولندية من مجموعة « الشقيقات السبع » .

وبعد قيام الحكم الوطني الجمهوري صدر في آذار مارس ١٩٧٠ مرسوم باعادة المؤسسة الوطنية ليبتكو Lipetco حيث حولت تحت اسمها الجديد الى شركة وطنية متمتعة بصلاحيات واسعة لتلعب من خلال نظام المقاولة Linoco الذي جرى ادخاله دوراً اساسياً وتحد بذلك من هيمنة الشركات الاجنبية(١) .

وقد منح الملحق رقم ٨ لعام ١٩٦٨ الدولة الليبية ضمانات الرقابة المستمرة على الشركات الاجنبية في سبيل المحافظة على الموارد النفطية .

وفي هذا الاطار يجدر بنا أن ننظر أيضاً لتقنين انتاج الشركات العاملة من النفط الليبي (تحديد كميات الانتاج ووتائر ازدياده السنوية) تطبيقاً لتوصية أخرى وضعتها منظمة الاوبيك (Opec) .

ان الميزانية والتنمية الاقتصادية تخضعان خضوعاً خطيراً لدخول النفط مما يشدد من قوة الردع التي تملكها الشركات الاجنبية العاملة في وجه السلطة الوطنية وقد لبت اتفاقات طهران وطرابلس الجماعية مؤخراً مطالب ليبيا بشأن الاسعار المعلنة والنظام الضرائبي غير ان مطالبها الأخرى ولا سيما الخاصة باستثمار

---

(١) محمد شكري غانم (المدير العام للدائرة الاقتصادية والابحاث في ليبيا) : دور النفط في التنمية الاقتصادية في ليبيا ، ندوة الجزائر ، تشرين الاول اكتوبر ١٩٧٠ ، ١٤ صفحة .

الأرباح في الأرض الليبية مازالت قائمة بالحقيقه . وينبغي علينا ان نشير هنا الى ان السلطة الحالية تؤكد على انها عازمة على تعديل المعطيات النفطية في ليبيا بما يخدم سياسة ارساء البنى النفطية والغازية الوطنية المستقلة وتشييد القطاع الكيميائي. ومن الناحية الموضوعية فان اتفاقات المشاركة المعقودة خلال السنوات الاخيرة مع الشركات وهي بمعظمها خاصة و « مستقلة » ، أو حكومية أوربية (ايطالية Ent وفرنسية Elf Aquitaine ، تساعد ليبيا كسائر الاقطار العربية ذات الاستثمارات الامتيازية ، على ان تصحح بصورة جزئية ومحدودة فقدان الترابط بين قطاعات الاقتصاد وتنسج وشائج بين القطاع النفطي وقطاعات الاقتصاد الاخرى الوطنية. فعقد المشاركة مع أجيب (Agip) المتفرعة عن شركة Eni الايطالية الحكومية مثلاً كان في أساس المشروع الجديد لبناء خط للأنابيب بغرض تمويل مصفاة بنغازي الجديدة والذي تنفذه شركة سنام بروجيتي Snam - Projetti (*) . ان ثقل التبعية المالية والاقتصادية للدخول النفطية من قطاع الاستثمار الاجنبي في ليبيا يحد من دائرة التحرك الوطني .

أخيراً ، فان التنسيق هو سمة أساسية للسياسة الليبية حيث تتمتع ليبيا بعضوية منظمة الاوبيك (Opec) ، وبعضوية أخرى (استمرت بعد ايلول سبتمبر ١٩٦٩) في منظمة الدول العربية المصدرة للنفط (Oapec) . وهي تبذل جهوداً مشتركة مع الجزائر لإدخال العراق في هذه المنظمة . وأخيراً فان ليبيا تنسق سياستها النفطية مع كل من الجزائر والعراق منذ توقيع اتفاق ٧ كانون

(*) الشركة المتخصصة بالهندسة والمقاولات المتفرعة عن شركة ايني Eni .

الثاني يناير ١٩٧٠[١] الذي تأكد في حزيران يونيه ١٩٧٠ عندما تألفت جبهة نفطية من ليبيا والجزائر والعراق ، الغرض منها تأكيد التضامن بين الاقطار العربية الثلاثة من اجل استعادتها حقوقها الكاملة في ثرواتها الطبيعية والتصدي لضغوط الشركات الدولية عليها ، وقد قررت هذه الدول :

١ - انشاء صندوق مشترك لدعم الدولة التي تتعرض لأضرار ماليةخلال اصطدامها بشركات النفط الاحتكارية .

٢ - اقامة مشاريع مشتركة بميادين الصناعة النفطية والنقل البحري للنفط ومشتقاته والتأمين النفطي .

ان اعلان هذه الجبهة الثلاثية كان عنصراً من عناصر الردع العربي في المعارك الاخيرة بين الشركات الدولية من جهة ، ومنظمة الاوبيك في طهران والدول المتوسطية المصدرة في طرابلس من جهة أخرى .

التطورات الاخيرة في سياسة العربية المتحدة

خلال سنتي ١٩٦٣ و ١٩٦٤ وقعت الجمهورية العربية المتحدة عقوداً تشاركت بموجبها الشركة المصرية للنفط مع شركتين اميركيتين (مستقلتين)هما بان اميركان Pan American وهي فرع لشركة ستاندارد اويل اوف انديانا Standard Oil of Indiana وفيليبس Phillips وكذلك مع الشركة الايطالية الحكومية ايني Eni للتنقيب عن النفط وتطوير حقوله في الدلتا والصحراء الغربية ومياه خليج السويس .

---

(١) حصيلة نشاطات المنظمة الوطنية الليبية للنفط ، تقرير الى ندوة الجزائر ، تشرين الثاني اوكتوبر ١٩٧٠ ، ١٩ صفحة .

وبعد العدوان الاسرائيلي في ١٩٦٧ احتلت اسرائيل سيناء فحرمت القطر المصري بذلك من معظم انتاجه وكان يقدر آنذاك بأكثر من ستة ملايين طن سنويا ، وتبعاً لذلك فقد وضع النظام الناصري في رأس أهدافه اعاده بناء الانتاج الوطني ريثما يتم استرداد الأراضي المحتلة من قبل القوات الاسرائيلية . ولكن هذا المخطط الانتاجي لم يوضع بصورة مستقلة عن اهتمامات أخرى منها أن النفط مفتاح لحل مشاكل الميزانية وإعادة تسليح الجيش على نطاق واسع بالأسلحة العصرية وتحقيق التنمية الاقتصادية ، وهي اهتمامات باتت خطيرة الاشكال غداة النكسة .

وهكذا ، فإن اختيار عقد المشاركة قد تم بالاستناد الى الاعتبارات الآتية [١] :

١ - تمكين الدولة من اكتشاف المصادر النفطية في ثلاثة مناطق من البلاد بأقل كلفة ومخاطرة ، وبالفعل ففي المرحلة الأولى من التنقيب ، يتحمل الشريك الاجنبي ٧٨ بالمائة من تكاليف العمل ، بينما لايبدأ الجانب المصري بالمساهمة المالية الا في مرحلة تطوير الحقول التي تم اكتشافها والشروع باستثمار هذه الحقول .

٢ - تحقيق دخول هامة بأسرع وقت أي منذ المراحل الأولى من الانتاج بما يعزز وضع الاقتصاد الوطني حيث تنال مصر ، كشريك وفقاً لهذه العقود مايتراوح بين ٥٠ - ٦٠ بالمائة من الانتاج عيناً بالاضافة الى نيل ٥٠ بالمائة على الارباح .

---

(١) الدكتور محمد امين (رئيس مجلس ادارة الشركة النفطية للصحراء الغربية) « حصيلة عقود المشاركة في الجمهورية العربية المتحدة » ، ندوة النفط والتنمية العربية ، الجزائر تشرين الاول ١٩٧٠ ، ١٦ صفحة .

٣ - المباشرة سريعاً بأعمال الاستثمار وذلك بفضل تمويل هذه الاعمال وتنفيذها دون ابطاء بما يوفر مالاً ووقتاً .

٤ - ضمان مشاركة الدولة فعلاً في تنفيذ الاعمال ، اذ تتدخل السلطات العامة لتحدد وتدقق نفقات التنقيب و كذلك الأسعار ثم التمويل أي بكلمة ، في مرحلة الانتاج وذلك من خلال تواجد السلطة الوطنية في جهاز الادارة الخاص بالشركة الثنائية المشكلة .

٥ - استخدام المصادر المحلية بأقصى حد ممكن ، ونعني بهذه المصادر القدرات البشرية والسلع الانتاجية والخدمات المحلية ، وعلى سبيل المثال فان المواطنين العرب المصريين يشكلون ٨٥ بالمائة من الفي موظف يعمل في هذه المشاريع الهامة .

ويرى المسؤولون عن قطاع النفط والقيمون عليه ان المشاركات مع المصالح الاميركية الخاصة المسماة عادة بالمستقلة (مثل فيليبس وبان اميركان) وتلك الايطالية الحكومية ايني (Eni) هي مشاركات من شأنها تلبية هذه الحاجة القاهرة الاقتصادية والفورية لدى القطر المصري الى كلف انتاجية معتدلة .

وجنبا الى جنب مع هذه المؤسسات المختلطة ، توصلت الشركة المصرية الحكومية (EGPC) في بحر اربع سنوات بالكاد لاكتشاف كميات هامة من الغاز الطبيعي وخاصة في حقل المرجان واهم من هذا التحقيق انتاج مصري سنوي قدره ٢٥ مليون طنـا ، وذلك عدا نفط سيناء المستولى عليه من قبل اسرائيل .

وترى السلطات المصرية ان اختيارها شركات من خارج الكارتيل الدولي

واستنادها الى الحجم الكبير للاقتصاد الوطني ورسوخ السلطة الوطنية في العربية المتحدة يمكنها من انتهاج سياسة هي في رأي الكثيرين من قادة الصناعة النفطية المصرية ، السياسة الوحيدة الممكنة في المرحلة الآتية من حياة البلد . وبالفعل ، فخلال ندوة الاقتصاديين العرب بالجزائر في تشرين الاول او كتوبر من العام الفائت ، شدد مندوبو العربية المتحدة وجلهم يتلكون خبرة مرموقة ويتحلون بكفاءات عالية ، على الواقعية والتطورية في مضمار الاستثمار النفطي .

التجربة العراقية

لقد مارست الشركات الاجنبية العاملة في العراق سياسات انتاجية للخام تقوم على تخطيط الانتاج لفترة خمس سنوات وربط ذلك بقاعدة الخمس اسباع * مما ادى الى تأخير ازدياد الانتاج العراقي رغم ازدياد انتاج اقطار الشرق الاوسط وايضا الطلب العالمي على الخام زيادات كبيرة [1] وخلال السنوات ١٩٦٠ – ١٩٦٩ كان المعدل السنوي لازدياد الانتاج العراقي من النفط الخام ادنى من كل نظائره في كل من الشرق الاوسط ومجموعة اوبك والعالم . ولما كانت عائدات النفط تمثل القسم الاعظم من مصادر تمويل الاستثمارات الانمائية (حوالي ٧٩٫٢) بالمائة من مجمل موارد تمويل الاستثمارات في خطة التنمية القومية الخمسية لسنوات

(*) تنص قاعدة الخمس اسباع ان يحدد اعلى الاقسام الانتاج المخصص لاي شركة من شركات مجموعة شركة نفط العرب بكمية لاتزيد على خمس اسباع مجموع اقل قسمين تعينهما اية شركتين في المجموعة معا .

(١) دور شركة النفط الوطنية العراقية في تطوير الصناعة النفطية في العراق ، تقرير مقدم الى ندوة الاقتصاديين العرب عن النفط وتنمية الاقتصاد العربي . الجزائر تشرين الاول الدكتوبر ١٩٧٠ ، ١٠ صفحات وجدولان .

١٩٧٠ – ١٩٧٤) فان السياسة النفطية للعراق تتضمن في رأس ما تتضمن تحريك الازدياد السنوي لانتاج النفط العام كما انها تشمل ردا على تجميد الانتاج في قطاع النفط الخام الاجنبي بتشييد قطاع وطني النفط الخام يستفيد من الانخفاض الشديد لمعدل تكاليف انتاج النفط العراقي ويضاعف الانتاج موفرا للميزانية السنوية وخطة التنمية القومية المصادر الضرورية للتمويل .

في العراق لبى القانون رقم ٨٠ الذي سنه قاسم في عام ١٩٦١ واحدا من اهم المطالب الوطنية العربية في ميدان النفط ، اذ من المعروف ان المدد البالغة الطول (بين ٦٦ و ٨٢ عاما في بعض الاقطار العربية) للامتيازات الممنوحة وامتداد هذه الاخيرة على مساحات شاسعة يفوق الوصف تشكلان موضوعتين تناولهما بالحاح الشيخ عبد الله الطريقي والدكتور نقولا سركيس والدكتور عاطف سليمان بشكل خاص . وقد صرفت شركة نفط العراق (I. P. C.) كثيرا من الوقت حتى ادركت ان القرار العراقي الآنف الذكر لا رجوع عنه وان المفاوضات التي لا تنتهي عبر ثلاث سنوات لم تجد في ايقافه ، ولقد كانت لاستعادة العراق المساحات التي تتجاوز ٩٩ بالمائة من اراضيه الاقليمية من مجموعة شركة نفط العراق (I. P. C.) انعكاسات في العربية السعودية والكويت كما هو معلوم . وفي العراق بالذات اتاحت هذه الاستعادة انشاء شركة العراق الوطنية النفطية (Inoc) وتطويرها .

في عام ١٩٦٤ صدر القانون رقم ١١ بتأسيس شركة النفط الوطنية العراقية (Inoc) يخول الشركة بالعمل داخل العراق وخارجه في صناعة النفط من المنبع (الآبار) حتى المصب (الكيمياويات النفطية) وذلك بالمساهمة او التعاقد مع شركات اخرى .

غير ان السياسة النفطية العراقية لم تحدد آنذاك علاقة الشركة الوطنية بالشركات الاجنبية كما لم ترسم سياسة نفطية وطنية واضحة . فكان ذلك من العوامل التي شلت الشركة الوطنية عن استثمار الحقول المسترجعة التي كادت ترد الى الشركات الاجنبية العاملة ، لولا ضغط الرأي العام الوطني والشعبي .

وفي عام ١٩٦٧ صدر القانون رقم ٩٧ الخاص بشركة النفط الوطنية وحرم منح اي امتياز في المناطق المخصصة لشركة النفط الوطني وحصر حقول الاستثمار في اراضي العراق ومياهه الاقليمية بالشركة الوطنية . وهكذا فان السياسة العراقية تدرجت من موقف سلبي للشركة الوطنية في سنواتها الثلاث الاولى الى عدول عن التراجع عن القانون رقم ٨٠ لعـــام ١٩٦١ سياسة منع الامتيازات الجديدة ، وهكذا تحددت هذه السياسة بقبول عقود المقاولة وبتطوير قطاع وطني .

وهكذا اتخذت سياسة العراق النفطية ثلاثة اشكال متوازية وهي :

١ – الحوار والضغط ازاء مجموعة شركة نفط العراق لتدخل اهدافها وعناصرها المطلبية في نطاق برنامج منظمة الاقطار المصدرة للنفط (opec) المتعلق بالامتيازات . وقد اتخذ بقاء الاراضي المسترجعة قرابة ٢٣ – ٣٦ سنة دون أي تطوير أو استثمار سبباً لهذا الاسترداد . وقد لعب العجز في الميزانية واشكال تمويل التنمية دوراً في اثارة الازمـــات تارة والقبول بتسويات مع الشركات العاملة تارة اخرى .

٢ – سياسة استثمار غير مباشر عبر عقود المقاولة – النادرة – بمزيد من

النفع على العراق[1] ، وبالذات العقد الذي وقعه مع المجموعة الفرنسية الحكومية ايراب ايلف Elf - Eerap .

٣ ـ سياسة استثمار وطني مباشر بمعونة الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاخرى المالية والفنية وهي تتناول نشاط الحركة الوطنية في حقول الرميلة .

وفي نطاق هذا الجانب من السياسة العراقية نشير الى اتفاقيات التعاون الفني مع مؤسسة ماشينو اكسبورت السوفياتية ومع مؤسسة كيمو كو ملكس المنغارية ومؤسسة تكنو اكسبورت التشيكية بالاضافة الى شركة كوسيندت الايطالية .

وتتعلق السياسة التسويقية للشركة الوطنية في اتجاهين :

١ ـ يعتمد الاتجاه الاول على تقويم العجز في ميزان العراق التجاري مع الدول الأخرى حيث تدرج في الاتفاقات التجارية الخارجية نصوص تلزم هذه الدول بشراء الخام العراقي لتسديد العجز التجاري العراقي أو تقليصه، او على تغطية مايستورد العراق من معدات واجهزة بالمقايضة بالخام الوطني .

٢ ـ اما الاتجاه الثاني فيقوم على عقد شركة النفط الوطنية صفقات نفطية مباشرة مع الشركات والمؤسسات الاجنبية أما لتمويل استيراد المعدات والمكائن والخبرات الفنية لاستكمال بناء صناعة نفطية وطنية متكاملة او لحصول على القطع النادر بالبيع نقدا بموجب عقود طويلة او قصيرة الاجل مع مؤسسات اجنبية مستعدة

---

(١) دور شركة النفط الوطنية العراقية في تطوير الصناعة النفطية في العراق ، تقرير مقدم الى ندوة الاقتصاديين العرب عن النفط وتنمية الاقتصاد العربي ، الجزائر تشرين الاول اكتوبر ١٩٧٠ ، ١٠ صفحات وجدولان .

لشراء الخام العراقي من الشركة الوطنية مباشرة كصفقة بيع الخام لسيلان لتمويل مصفاتها بدءاً من سنة ١٩٧٢ .

ويستلهم العراق هدفين استراتيجيين بالدرجة الاولى وهما :

- اقامة قطاع نفطي يشمل الغاز والنفط الخام والكبريت والاسمدة كما يشمل البترو كيمياء والتكرير .

- ثم تغيير البنية الهيكلية للميزانية الوطنية بحيث تخف تبعيتها البالغة لقطاع النفط الاجنبي (في العراق) وتعالج مظاهر العجز المزمن فيها التي تبدو مستقرة ومتواصلة على الامد المتوسط [١] حيث يلاحظ مايلي :

آ - تمثل الدخول النفطية مايتراوح بين ٣٥ و ٤٠ بالمائة من مجموع واردات الميزانية الاعتيادية للدولة .

ب - تمثل الصادرات النفطية زهاء ٩٠ بالمائة من مجمل الصادرات العراقية كما انها تؤمن للعراق من ٧٠ الى ٧٥ بالمائة مما يتوفر له من القطع النادر .

ج - يمثل دخول النفط من ٨٥ الى ٩٠ بالمائة من موارد الخطة الانمائية أي من الاستثمارات الانمائية الفعلية .

العربية السعودية وسياستها

اما في العربية السعودية فالسياسة النفطية المنتهجة تجمع بين ممارستين متلازمتين :

١ - سياسة التفاهم مع الشركات الاميركية المتجمعة في شركة الارامكو

---

(١) انظر محمد سلمان حسن : خصائص الاقتصاد العراقي ، محاضرة في دورة تكوين مدراء العمل في بغداد ، أواخر ١٩٧٠ .

(Aramco) . كما بينا قبل قليل تحت تأثير استرجاع العراق ٩٩ بالمائة من أراضيه من شركة نفط العراق (.I.P.C) تخلت شركة الارامكو من جانبها للعربية السعودية عن مناطق سبقت ان انتزعتها لنفسها فيما مضى ، واذا كانت العلاقات مع الارامكو تتسم بصدامات وتنازلات متبادلة فان هذه المجموعة الاميركية تخص هذا القطر العربي بالاولوية في تنمية النشاطات والاحتياطات الثابتة والانتاج السنوي [1] وبالمقابل ، فان الحكومة السعودية تمارس أحياناً الضغوط كما تلجم الاتجاهات الاكثر راديكالية داخل منظمة الاقطار المصدرة للنفط (Opec) وضمن الوطن العربي . ان هدف السياسة السعودية هو مضاعفة العوائد النفطية اكثر مايمكن وضمن اطار البرنامج المطلبي لمنظمة الاوبيك (Opec) .

٢ - سياسة حركية لكنها قائمة على المشاركة المالية مع الشركات الخاصة الاميركية واليابانية والحكومة الايطالية ، وقد دشن اتفاق السعودية مع شركة غيتي Getty الاميركية هذه السياسة التي دفعت الرغبة في تجسيدها وتعميقها الى انشاء الشركة السعودية المحلية للنفط والمعادن : بترومين Petromin . فقد انيطت بهذه الشركة مهمة تلبية الحاجات الصناعية للتطور البترولي والاقتصادي كما تراها السلطة السعودية في ميادين انتاج الخام والغاز والتكرير والبتروكيمياء والقطاعات الاخرى من الصناعة . وفي كانون الاول ١٩٦٧ عقدت بترومين اتفاقية امتياز ومشاركة مع الشركة الاميركية سنكلير Sinclair ، ثم وقعت عقود مماثلة مع شركة أوكسيراب

---

(١) لوموند الفرنسية عدد ٥ حزيران (يونيه) ١٩٧١ .

Auxirap المتفرعة عن مجموعة ايراب الحكومية الفرنسية Elf - Erap [1] ومع شركة اجيب Agip المتفرعة عن شركة ايني الايطالية Eni ، وقد الزمت السعودية الشركات في هذه العقود المختلفة ببناء مصاف نفطية حالما يبلغ الانتاج لكل من هذه الشركات المختلطة عتبة معينة ، وحددت طاقات هذه المصافي الانتاجية [2].

ان عقود المشاركة العالمية تبدو عقوداً ساكنة (ستاتيكية) وليس صيغة للتسوية تتغير فور تغير موازين القوى المتجابهة ضمن المشاركات ، وفي هذا تختلف « فلسفة » السلطات السعودية عن نظرة الجزائر الحركية (الديناميكية) والمرحلية (التكتيكية) لهذا الشكل من العقود ، بينما تحدد مشكلة تمويل الاستثمارات موقف العربية المتحدة الأولي من المشاركات المالية كما سنرى بعد قليل .

على ان السلطات السعودية ادخلت نصوصاً صريحة في العقود النفطية الأخيرة الآنفة الذكر تلزم الشركات باللجوء الى اليد العاملة السعودية والتدريب المهني وشراء المواد والاحتياجات العملية من السوق السعودية والا فالعربية واعتماد المقاولين المحليين والعرب بالأفضلية .

ونجد مثل هذه الالتزامات على الشركات في العقود الحديثة التي وقعتها العربية المتحدة والكويت واقطار عربية اخرى .

وبالفعل فان السياسة الكويتية تطابق السياسة السعودية من حيث خضوعها لنفس النموذج التطوري في ظل التعاون مع الشركات الدولية ، لكننا نميز في السياسة الكويتية الخصائص النابعة من التأثيرات السياسية والقومية المجاورة وهي :

---

(١) آثرت هذه الشركة الفرنسية اشراك مصالح اميركية معها في هذا المشروع .

(٢) سعد علام : الالتزامات القانونية للشركات النفطية ازاء برامج التنمية في الاقطار العربية ، ندوة الجزائر ، تشرين الاول اكتوبر ١٩٧٠ ، ص ١٤٠ ، ١٥٤ .

١ - المشاركة المبكرة من اجل التكرير والاسمدة : تشكيل شركتي النفط الوطنية الكويتية والبتروكيمياء الوطنية الكويتية على اساس مختلط يجمع الرأسمال الحكومي والاهلي المحلي من جهة والرأسمال الحكومي والرأسمال الأجنبي من جهة اخرى . وهذا الرأسمال الاجنبي ينتمي غالباً الى شركات « Outsiders » اي من خارج الكارتيل القديم ، بعضها اميركية الجنسية وبعضها يابانية او حكومية من اوربا الغربية كشركة Eni ، ونجد هنا قبول شركة من الكارتيل مثل بريتيش بتروليوم (B . P .) بعقد مشاركة مالية Joint - venture مع الكويت . ان هذه المشاركات استهدفت بالدرجة الاولى انشاء صناعة تكرير طليعية (مصافي شعبية) وصناعة اسمدة مرتبطة بها ، ونجد في المتاعب التسويقية للتجربة الكويتية مايبرهن على خطر الارتباط العضوي بالرأسمال الاجنبي على الصناعة الجديدة وتصدير انتاجها ، بمعزل عن الاسواق العربية الى حد كبير .

٢ - الموقف الجديد من مسألة استثمار الغاز الطبيعي : اتخذ برلمان الكويت مؤخراً موقفاً من مسألة استعادة الغاز المختلط بالخام عند بحث العقد الجديد مع شركة B . P . الدولية هو اقرب مايكون لمواقف الدول التقدمية من هذه المسألة .

٣ - تقديم القروض لاغراض الانماء في الوطن العربي : بعد انشاء صندوق التنمية الاقتصادية الكويتي ، اخذت الكويت تدفع لبعض الاقطار العربية قروضاً تساعدها على حل مشاكل هيكلية (عجز مزمن في الميزانية العادية او في تمويل الانماء) . وبغية ضمان علاقات سياسية حسنة معها .

ويمكننا ان نميز في الختام بين نموذجين رئيسيين للممارسات العربية النفطية :

أ - النموذج الثوري : وهو يتميز باستراتيجية راديكالية قوامها استعادة السيادة السياسية على الموارد النفطية بكاملها وتعبئة هذه الموارد بحرية اقتصادية حقيقية لبناء صناعة عصرية ثقيلة واقامة مجتمع اشتراكي موحد . وضمن هذا النموذج نميز ممارستين متباينتين اولاهما فورية مطلقة (تحرق المراحل) وهذه حالة سورية منذ تأميمها الثروات النفطية والمعدنية في نهاية عام ١٩٦٤ وتقدمها في تشييد قطاع نفطي وطني بعد حركة الثالث والعشرين من شباط فبراير ١٩٦٦ . ان هذه الممارسة قد نجحت بفضل البدء المتأخر بالاستثمار النفطي اي دون الاصطدام بتركة استعمارية، وتوفر عائدات ثابتة من مردود الخامات العراقية والسعودية ، وتنوع الموارد الطبيعية وانعدام الضغط السكاني على مشاريع الانماء ، هذا بجانب الارادة السياسية الصلبة بالأساس .

اما الممارسة الثانية فهي مجزأة ومتصاعدة عبر سلسلة من المراحل المتعاقبة وهذه هي حالة الجزائر التي تناولناها بالتحليل قبل قليل . كما ان ليبيا تسعى منذ قيام الجمهورية للحاق بالجزائر بيد ان تبعية اقتصادها المفرطة للنفط تشكل عقبة جدية في وجهها وتحول دون انتقالها فورا من مواقع الامتياز الحديث المجزأ والمشاركات المحدودة ، الى التأميمات والمشاركة الواسعة تمهيدا للتأميم الشامل . هذا عدا اشكالات التسويق في الخارج .

ب - النموذج التطوري في ظل التعاون مع الشركات الاحتكارية : وهو يتميز باستراتيجية قائمة على التعايش المستديم مع شركات النفط الاجنبية ويتسم بممارسة الجمع بين قطاعات الامتياز الواسع والمشاركة والاستثمار المباشر المحدودين مع غلبة القطاع الاول الذي تديره الشركات ، وانتهاج سياسة مطلبية

وفق برنامج الاوبيك opec وهذه حالة كل من العربية السعودية والكويت وامارات الخليج رغم بعض الفروق الجزئية فيما بينها ، كما رأينا اعلاه .

اما السياسة المصرية فقد بدأت بتأميم الشركات البريطانية عام ١٩٥٦ ثم طورت قطاعاً نفطيا وطنيا بالتدريج . وتحت تأثير ثلاثة ضغوط مجتمعة وهي فداحة المشكلة الديموغرافية اولا والحاجة لتمويل الاستثمارات الصناعية الضخمة ثانيا وتغطية النفقات العسكرية لاغراض الدفاع والامن ثالثا ، فقد لجأت العربية المتحدة في العقد الاخير لمشاركة شركات اميركية (مستقلة) وايطالية تساعدها على تمويل التنقيب الاولي ودخول مرحلة الانتاج التجاري . وبعد عدوان حزيران يونيو ١٩٦٧ ، فقدت مصر مع سيناء جل انتاجها النفطي وفي نطاق تصفية آثار العدوان جابهت وتجابه اليوم مهمات اعادة بناء الجيش الوطني ومده بأحدث الاسلحة الجوية ومتابعة التصنيع الثقيل . وهكذا ازدادت مسألة تمويل النشاطات النفطية حدة وصعوبة وبنفس الوقت اضحت ملحة بالغة الاهمية لدعم الاقتصاد الوطني الامر الذي دفع القطر المصري لان يقف على ارضية المشاركة المالية المتواجدة مع الاستثمار المباشر خلال المرحلة السياسية والعسكرية الراهنة .

خاتمة :

ان انتصارات الاقطار العربية وسائر الدول المصدرة في معارك طهران وطرابلس الغرب خلال الاشهر الاولى من العام الجاري ، ان برفع الاسعار المعلنة او بزيادة نسبة ضريبة الدخل على الشركات وتدابير الجزائر بتأميم النفط جزئيا والتأميمات الشاملة للانابيب والغاز الطبيعي ، قد نقلت الصدام مع الشركات

الاحتكارية من صدام مالي ومطلبي اساسا الى هجوم على القطاعات الاجنبية للنفط العربي بغية استردادها . كذلك فان منظمة الاوبيك opec بطرحها مجددا مطلب المشاركة انما تعطيه من الآن تصاعدا اهمية فورية وتضعه في رأس برنامجها الجديد وبفضل التحرك المتزايد للجزائر وليبيا يتعزز الاتجاه التحرري الراديكالي الذي تجسده سورية .

في اطار هذه التحركات تبرز الاهميـــة الشديدة لتعزز السياسات والاتجاهات النفطية التقدمية ضمن الوطن العربي ولا سيما في الجزائر وليبيا كما في سورية ، خلال السنوات القليلة القادمة .

الموت والبحث عن المعنى

محمد الزايد

« المعرفة وحدها ليست كافية ولكي يتم العقل عمله العظيم يجب أن تجتمع المعرفة والخلود » (١) .

الانسان هو الكائن الباحث عن المعنى . والمعنى مدخـــل البحث عن الحقيقة بوصفها الأولانية (Apriori) الذاتية لتكوين المفهوم ، المفهوم عن أية واقعة طبيعية ، نفسية ، تاريخية . ويتشكل المفهوم من القول ـ الكلام ، اللغة ـ الانسان ذي الدلالة العائدة والمشيرة الى الواقعة التي يُقصد فهمها . لهذا يفترض القول منطقية (نظام ، قواعد) مضبوطة، وإلا يمتنع الفهم ويستحيل العلم . وتمثل الرياضيات من هذه الزاوية النموذج الأمثل الانشاء العقلاني المجرد والمضبوط منطقياً الى درجة توحي بالتامية والكمال . حيث تلتحم الضرورة

---

(١) إيري موداتش «مأساة الإنسان» ص ٢٣ ، ترجمة عيسى الناعوري . منشورات عويدات . بيروت ١٩٦٩

بالحرية - مشروع العلم وقصده - وتتوائم فيه جميع الثنائيات المحتملة التي محورها ثنائية الذات - الموضوع . عندئذ يصبح « كل ما هو عقلي واقعي ؛ وكل ما هو واقعي عقلي[1] » و « يستوعب المفهوم مضمون الواقع [2] » !!؟

بالنتيجة ، تحذف الفوضى واللاعقلانية ، الكثافة واللامعنى ، لتذوب مضمحلة غائبة في شفوفية معقولية الانسان التنظيمية . إلا أن الحذف الغيابي لها لا وان يلغيها وجودياً . ويجب ان لا يلغيها لأنها تنامية الصيرورة (الديالكتيك) وضمانتها حتى لا نقع في السكونية الصورية الثنائية الراكدة ، (أي المنطق الثنائي القيمة والوجود) .

اذن اللامعنى وراء الحد (Limit) قائماً يتحدى « سيادة العقل » [3] ويضعفها ، وهذا مما يُبقي « للحكمة »[4] ارتباطات مع « الكهف »[5] فتعلو شمس الوضوح ، ذاتها وبذاتها ولذاتها ، غيمة جنائية تمنع الرؤية من النفاذ اكثر حيث تنشق الانحنائية المغلقة و لدائرة العلم »[6] لتثبت غير « مستغلقة او مستنفدة »[7] ؛ أما تاريخ الفكر فيتحول الى تاريخ « صيرورة الجواز » [8]

---

(١) فرانسوا شاتلية « هيجل » ترجمة جورج صدقني ، وزارة الثقافة . دمشق ، ١٩٧٠ .

(٢) المرجع السابق

(٣) أفلاطون حوار « الفيلفس » تعريب الأب فؤاد جرجي بربارة . وزارة الثقافة . دمشق ، ١٩٧٠ .

(٤) الحكمة قصد مشروع الوعي للفلسفة اليونانية . وليس من قبيل المصادفة أن تكون الفلسفة والحكمة كلمة واحدة Philosophy منها Philosoyhia

(٥) المقصود كهف أفلاطون .

(٦) (٧) (٨) ص ١٤٧ و (٧) ص ١٢١ (٢) .

لا « صيرورة الضرورة »[1] دون استحالة الواقع صورياً ... مما يعطي للعقل العربي الاسلامي كل المشروعية لاستنفاذه شطراً كبيراً من فاعليته في معالجة فكرة « الحدوث » أو الخلق من عدم ، العدم المطلق .

أما مصادرات العقل العملي Raison Pratique[2] (كانط) - الحرية ، وجود الله ، خلود النفس - فمن الصعب التسليم أو التغاضي عنها وعن البحث فيها . كما أن « الأنا الخاصة »[3] (فيخته) تبقى واقعياً في حدود النسبة ومطلقها « المحايد » المتحكم بتعارض الأنا واللا أنا بوصفه هوية لا متمايزة للذاتي والموضوعي ، يظل في حدود الحدس العقلي الواعي ، أي في نفس النسبية مما يلغيه « كمطلق » .

فالمعنى يستدعي اللامعنى كما تستدعي العقلانية اللاعقلانية والوجود اللاوجود والكثافة الشفوفية . لكن دخول فكرة العدم المطلق لاعطاء مبرر الخلق الارادي الحر المبدأ الأول أو المطلق أو الله يضع الاستدعائية ذاتها في موطن الخلل .

إن لحظة المأساة - الشعور الشقي ، الضياع[4] - Alienation ، التي يستحيل الغائها إلا مع فناء النوع الانساني تجعل الوحدة التأليفية Synthesis غير محتملة . ولو أضفنا (قمنا بالاضافة في الأسطر السابقة) اللا متناهي الى ثلاثية : المعنى - اللا معنى - الوجود عبر تسرمُبية الصيرورة الجربانية الدائمة ، يتولد

---

(١) رينيه سيرو « هيغل والهيغلية » ص ١٩ ترجمة نهاد رضا . دار الأنوار بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٣) جان هيبوليت « مدخل الى فلسفة التاريخ عند هيجل » ترجمة أنطون حمصي . وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٩ .

معنا من «الثالث المرفوع» (في المنطق الصوري) لا متناهيات من الثلاثات الغير مرفوعات، وهو على الضبط مجال التساؤل عن المصير وفسحة البحث عن المعنى. بذلك نعود الى البدء حيث كانت الكلمة !!! كما نستطيع الاعلان عن قدرتنا على الاستمرار التمودي ونحن غارقون في عصف التناقض دون ان نشارف الجنون[1] (كما يزعم كامي).

أي اننا نستطيع التماسك والمحاولة لاختراق جدار محالية الوجود بسلاحنا القوي الضعيف الفكر، أحياناً تكون المحاولة نصف الطريق الى التحقق ربما كانت الطريق كله. و

«سواء أكان القصد هو
الصليب أم العلم،
الحرية أم السيطرة
فليس المهم الشكل الذي تتخذه القضية
بل هو كونها سبباً في تقدم البشرية»[2]

وكما أن المجموعات في الرياضيات الحديثة تتأدى الى كشوف جديدة في نقاط تفصلها مثبتة نجاحاً لا يجارى في مجالها، كذلك فان تصورها الأسامي نقاط التقاطع نسبياً – يصبح ممكناً كنقطة انطلاق منهجية نحو المعرفة.

من المؤكد ان هذا يضع «التحليل» في بداية نهايته بوصفه أولانية منهجية تقوم على علاقة سبب – نتيجة أو مبدأ «الهوية»، «الجوهر الفرد») ليتخذ وضعية

(١) ألبير كامي «الإنسان المتمرد» ص ٩٠
(٢) موداتس «ماساة الإنسان» ص ٢٤٣.

وسيلة مساعدة ضرورية يستحيل الغاؤها لأنها شرط الطريق المعرفي للانسان الغير مكتمل دائماً . أما الجوهر الفرد فيبتعد ويخضع مبدأ الهوية للتساؤل .

في نفس الآن فان الاحراج (Aporia)[1] في الصورة التأليفيه Synthesis واللا معنى – اللا عقلانية – والكثافة ويتضمن تناقضاً معرفياً أساسياً يلغي بقناع عقلانية نسبية أصلاً الدائرة لصالح اللا متناهي واللا متناهي لصالح الدائرة !!! لذا نملك كل المسوغ بسبب ضعف قناعتنا بالتوفيق الاقتراني بين اليهودية – المسيحية والدائرة اليونانية [2] – الا إذا قمنا بقفزة نوعية تحدث تبدلاً حاسماً في كيف « انتقال الروح من الأديان المحدودة الى الدين المطلق[3] » حيث يتطابق « المفهوم والواقع »[4] ارادة الخلق والخلق في ذاته لذاته !! أي بين الدائرة والمطلق !!! بالرغم من كون العلاقة بينهما (الدائرة والمطلق) ليست علاقة تنافي وضدية، فان التنامية صعبة الاستمرار حتى النهاية في تمامها بين اكتشاف الموت ، أي التناهي وبالتالي اللاتناهي (الأديان السماوية والحدوث من العدم المطلق) وبين تربيع الدائرة .

من الثابت ان « يقدم الحيـــاة الجدلية يبلغ حده الأخير في فكر الانســـان[5] » ، لكن « الروح المطلق » لا « تعي في النهاية

---

(١) الاحراج هو « وضع رأيين متعارضين لكل منها حجته في الجواب من مسألة بعينها » المعجم الفلسفي . ٩٦٦

يوسف كرم . مراد وهبة . يوسف شلاله . القاهرة مطابع كوستاس .

(٢) محاولة هيجل

(٣) جان ادوار سنبله « الفكر الالماني من لوثر الى نيتشة » ص ١٢٢ ترجمة تيسير شيخ الارض . وزارة الثقافة سنة ١٩٦٨

(٤) انظر (٢) .

(٥) سيرو « هيجل والهيجلية » ص ٢١

ذاتها ، [1] لنفس السبب لكونها ، منطقيا اولانياً في النبي أي الانسان .

ان ماهوية الوعي بالتناهي – المولد للشعور الشقي – تبرز التساؤل والشك والنفي ، حيث لايقود « نفي النفي » ان اثبات بل الى نفي آخر فنوي المحائية . فالتحديد الاخير غير ترابطي ضروري (سبينوزا) « بموجب تقيدية آلية [2] كما انه ليس تخصيصاً غائيا .

ماهي القصدية ، والمعنى ، اللذين يتحكمان « في ذاتية الروح – الله » حتى تتمظهر في الزمان (التاريخ) والمكان (الطبيعة) ؟

مع ملاحظة ان كلمة « تتحكم » تنفي حرية الروح وإطلاقها ؟!!

يلوح الاعتراض الكانطي (كانط) أمراً ذو دلالة .

العقلانية الدائرية تنبذ المأساوية مع زعمها عكس ذلك ، بما يعطي لردالفعل الكير كجاردي (كير كجارد) مشروعيته ولاعلانات صوت العقلانيـــة [3] مسوغاتها كما تمنح التمرد [4] مقوماته لنرجع من خلاله الى جدنا « جلجامش » وصرخته الأزلية ضد الموت . فلو

« شاء المرء ان يناضل

ونظر الى هذا العالم بنظامه المحدود

ورتابته المنتظمة

فلن يعرف معنى اللذة التي تجليها الخاطرة

ولن يجد وحشاً ليتحداه » (٥)

---

(١) (٢) سيرو : هيجل والهيجلية ص ٢١ .

(٣) برنار غروتويزن « فلسفة الثورة الفرنسية » ترجمة عيسى عصفور . وزارة الثقافة – دمشق ١٩٧٠

(٤) ألبير كامي « الانسان المتمرد » .

(٥) موداتش « مأساة الانسان » ص ٢٢٠ .

الموت سقف الوجود الانساني الذي لن ولا يمكن اختراقه إلا عدمياً وبالإطلاق .

من ذلك يبيت من غير المؤكد التسليم بخصوصية التجربة التمردية في الحضارة الغربية فقط[1] ، وإن كان هذا لاينفي هوية مضيئة لها .

من المشروع واللامشروع معـاً دخول الدين كنمط معروف ، أو محاولته أن يكون كذلك إلى حـد ، ليعطي تفسيراته وتصوراته وضماناته عن العالم الأخروي . لكن لا مشروعية هذه التصورات تتأتى من شرطه اللزومي الأولاني الذي يطلب بداءة التسليم التام « الايمان » ، والايمان هو لامعقولية تستمد قوتها وضعفها من نفس المصدر . ذلك بأن الدين في نقاطه القصوى خارج حدود الفهم ، وهذا سببه التام والكافي . لذا يبدو الحل الهيجلي (هيجل) لايخلو من بعض سوء النية فحسب ، إن لم يكن كل سوء النية ، بسبب حذفه « الله » حين « عقلنه » ، وهو يدعي توكيده ؟!؟

فاعتباره « المطلق » كـ « ذات » [2] أكثر مما هو « جوهر » [3] منطلق صحيح إنسانياً ومعرفياً ! لكن نتائجه المحتملة في منتهاه حيث يصبح الهيـاً - بذاته ولذاته - « جوهراً » مفارقاً يقع خارج المفهوم وهذا دور (Vicious circale)

أما اعتباره « المطلق » « كلية حية تشتمل على جميع محدداتها بوصفها فترات التطور الكلية »[5] فإملاء غير ناجع أو متماسك للفجوة الفاصلة بين الله ـ العالم . وهي ذات معضلة (أفلوطين) حول العلاقة بين الواحد والكثير و كيفية صدور

---

(١) ألبير كامي « الانسان المتمرد » .

(٢) (٣) (٤) « هيغل والهيغلية » ص ٢٠ .

(٥) « هيغل و الهيغلية » ص ٢٠ .

الكثير عن الواحد [1] والتي تبدو اكثر تماسكاً مع نفسها تصورياً لإدخال فكرة « المتوسطات » التي طبقها (ابن سينا) جدلياً فيما بعد . هذا يعيد للذهن فكرة « الأدوار » الاسماعيلية ، سواء في الإمامة أو النبوة . كلها محاولات بواعثها نفس المقاصد مع فارق التجربة لانطلاقها من ذات المصادرات التي تصل درجة البدهيات (الأمر الذي يدعو الاستغراب والغير مقبول على الأقل حالياً) :

الواحد ـ الكثير ، المطلق ـ النسبي ، الله ـ العالم ـ الانسان .. بذلك يمكننا القول بأن « كشفية »[2] الغزالي أكثر ضبطاً ووعياً مع نفسها لأنها خارج حدود العقل . فـ « العقل لا يصطدم مع الكشف في شيء »[3] لأنه « يبدأ مع بدء ضعف العقل وقصوره »[4] . الله مبرأ منزه عن جميع التشابيه والصفات لكونه مطلق . ويبدو بهذا الصدد الحل المعتزلي بنفيه الصفات وتعطيلها أكثر قرباً لألوهة الوحدانية وإطلاقها وتنزيهها . الله خارج إسار المفاهيم ويعلو بمفارقة لا يمكن عبورها بالتصورات ، بالتالي تفصل بينه وبين الوجود كما يدركه العقل الانساني هوة تعطيه مبررات الخلق من عدم ، العدم المطلق ، وتتمم إطلاقيته

---

(١) يقوم تصور أفلوطين ، حول العلاقة وصدور الكثير عن الواحد على : الواحد في القمة عنه يصدر العقل وعنه تصدر النفس .

« تاريخ الفلسفة العربية » ص ٧٤ حنان فاخوري – خليل الجر مؤسسة بدران للطباعة سنة ١٩٦٦ – بيروت .

(٢) الغزالي « ميزان العمل » ص ١٣ . دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ .

(٣) (٤) سليمان دنيا « الحقيقة في نظر الغزالي » دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ .

الكاملة بما يجعل براهين قِدَم العالم (ابن رشد)(١) أكثر قابلية للنقد لتضمنها إنكارية مقنعة للإله سواء وعى ذلك المفكر أو لم يعيه » .

« المطلق الهيجلي لا يتخطى الأشياء البتة بـــل كله فيها » (٢) كذلك « لا يتخطى قدرة الانسان العقلية »(٣) وكنتيجة إنه يقوم بقفزة غير مقنعة أو متماسكة مع عقلانيتها المدّعاة ، لذا يكون قولاً صائباً « ليس هيجل هو الذي يفكر في الله ، بل إنه الله نفسه هو الذي في ذاته من خلال هيجل » (٤) ؟؟!!

إن نقد (فويرباخ) كان مشروعاً في بدايته . و « الدين والفلسفة عالمان مختلفان (٥) كما أن الفلسفة بدورها « تعاند التصوف وهو يعاندها » (٦) . ولكن استنتاجيته التالية وإرجاعه الدين الى « الرغبة الإنسانية »(٧) غير متوائمة ذاتياً . لأن كلا العالمين كنمطين معرفيين إنسانيين يلتقيان من جهة القصد الأساسي لها : النبوّة أو الأمامة (الشيعة) أو التصوف (الدين) العقل (الفلسفة والعلم) — الذي يقوم على إعطاء معنىً ما للوجود الانساني وتوكيده بمقتضى تسليمات بدئية ؛ حتى الرفض الانكاري العدمي ينطلق من تسليمات بدئية .

كما أن رأيه (فويرباخ) في الله أقل توفيقاً بوصفه نتاج « النوع الإنساني »(٨) ؛ فإذا كان الضلال ذو النزعة الربانية هو الذي نقل « الصفة » الغير

---

(١) ابن رشد « تهافت التهافت » تحقيق سليمان دنيـا . دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ .

(٢) (٣) (٤) « هيغل والهيغلية » ص ٢٦ و ١٣٩ .

(٥) « الفكر الالماني من لوثر الى نيتشه » ص ١٤٥ .

(٦) أحمد أمين « ظهور الإسلام » ج ٢ ص ٦٠ مكتبة النهضة. القاهرة ١٩٦٢.

(٧) (٨) : تهافت التهافت : ص١٤٥ و ص ١٤٧ .

شخصية التي للنوع في ذات شخصية الله فما هو مصدر - ولماذا - هذا النزوع « الرباني » الربانية في الذات الإنسانية [١] ؟

بما أن الفسحة بين المعنى - اللامعنى أكثر إتساعاً من المعقولية (الفلسفة والعلم) والدين اللذين لما نستنفد الحديث عنها وفيها بعد، برزت احتمالات لأنماط معرفية نوعية أخرى كانت - ربما مازالت - جائزة في لحظتها التاريخية «الأساطير» وهي لغة : الجمع أو جمع الجميع لأسطورة وتفيد: ماسطّره الأولون : سطّرها ألّفها [٢] . فهي إذن محاولة تأليفية لمدّ مجال الرؤية الانسانية لأكثر من المعطى والراهن لإستجلاء غموضية المصير .

لذا فهي رديفة للطريقين السابقين (الدين - الفلسفة والعلم) في البحث عن المعنى ، الحقيقة ، والفهم ، وتحطيم طوق تناهينا الإنساني « الموت » .

وتزداد لجة الحيرة مع انفتاح صدع في الوجود عندما يبيت العقل في موضع الشك والدين في غير موضع القبول والأسطورة في اللاقناعة .

مع ذلك يمكننا البحث عنها وفيها - أي الأسطورة - لاستجلاء معناها احتمالاً ، فإذا كانت هناك مسوّغات لفعالية الفهم الإنسانية وإنشاءاتها التفسيرية والإبداعية المتمثلة في نموذجها العقلاني ، فلنفس السبب للاسطورة مسوّغاتها كجزء من محاولات الفهم الانسانية . لهذا يكون هناك اتفاق بين « التفكير العلمي والتفكير الخرافي من حيث الوظيفة فكلاهما يستهدف تفسير الظاهرات» [٣] .

---

(١) (١) ص ١٤٥ و ص ١٤٨ .

(٢) ابن منظور « لسان العرب المحيط » ج٢ ص ١٤٣ إعداد وتصنيف : يوسف خياط - تقديم مرعشلي دار لسان العرب - بيروت .

(٣) نجيب اسكندر ابراهيم « التفكير الخرافي .. بحث تجريبي » ص ج

ولو حاولنا تعيين موقع الاسطورة في فعالية الفهم الانسانية قلنا بثقة احتالية أنها تقع بين العقلانية ـ مشروع العلم ، الوضوح والشفافيـــة ـ والدين بإيمانيته المبدوءة او المنتهية بالتسليم عند خط نهاية المفهوم وبداية اللا مفهوم . بمعنى آخر . تقع الاسطورة في نفس المساحة الحرجة الغامضة اللا متعينة (التي تتعين فيها) بين المعنى ـ اللامعنى ، الأمر الذي يضع المشروع الهيجلي ـ رجوع اليه ـ ولحمته الوجود بالعقل والعقل بالوجود ـ ومشروع العلم ـ في موقف مهزوز تخالطه مداخلات اللا معنى والـلا معقولية بوصفها فائض عن التفسير الآني اللحظي أو مبرر استمراريته في نفس الوقت بعضها لا كلها .

بهـــذا يستبين شرح « علم الفلسفة ـ المنطق [1] » ، الذي يسعى الى « اكتشاف تعريف عقلاني يلائم المطلق [2] » . لقد فشل في حذف اللماذا ، مما أعطى وحفظ للانسان انسانيته وحريته المعرضة للقولبة بين جوانب ضرورة تعيدنا الى سكونية زعم رفضها !؟!

كما تبـدو الاصلاحية التوفيقية ذات الصبغة الانتقائيـة للقرون الوسطى (إسلامية ـ مسيحية) للمصالحة بين الدين والعقل أكثر تخلخلاً وقابلية للانهيار .

فاذا كان التصوف « الكشف » هو الطريق المنقذ من الضلال[3] فكيف نستطيع لحم العقلانية ـ الدين واعتبار ذلك حجة؟! والحجة هي البرهان والبرهنة إجراء عقلاني أساساً !!

---

(١) شاتليه « هيجل » .

(٢) سيرو « هيجل والهيغلية » ص ١٤٥ .

(٣) ابو العلا العفيفي « التصوف او الثورة الروحية في الاسلام » دار الشعب والمقصود هنا الفيلسوف العربي الغزالي الموصوف بحجة الاسلام .

مما لا أريب فيه أن للتصوف مسوّغاته في حدوسه الوجدانية وإشراقاته التي لا نستطيع ، ولن ، معرفة ماهيتهـا إلا عن طريق التجربة الذوقية نفسها (يتصوف من يريد المعرفة) وذلك صحيح لو بقي المتصوفة صامتون . أما وأنهم تكلموا ، نطقوا ، ترجموا حدوسهم كلمات شعراً ونثراً يكون لدينا كل المبررات لفهم تجربتهم في حدود تعابيرهم مهما تكن أو كانت درجة رمزيتها والتباسها . لقد كتبوا والكتابة خط والخط « رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس[1] » وتحدثوا بـ « لغة » (Language) واللغة ما يعبر بها قوم عن أغراضهم ، بوصفها « مجموعة إشارات دالة على حالتنا الوجدانية وهي على نوعين :

أولها : تلك التي تصدر عفواً عن الانفعال اللاذ او المؤلم وتصاحبه كأنها مظهره الجسماني ، مثل التأوه والبكاء . وهي عامة للحيوان والانسان يصدرانها دون قصد آخر . وأبلغ منها دلالة على المعاني إشارات النوع ، تلك الألفاظ أو الأصوات الوصفية الصرفية المختلفة باختلاف العصور والشعوب »[2]

أليس الله معنى ؟

من هذا المنطلق يكون من الجائز لدينا السؤال عن وفي المشروع الصوفي الذي يهدف الى ادخال توحيدي اتحادي للنسبي في المطلق والمطلق في النسبي ، الله في الانسان والانسان في الله . (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) .

إلا أن الاحراجات السابقة عن العلاقة بين المطلق والنسبي تطرح ذاتها

---

(١) ابن خلدون « المقدمة » ص ٤١٧ دار احياء التراث العربي ، بيروت .

(٢) الجرجاني « المعجم الفلسفي » ص ١٤٣ .

هنا موضحة نفس التناقض الذي برز في مشروع (هيجل) مع حفظ الفوارق في المنهج العقلي والكشف، لأن « مايعلمه الفقيه والفيلسوف بالعقل نراه بالكشف»[1].

بل ويبدو التناقض في مشروع الصوفية أكثر حدة في نقطة انطلاقه بالنظر لانطوائه الأولاني على حتم فقدان النسبي (الانسان) لذاته لأنه أولانياً أضعف من المطلق (الله) وهذا صحيح بالاستناد الى مقدماتهم .

(من هذه النقطة لنبع تفسيرات لاتتمتع بصحة تامة تفسر التصوف على أنه « هروب » او نوع من الهروب . شخصياً لا أميل الى قبول هذا التفسير الذي يرجع كلية الظاهرة الى بعد أحادي هو الوضع الاجتماعي. ان في ظاهرة التصوف الحقيقي أعمق من التفسير الأحادي اجتماعياً كان أو غير اجتماعي) .

بالرغم من ذلك ولكي يتمتع المتصوف بالأمانة الذاتية الكاملة لمشروعه الوجداني - الوجودي للاتحاد بالمطلق (الله) عليه أن ينتحر . لأن الموت بوابة الصعود الوحيدة نحو المطلق والحياة رتاجية إغلاق هذه البوابة .

من هذه الناحية يعتبر (ابن سبعين)[2] النموذج المثالي للأمانة الذاتية

---

(١) أحمد أمين « ظهر الاسلام » ج ٢ ص ٦٠

(٢) ابن سبعين هو : قطب الدين محمد الاشبيلي (١٢٦٩ أو ١٢٧٠) فيلسوف عربي اندلسي له طريقة صوفية تعرف بالسبعينية. قال بـ « الوحدة الوجودية المطلقة ». توفي منتحراً او مسموماً . وأميل الى اعتباره منتحراً سواء بيده او بأيدي الآخرين ، وتفسيري لانتحار الحلاج ينطبق على ابن سبعين من هذه الناحية . كلاهما مات منتحراً بأيدي الآخرين .

« الموسوعة العربية الميسرة » ص ١٨ . باشراف محمد شفيق غربال دار القلم . القاهرة سنة ١٩٦٥

ب - « رسائل ابن سبعين » تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي . دار الطباعة بمصر . القاهرة سنة ١٩٥٦

المخلصة لمشروعها وطريقتها وقصدها لأنه انتحر . بذلك يصبح الحـــديث عن « غريزة الموت » افتراضاً مقبولاً لتتوازن معادلة الوجود مقابل « غريزة الحياة » او حب البقاء . فإذا كان حب البقاء (الذي يوحي برغبـة الخلود) امراً غريزياً فلماذا لا يكون حب الفناء (الذي يوحي برغبة الإفناء) أمراً غريزياً ايضاً ؟

أما على مستوى الشعور الواعي فإن الغريزتين تتزعزعـان من تسليمها البدهي الذي يفترضه ويقبله الجميع .

مما يفسر لنا ومن جانب واحد هو الجانب النفسي (السيكولوجي) عدمية (أبو العلاء المعري) التدميرية الشاملة للنوع إذا تبنينا المنهج الجدلي للعلاقة بين (الأنا » و « النحن » مع حذف التركيب الايجابي .

إن رغبة الموت (الفناء مدخل البقاء) محور وجود بل هي وجود الصوفي الحقيقي ومبرر مشروعه التصوفي ليس الوجيد او الطارئ كما أنها ليست بالسبب العارض الذي يمكن تجاهله او حذفه او الإغضاء عنه ، من هنا نستطيع القول بأن (الحـــلاج) قتل نفسه بأيدي الآخرين الذين نفذوا الحكم الذي اصدره على نفسه .

اقتلوني يا ثقـــاتي إن في قتلي حياتي
ومماتي في حيـاتي وحياتي في مماتي [1]

القصد واحد والطريق شتيته . علم . فلسفة . دين . تصوف . أسطورة محاولات تهدف تفكيك محالية اللامعنى والوصول إلى معنى . تتلاقى - في مجملها -

---

(١) الحلاج هو الحسن بن منصور الحلاج (٨٥٧ - ٩٢٢) .
عبد الرحمن بدوي « شخصيات قلقة في الاسلام» طبعة ٢ . دار النهضة العربية : القاهرة . سنة ٩٦٤ .

في الكائن النسبي : الإنسان ، وتتخالف متخارجة منه باحثة عن معناه قبل سقوطه المنتظر عند كل منعطف وبدء لحظة ، الموت . الموت الذي لايمكن أن يكون جميلاً ، إن هذا السكون الهادىء يسخر من مقاصدنا ويبتسم مشفقاً على غرورنا[1] » .

بعضهم حذف الطريق ليبقي على الطريقين الثاني والثالث أو حذف الثاني ليبقى على على الأول والثالث ، أو حذف الثاني والثالث ليبقى الأول أو بحذف الأول والثاني ليبقى الثالث أوبحذف الأول والثالث ليبقى الثاني .

« لماذا إذن تبالي ومضة الوعي العابرة بهول الموت[2]» ؟

سوف تبقى مبالية مابقي لامعنى الموت قائم .

جلجامش[3] والموت

(أ)

لحظة الوعي الاولى

ما بين نقطتي الجبر الولادة والموت ، المهد واللحد ، رحلة تحقيق المتغير

---

(١) مودانش « مأساة الإنسان » ص ٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٣ .

(٣) « جلجامش مؤسس مدينة (أورك) وملكها . إنسان حقيقي ولكن ألهته الاسطورة » .

« تاريخ الحضارات العام »

الشرق واليونان القديمة ص ١٧٣

أندريه ايمار – جانين أبوايه

ترجمة : فريدم . داغر وفؤاد ج . أبو ريحان

منشورات عويدات . بيروت ١٩٦٤

المتخـــذة أشكالاً وتفرعات نوعية في مختلف الشعوب والحضارات . الأفراد والجماعات . لكن نقطة اللقاء واحدة (التساوي في الثرى) .

يقولون أن الحياة الانسانية تبدأ بصرخة احتجاج لحظة الميلاد ، ولا يعنيني مدى الصدق الكلي لهذا النظرة أو عدمه ، بل آخذ المقاصد التي ترمي اليها العبارات . فلو نظرنا الى الشكل التفسيري ـ بصورة عميقة ـ الظاهري الذي يعتبر صرخة الميلاد تعبيراً فطرياً بدائياً احتجاجياً عن المجيء الى العالم ليعاني ، يتألم ، أخيراً يموت ، نجد ورائية عميقة الغور تخفيها الرؤية البسيطة السابقة . وهي تدال على أعمق صور القلق الانساني تجاه الموت ، الانتهاء .

« هذا الوعي إنما عرف القلق لا بشأن هذا أو ذاك من الأشياء ، ولا خلال هذه أو تلك من اللحظات بل القلق على جماع ماهيته ذاتها ، لأنه يستشعر الخوف من الموت ، السيد المطلق . وفي هذا القلق انحل الوعي حتى صميمه ، واضطرب حتى في أعماق ذاته ، وارتج فيه كل ما كان له بثبات اليقين »[1] .

الانتهاء نقطة هدفية أخيرة تتجسد اليها أعمارنا ، مواقفنا ، سواء أكان طول أفقها الزمني ، دقيقة ، شهراً ، أو مائة عام ، النتيجة واحـدة ، سقوط . بسبب فعل الأمر الأولاني « كلٌ يجري لأجلٍ مسمى[2] » ، « عش الى الحد الفلاني »[3] ؟؟

---

(١) روجيه جارودي « ماركسية القرن العشرين »
ترجمة : نزيه الحكيم – دار الآداب ١٩٦٧
أيضاً « دراسات ماركس وهيجل »
(٢) القرآن الكريم سورة فاطر (١٣) .
(٣) مورداتش « مأساة الانسان » ص ٢٥٥ .

صرخة الميلاد إذن احتجاج ضد التوجه الفاني الجبري الملزم كفرض وجودي أولاني نحو الموت على الوضع الانساني بما هو انساني ، بكلام آخر هو موقف احتجاجي ضد أعلى درجات القهر والغموض واللامعنى ، ضد الانتماء بوصفه من مقولات الوجود الجوهرية للانسان والأشياء « إلى أجلٍ مسمى » والوجودات ، وهو شرط وجوده ووجودها ، ويمثل الموت بالاضافة الى مقولات أخرى قاسم مشترك أعظم بين أفراد النوع الانساني والشيء ، (ومن الممكن جوازاً اعتبار الموت احدى النقاط التي تقوم عليها عالمية الدينين المسيحي والاسلامي لأن مطلقها عالمي . بينما مطلق الدين اليهودي عنصري خاص) .

« كل نفس ذائقة الموت[1] » لا مفر .

---

(٣) ذكرت كلمة الموت في القرآن في الآيات التالية :

البقرة (١٩ — ٢٨ — ٥٦ — ٧٣ — ٩٤ — ١٣٢ — ١٣٣ — ١٥٤ — ١٦١ — ١٦٤ - ١٧٣ — ١٨٠ — ٢١٧ — ٢٤٣ — ٢٥٨ — ٢٥٩) آل عمران (٢٧ — ٤٩ — ٩١ — ١٠٢ — ١١٩ — ١٤٣ — ١٤٤ — ١٤٥ — ١٥٦ — ١٥٨ - ١٦٨ — ١٦٩ - ١٨٥) . النساء (١٥ — ١٨ — ٧٨ — ١٠٠ — ١٥٩) . المائدة (٣ — ١٠٦ — ١١٠) . الأنعام (٣٦ — ٦١ - ٩٣ - ٩٥ — ١١١ - ١٢٢ - ١٣٩ — ١٤٥ ١٦٢) . الأعراف (٥٧ - ٥٨) . الأنفال (٦) . التوبة (٨٤ — ١١٦ - ١٢٥) . يونس (٣١ — ٥٦) . هود (٧) . الرعد (٣١) ابراهيم (١٧) . الحجر (٢٣) . النحل (٢١ — ٣٨ — ٦٥ — ١١٥) الاسراء (٧٥) . مريم (١٥ — ٢٣ - ٦٦) . طه (٧٤) . الأنبياء (٣٤ — ٣٥) . الحج (٦ — ٥٨ — ٦٦) . المؤمنون (١٥ — ٣٥ — ٣٧ — ٨٠ — ٨٢ — ٩٩) . الفرقان (٣ — ٤٩ — ٥٨) . الشعراء (٨١) . النمل (٨٠) . العنكبوت (٥٧ — ٦٣) . الروم (١٩ — ٢٤ — ٤٠ — ٥٠ — ٥٢) . لقمان (٣٤) . السجدة (١١) . الاحزاب (١٦ — ١٩) . سبأ (١٤) . فاطر (٩ — ٢٢ — ٣٦) . يس(١٢ =

في لحظة شك ولدت المعرفة . والمعرفة بحث عن المعنى ورفض لغموض قائم في اللماذا ؟

في اللماذا وعي الانسان لذاته ووضعه كـ تناهي ، لهذا نستنتج أن اكتشاف الموت « التناهي » كان لحظة الوعي الذاتي – الموضوعي الأولي للانسان المتسائل حامل صليب اللماذا . اللماذا الباحثة عن معنى المصير .

ولو سافرنا في التاريخ نجد أن جدنا (جلجامش) أول وعي تاريخي صارخ متألم في وجه الموت وللانتهاء باحثاً فاشلاً عن الخلود .

« يبكي جلجامش على أنكيدو صديقه
بكاء مراً ، فيا راح يهيم في البرية .
حين أموت ألا أكون كأنكيدو ؟
يدخل البلى أحشائي .
ها أنا أهيم خوفاً من الموت في البراري »(١)
« كيف ألزم الصمت ؟
كيف أخلد الى السكينة ؟
صديقي الذي أحببت صار طيناً .
أأضطجع أنا مثله هكذا
فلا أنهض الى الأبد ؟ »(٢)

= ٣٣) . الصافات (١٦ – ٥٣ – ٥٨ – ٥٩) الزمر (٣٠ – ٤٢) المؤمن (٦٨) . فصّلت (٣٩) . الشورى (٩) . الزخرف (١١) الدخان (٨ – ٣٥ – ٥٦) . الجاثية (٥ – ٢١ – ٢٤ – ٢٦) . الأحقاف (٣٣) . محمد (٢٠ – ٣٤) . الحجرات (١٢) . ق (٣ – ١١ – ١٩ – ٤٣) . النجم (٤٤) . الواقعة (٤٧ – ٦٠) . الحديد (٢ – ١٧) . الجمعة (٦ – ٨) . المنافقون (١٠) . الملك (٢) . القيامة (٤٠) . المرسلات (٢٦) . الأعلى (١٣) .

(١) أنيس فريحة « ملاحم وأساطير من الأدب السامي » ص ٥٢ . دار النهار بيروت ١٩٦٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٦١ .

بموت (أنكيدو) الآخر – الغير ، تولد الوعي الادراكي داخل شعور (جلجامش) حول حتمية قضائه ، نهايته وتوجهه الفاني الجبري نحو السقوط الأخير فصرخ ...

وبدأ رحلة البحث مطلق الوجود في الديمومة لكنه يفشل لأنه :

« لن يجد الحياة التي ينشد »

« إذاً حينما خلقت الآلهة الجنس البشري وضعت إلى جانبه الموت[1] » ، فمن « مشهد إنعدام المنطق [2] » أي « الاستغلاق [3] » ، ولِدَ تمرّد جلجامش الماورائي ولو لم يجد جلجامش نفسه « واقعاً داخل العدم[4] » ، (آنيّة) لما بدأ البحث عن الوجود ، تأكيد الذات [5] ، في علوّ مطلق نحو الخلود .

وبمعنى غير بعيد نتمكن من تفسير المرحلة الصنمية الأولى عند العرب الذين أقاموا خمسة أصنام جذعاً على ذوي قرابتهم (وذواتهم في نفس الوقت) ودّ ، سواع ، يغوث ، يعوق ، نسر [6]) . « وقالوا لا تذرُنّ آلهتكم ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا [7] » .

الصراخ كان منذ البدء ضد غائية جبرية ، سلبية ، عدمية ، في محاولة تجاوز الوضع الإنساني بما هو إنساني نحو الخلود أي الألوهة .

---

(١) « الأساطير في بلاد ما بين النهرين » .

(٢) (٣) ألبير كامي « الانسان المتمرد » ص ٢٠ . ترجمة نهاد رضا ، منشورات عويدات سنة ١٩٦٣ .

(٤) مارتن هيدجر « الميتافيزيقيا » ص ١١٥ ، ترجمة فؤاد فاضل عبد العزيز دار النهضة القاهرة سنة ١٩٦٤ .

(٥) كامو : ص ٣١ .

(٦) (٧) « الميثولوجيا عند العرب » ص ٦٥ . القرآن الكريم سورة نوح آية (٢٣) .

إن اكتشاف جلجامش لذاته واقعاً داخل العدم و « الموت والعدم شيء مربع »[1] يعني شعوره ووعيه بشرط وجود (العدم) الذي يمثله الموت . حتى الكلمة « إنسان » في مصدر الإشتقاق العبري الذي يعود إلى « سومر » تعني « الضعيف الذي لايملك مصيره[2] » ، « خُلِقَ الإنسان ضعيفاً [3] » « خلقكم من ضعف » [4] .

صرخة الطفل لحظة الميلاد ؛ صرخة جلجامش لحظة وعيه ؛ صرخة ميكل انجلو (لتمثاله داود: أنطق) ، صرخة (دافنشي) الصامتة على شفاه سيدة الصخور (الجيوكندا) ؛ صرخة اللاتناهي في أعماق الزخارف الإسلامية؛ كلها صرخات متماثلة رغم فواصل الوعي واللاوعي التي نقيمها استناداً لمقاييسنا الإدراكية .

من ذلك تتبين معنا ، القضية المحورية في وضعية المعنى ، التسلسل المتتابع للنهايات في نسبية الوجود الإنساني ، كل موقف لا يجب الآن أن ينتهي ، ولو كان الموقف ، أو الإنسان ، في « بروج مشيدة [5] » . فالإنتهاء لزوب الوجود في كلية الوضع الإنساني وغير الإنساني ، وإلا يتجاوز النبي ذاته نحو مطلق وجود ، أزلية ، أبدية ، من فئة سرمدية وخلود دون إبتداء أو إنتهاء . هذا يعني فقدان النبي لمبرره الإنساني بما هو إنساني ، لكنه في ذات الآن يتضمن تطلعاً أو نزوعا

---

(١) « مأساة الانسان » ص ٢٤٠ .

(٢) مأساة الانسان.

(٣) (٤) القرآن الكريم . الروم (٥٤) .

(٥) القرآن سورة النساء الآية ٧٨ .

نحو المطلق ، في الإنسان تطلباً لايشبع أبداً للكامل والمطلق [1] ، فهو « الحيوان المشغول المطلق [2] » في ذاتية الآن نفسها « صور الإنسان في حاجة إلى الحواجز » .

إنه يخشى المطلق ،
ويفقد كثافته عندما يتوسع (٣)

هكذا وليد الشعور بالمأساة في وعي المأساة في وعي الإنسان .فالفعالية المعرفية للإنسان تتجاوز معرفياً نقطة حيرتها لتجد بعضاً من ذاتها في نفس نزوعها المشرئب نحو المطلق في أنماطها والدين أحدها [4] . فهي تحاول تهدئة توترها المأزوم بالتوقف والتطلع معاً ؟ وبهذا يكون للمحاولة المعرفية المتخذة نمط « التنبؤ » مشروعيتها في تطلعها المعرفي مدفوعة برغبة كسر حلقة النسبية واستكناه ماوراء محدودية دائرية خط الأفق في سماء الوجود الإنساني ، بمعنى آخر هي تطلع معرفي قصدي نحو المصير ، « مصير الدول ونهاياتها [5] » ، مصير الأفراد وسقوطهم الأخير وهذه خاصية من « خواص البشرية ، التشوق إلى عواقب أمورهم وعلم مايحدث لهم من حياة وموت [6] » و « التطلع إلى هذا طبيعة مجبولون عليها [7] » . يتردد إذن في جنبات هواجس النفس الإنسانية » .

ليس هذا مايهفو إليه قلبي المتأجج

---

(١) كونتي بندلي « إله الإلحاد المعاصر » الجلة لروجيه جاوردي – ص ٢٢

(٢) شارل لالو « الفن والأخلاق » ص ١١٣ ترجمة د . عادل العوا . الشركة العربية للصحافة والطباعة والنشر دمشق ١٩٦٥

(٣) « مأساة الإنسان » ص ٢٠٩ .

(٤) مأساة الانسان

(٥) (٦) (٧) ابن خلدون « المقدمة » ص ٣٣٠ .

لأني سأتطلع إلى مستقبلي لأعرف

ماذا سأقاسي وأين علي أن أناضل (١)

أعطت الديانات ، المذاهب ، الفلسفات والعلوم ، إجابات متنوعة متباينة ، لكن العقل ألف البحث دائماً ، الماذا دائماً لأن شروط القضية مازالت وستبقى قائمة « حلقة الغموض واللماذا » .

فالعلم لما يجب بعد عن جميع تساؤلاتنا ، بل هو في أساسه مشروع إجابة ذات صفة نوعية معينة ، رغم وثوقنا كاملين بقدرته على الإجابة يوماً .

وكما أن « العقل الفردي » يبحث ، يندفع ، يتساءل ، كذا « العقل الجمعي » (٢)(Conscience - collective) بوصفه « جملة العقول الفردية ، إلا أنه يؤلف كلاً مغايراً لها كما يؤلف التركيب الكيميائي شيئاً مغايراً للعناصر » ، يرفض الغموض ويتساءل باحثاً عن إجابة ما . ولكل منهما طرقه برغم الترابط التفاعلي بين الطرفين في التحليل الأخير ، ذلك لأن كل منهما خاصيات مميزة . فالعقل الجمعي أكثر قبولاً للحلول الجاهزة حتى إن كانت وهمية المقدمات والنتائج لذا كانت الأساطير نمطاً معرفياً أكثر احتمالاً لديه مما هي لدى العقل الفردي . فهو ذو ميل « للقبول والاقتناع والتسليم بمألوف القضايا الواقعية ، سياسية ، إجتماعية الخ ، فكيف حاله في التساؤلات عن المصير والأبدية والماوراء المتعاقدة مع الدين ؟

---

(١) (٤) ص ٤٩

(٢) « المعجم الفلسفي » ص ٥٧

وبما أن العلم يفترض ، بل هو مجموعة فروض ، ليبدأ المعرفة كذلك العقل الجمعي في أفقه ومجاله يفترض ليجلوالظاهرة. وعندما يتخذ « التنبؤ » شكل أسطورة في التعبير فهذا يعني تثبيتاً معرفياً خيالياً - تختلط فيه أشكال الوعي الإجماعي المختلفة - للوعي الجمعي ، فيحافظ على فكرة المحورية مع تنوع صورته التعبيرية بالإضافة والحذف بل والتغيير الكلي أحياناً من القصص إلى الملاحم الشعرية ، إلى الصورة الأكثر ثباتاً عند اقتران الاسطورة بالدين فتصبح (تابو) فوق كل نقد أي تعرض له ماس مباشر بقدسية الدين الذي قد تكون أولا تكون له علاقة به .

فكرة « الخلاص » بالتالي « المخلص » وفكرة الخلود . إلا أن دخول فكرة « الخلاص » في مجال الدين (اليهودي - المسيحي - الاسلامي) يحدث تبدلاً نوعياً في بنية الفكرة . فـ « جلجامش » بحث عن الخلود ، لكنه لم يتصور فاصلاً بين روحه وجسده ، باعتبار الأولى خالدة والثاني فان . وهي تفرقة أساسية في الدين خاصة عبر رؤيته للموت . ففكرة « المخلص » فكرة أكثر إجرائية تطبيقية من خلال « واسطة » . هكذا يبقى لـ « جلجامش » تفرده الكيفي الخاص باعتباره الأطراف الثلاثة الله - الإنسان - الخلود ، عند حصوله على الثوب. لكنه يخضع أخيراً للزوميات وجوده النوعي « الموت » ، لأن الثوب سرق منه الامر الذي لا يمحي وحدة تجربته وتمايزها . أما السؤال هل بحث جلجامش عن خلاصة الفردي أم خلاص النوع الإنساني المتمثل في شعبه شعب « أورك » ؟ فهو تساؤل يقوم على تصور سكوني للعلاقة بين الأنا والنحن ، الفرد والنوع مما يجعل بحث جلجامش « أنا - نياً » ؟ أما التصور المجموعي بافتراضه أكثر من طرف « في تكوين العلاقة وتشكيل الظاهرة فينفي التصور السكوني وضيقه

المعرفي . بذلك يصبح جلجامش في رأيي إنسان الإنسانية الأول لا « برو موثيوس » من حيث الأسبقية التاريخية والكيفية . فما « الحدية » الوجودية التي عاناها وعاشها وجودياً جلجامش عندما أدرك نهايته عبر تجربة موت صديقه « أنكيدو » ترسم الخط البياني الفاصل نوعياً بالمقارنة مع « بروموثيوس » الذي نصفه إله ونصفه إنسان ، بل هو إله وقع في خلاف « عائلي » . رغم عقوبته الشديدة، فأن تحديه لايتصف بالسمة الإنسانية الكلية بل الإنسانية النصفية . في حين نجد لدى « جلجامش » تجربة إنسانية كاملة في تحديها ووعيها الذاتي لوضعها الوجودي وحدوده ، بل ومحاولته التجاوز ـ التأله ـ الذي انتهى ويجب أن ينتهي بالفشل . حاول « بروموثيوس » أن يسرق النار المقدسة ليعطيها للانسان ، فهو وعي خارجي داخلي في نفس اللحظة الوجودية للوضع البروموثيومي ـ وهي الرؤيا الوجودية اليونانية عموماً ـ (١) ، بينما الهوة الفاصلة بين داخل وخارج « جلجامش » لا يمكن عبورها . فالخارج ، بالنسبة له ، منبه إنتباهي للداخل الذي منه تبدأ التجربة الانانية .

ان الانكفاء الشعوري والانطواء الذاتي ومايترتب عليه سلوكياً إحدى نقاط إمتياز تجربة (جلجامش) (هيامه بعد اكتشافه عدمه . عزلة الأنبياء والقديسين والمتصوفة في تجربتهم الروحية) .

ففي التجربة الشعورية الجلجامشية نجـــد الإنسان في جميع أبعاده الإنسانية الكاملة . النصفية . فاللاتناهي داخل وعي جلجامش الذاتي (الخلود ـ

---

(١) عبد الرحمن بدوي « خريف الفكر اليوناني » طبعة ٣ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .

الألوهة) والتناهي في شروط وجوده ، وهو يبحث عن اللامتناهي للالتحام فيه . وتجاوز وضعية التناهي موضوعياً . لكنه يفش أخيراً . فيحدث صدع في شعوره ليكون منه إدراك المأساة الوجودية للانسان . فالإله في هذا التصور مفارق مطلق يستحيل إقامة علاقة نوعية مباشرة معه . « ما كان لبشر ان يكلمه إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا »[1] . فحلقات التطور المتصلة بين الطرفين (في الفكر اليوناني)[2] مقطوعة عند نقطة حدية هي نسبية الوجود الإنساني أي الموت .

بهذا المعنى يمكننا القول بأنه نظرية (نيتشه) حول السوبر مان Superman مبررة منطقية عبر الرؤية اليونانية البروموثيوسية (بروموثيوس) بينما هي غريبة علينا ومستحيلة لنا ولتجربة جدنا جلجامش الانسانية . بالنتيجة يتولد فارقاً نوعياً للمأساوية والشعور الضائع استناداً لكل تجربة ثقافية وخصوصياتها . والفارق النوعي بين مأساوية جلجامش - بروموثيوس هو الفارق بين الموت وتربيع الدائرة .

بين الفلسفة بوصفها حكمة ، والفلسفة بوصفها لماذائية في الطريق قصدها « معنى » مشروط بنسبيته ومأساويته اولانيا » .

« المعنى » مشروع الحرية » بينما « الحكمة » مشروع الضرورة[3] . (نهاية سقراط) .

---

(١) القرآن الكريم . سورة الشوري آية (٥١)

(٢) « خريف الفكر اليوناني ».

(٣) أفلاطون حوار « طيماوس » ص ٢٥٩ . ترجمة الأب فؤاد جرجي بربارة. وزارة الثقافة دمشق ٩٦٩

وتلك قضية أخرى تتطلب بحثاً مفرداً .

ألا تفقد الفلسفة جدارتها إذا لم تستمر رحلاتها الضارية في براري المجهول والمعتم ؟

فيها ومعها نتقرى مدى التأله المأساوي للانسان .

المثقفون والعالم الثالث (١)

بقلم : ارنست ماندل
ترجمة : محمّد حافظ يعقوب

إن تقسيم العالم إلى أقطار «غنية» وأقطار «فقيرة» ، واتساع الهوة بينهما، كما ان وظيفة السوق العالمية كآلية تتحول الثروة خلالها من الاقطار الفقيرة الى الأقطار الغنية ، هي بلا شك الإهانة المشينة لعصرنا الراهن - حيث انها تكشف الاستغلال البشع الذي يستغل فيه جهد اكثر من ثلثي البشريه لصالح عدد صغير جداً من ملاكي العواصم العالمية الكبرى .

بالنسبة للماركسيين ، ليست هذه الاهانة باكثر أو أقل من نتيجة حتمية للمظهر الامبريالي للاقتصاد الرأسمالي وللتطور الاجتماعي ؛ إنها النتاج الحتمي للوجود الفعلي للرأسمالية . وهم يدركون أنه من العبث محاربة بؤس العالم الثالث دون خوض الحرب ضد الامبريالية ، ومازال من غير المعقول محاربة الامبريالية

(١) من مجلة القارات الثلاث .

دون التحكم بمصدر قوتها : الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، وجود الطبقة البورجوازية التي تحتكر هذه الملكية، ووجود طبقة اجتماعية أخرى - البروليتاريا- التي تكره على بيع قوة عملها .

ولقد أخذ معظم المثقفين ، في عالمنا المعاصر ، يدركون البؤس غير المحتمل للعالم الثالث قبل أن يدركوا الأسباب الحقيقية للشر أو الإثم ، وقبل معرفة هذا البؤس بشكل كامل . بل إن الوعي يتعزز باتساع ثورة شعوب العالم الثالث ضد البؤس الذي يجعلهم ضحاياه. وحتى حين نتحدث عن وعي جزئي أوناقص ، عن شبه وعي ، فإننا نتحدث عن حقيقة مؤكدة لها تأثيراتها العميقة السياسية ، والاجتماعية ، وفي الحياة الثقافية لغالبية الأقطار خلال السنوات العشر الماضية .

كانت الحرب الجزائرية هي التي لعبت بلاشك الدور الكاشف في فرنسا. وفي الولايات المتحدة - وعلى امتداد عالمي - كان لحرب الفيتنام نفس التأثير . وخلال هذه الحرب أصبح الظلم الأساسي للعلاقات الامبريالية العالمية واضحاً لمئات الآلاف من المثقفين غير الماركسيين : المستغلون يهاجمون ضحاياهم كيما يعاقبونهم على اقترافهم جريمة « محاولة التحرر » .

وكان رد الفعل الأول من قبل المثقفين حيال وعيهم حقيقة الامبريالية ، ولانتشار الثورة ضدها ،قد اختلف باختلاف فيما إذا كان المثقف من بلد امبريالي ، أم كان من أحد أقطار العالم الثالث .

وبين رد الفعل السابق ، فإن رد الفعل الأول هو وعي رديء : رفض لقبول الضغط والحروب الاستعمارية ، البحث عن طرق تجذير To Stem عملية استنزاف الثروة التي تقوم بها التجارة العالمية الراهنة ، المستعمرات وأشباه

المستعمرات ؛ الدعوة إلى زيادة معونة الأقطار « الغنية » إلى الأقطار « البائسة » حتى من ناحية الشخصية (كمساعدات تقنية واشكال أخرى) بهدف تخفيف بعض بؤس شعوب العالم الثالث .

وخلال هذه المجموعة الثالثة ، فإن موقف الانتماء الفردي والمسؤولية الجماعية قد انتصر بسرعة أكبر . فمن القول بأن التخلف يجب ألا ينظر إليه على أنه « مقدور » (جغرافياً ، انثروبولوجياً ، تاريخياً ، أو سوسيولوجياً) ، بل وكذلك كشر يجب إزالته بواسطة انجاز المشاركة في ازالته سريعاً . وثمة تواز ظاهر بين انتشار انتماء المثقفين في الحركات ليبرالية (أي ، في الثورة البورجوازية الوطنية) منذ بداية القرن التاسع عشر ، في أكثرية البلدان الأوروبية ، وبين انتشار انتماء المثقفين إلى حركات التحرر الوطني لبلدان العالم الثالث ، بعد الحرب العالمية الثانية .

ومع ذلك ، فثمة فرق أساسي بين الوضع التاريخي والاجتماعي لمثقفي وسط وغربي أوروبا في بداية القرن التاسع عشر ، وبين مثقفي أيامنا المعادين لحركات تحرر أقطار العالم الثالث . فالمثقفون جزء من طبقة اجتماعية يمكن تحديد طبيعتها بدقة ، حتى تلك التي يظل إطارها غامضاً كلياً : البورجوازية الصغيرة ، الطبقة الوسطى « الجديدة » (التي لاتملك ، عموماً ، وسائل انتاج خاصة بها) . هذه الطبقة الاجتماعية هي القوة الثورية بالقوة Par excellence خلال المرحلة الكلاسيكية للثورات البورجوازية ، خلال أو عقب الثورة الصناعية مباشرة ، عندما تكون البروليتاريا الجديدة في طور النشوء والولادة أومازالت ضعيفة للغاية . وهي تلعب الآن نفس الدور ، حيث تأتي البروليتاريا الصناعية في المحل

الأول ، ثم الفلاحين الفقراء واشباه البروليتاريا من غير الملاّك في المحل الثاني ، كقوى ثورية رئيسية في المجتمع العالمي الحديث .

وبالنسبة لهذه القوى الثورية – التي هي ، تاريخياً ، القوى التي ستحمل بؤس العالم الثالث – فان المثقفين ، كجماعة اجتماعية Social group ، يحتلون بالضرورة وضعاً غامضاً . فلكونهم مشدودين بأفكار العدالة والتشكل العقلي في تكوين الثورة الاشتراكية ، والتضحيات الحتمية ، والتأثير المستمر ، وتطبيق المساواة المطلقة ، فان تلك الثورة نفسها تتراجع إلى الخلف . تطير الروح لمساعدة الضغط بينما يضطرب اللحم ، الذي هو أضعف ، بفعل الفوائد غير اللامادية التي تعمل من أجلها المجتمعات الرأسمالية المعاصرة .

ويتمثل الغموض في الوضع الاجتماعي للمثقفين بالتغير الداخلي في مواقفهم السياسية ، المرتبطة حالياً بالثورة ، وأحياناً يديرون ظهورهم لها ، وفي أحيان أخرى يضعون أنفسهم مع القوى الامبريالية والرأسمالية . وينعكس ذلك بشكل عميق على أيديولوجيتهم الخاصة في مقابل المشاكل الرئيسية للحرب الثالثة .

في الأقطار الامبريالية تغدو أيديولوجية المثقفين هذه سلسلة كاملة من مفارقات الدعاية الإنسانية ، بدرجة كبيرة أو صغيرة ، المنتهية بالصوفية التبريرية أو الساخرة المدروسة – التي « تبرهن » لحقبة كاملة من التاريخ ، أن بؤس العالم الثالث سوف يستمر . كل هذه المواقف الأيديولوجية ترفض أن توافق على مسؤولية الامبريالية والرأسمالية بشكل رئيسي في هذا البؤس ، بل وترفض الموافقة كذلك على حقيقة ان الثورة وحدها هي التي تزيل كل البنى

الامبريالية والرأسمالية وهي التي تستطيع أن تتمثل عملية المشاركة الذاتية لشعوب العالم الثالث .

وخلال اعتراضاتنا المتعددة على أيديولوجية البورجوازية الصغيرة هذه يمكن أن نلاحظ مايلي : إن هوس الرغبة في تقديم البضائع الطيبة للحكومات الأوليغارشية لبلدان العالم الثالث (كما لوكانت هذه الحكومات لاتمثل مصالح اجتماعية تربطها ببقاء الوضع الراهن - أو فلنقل ، ببقاء البؤس) ؛ إن الاعداد الأولي السيكولوجي ، الأخلاقي ، الثقافي ، بل وحتى المسائل الدينية في عملية التقدم (هم يقررون الأشياء كما لو أن الديانة الهندوكية هي العقبة الاساسية أمام تحديث الهند ، وهم لايدركون أن عجز البورجوازية الهندية عن تحديث البلاد هو الذي يفسر كذلك بقاء هذه القوى الدينية) .. الخ .. الخ .

إن المفارقات الاساسية لهذه الايديولوجيا النموذجية للمثقفين في بلدان العالم الثالث ، هي التي تشكل الأوهام ، فعدم القدرة على رؤية مصدر شرور « النظام الزراعي الاقطاعي » ، أو اعتقادهم ان اصلاحاً زراعياً تحققه البورجوازية سوف يبدل الوضع جذرياً (كما لو ان اصلاحاً رراعياً جذرياً لايصطدم بملاّك الأراضي الذين يعملون تحت سقف النظام !) ، كما يتناول ثانياً ، تياراً نخبوياً يفترض أن تمهيداً من قبل مجموعة صغيرة من المثقفين الشجعان ستضع نهاية لكل المباذل القديمة . وللمفارقتين الأثنتين ، معاً ، الرغبة للفصل بشكل تعسفي بين « مظهر التحرر الوطني » وبين « مظهر الثورة الاشتراكية » دون أن يدركوا أن أحدهما يؤدي إلى الآخر ، إذا ماتمكن من النجاح ، لأن مصالح الطبقات الاجتماعية في صنع الثورة الاشتراكية هي وحدها التي تملك القدرة على مقاومة الامبريالية في

الصراع الطويل وأن تحمل تحررها الوطني حتى النهاية ، مزيلة سيطرة الرأسمال العالمي والسوق الامبريالية العالمية عن الاقتصاد القومي .

ولا يستطيع المثقفون الوصول إلى وضوح حقيقي فيما يتعلق ببؤس العالم الثالث ،دون الإنتماء الحقيقي . إن وحدة النظرية والممارسة الثورية هي وحدة كلية : دون الممارسة الثورية من المستحيل التزود بفهم نظري فعال ، وبدون النظرية الثورية ، الممارسة مدانة في تلمسها وتخبطها ولا جدواها. وبالنسبة للمثقف في البلدان الامبريالية كما هو في بلدان العالم الثالث – الانتماء الكلي يعني المشاركة في النضال الثوري ، وبدون هذه المشاركة ، ليس له من طريق آخر للتحرر الفردي في المسؤولية المشتركة لبؤس اكثر من ألفي مليون كائن بشري .

إن أشكال هذه المشاركة يمكن ان تتنوع طبقاً للظروف – أي ، طبقاً لشدة العملية الثورية في المراحل المختلفة في أقطار مختلفة . لقد كنا نسخر دائماً و حاملي الحقائب [1] (كلهم على الغالب مثقفون) الذين قاموا بعمل فوري على صورة دعم مادي للثورة الجزائرية كمهمة أساسية يقدمها الثوريون الافرنسيون بين ١٩٥٦ – ١٩٦٢ . ومن المؤكد ان انجاز المهمة الصعبة وهي انشاء منظمة ثورية قادرة على التدخل الفعال عندما يقدم الوضع الثوري نفسه ، يظل أولياً في هذه الحقبة في فرنسا . وما زال كذلك مؤكداً أن مثل هذه المنظمة ، لايمكن أن تبنى إذا كانت مجموعة أعضائها من الطهريين ، أوكانت مشاركتهم طهرية في

---

(١) خلال الحرب الجزائرية ، قام الجزائريون المقيمون في فرنسا بالمساهمة شهرياً لصالح الثورة بملايين الفرنكات ، التي كانت تحول عن طريق حقائب المتعاطفين الإفرنسيين لتجنب الاعتقال من قبل السلطات الافرنسية .

(الناشر)

فعاليات الحركة العمالية الاصلاحية (لم يكن ثمة آخرون في فرنسا آنذاك) . إن المشاركة – حتى تلك التي قد تكون غير مباشرة – بالفعاليات الثورية الحقيقية ، وفي أي مكان في العالم ، هي الشرط الضروري لتشكيل طليعة ثورية حقيقية .

وبهذا المعنى ليس من الصدفة أن توجد الطلائع الثورية الجديدة وتتجمع حالياً في الأقطار الإمبريالية ، في فرنسا ، واليابان ، وايطاليا ، وحتى في الولايات المتحدة ، وان تعمد بالنار خلال تطابق حقيقي وصراع عنيف بالنضال الثوري الفعلي الذي نما خلال السنوات الأخيرة : الثورتان الكوبية والفيتنامية ؛ وأخيراً فان هذا « الانتماء » إلى ثورات العالم الثالث ، قد عجل في تأجيج النضال البطولي في الأقطار الامبريالية نفسها ، أكثر من ابطالها !

مرثية اللص الجميل

أحمد عبد المعطي حجازي

ما الذي يمكن أن تثيره فينا قصيدة قالها شاعر بدوي فاتك في رثاء نفسه ؟

أغلب الظن أننا لن نرى في هذا الشاعر إلا لصاً من لصوص البادية لا يختلف عن غيره من اللصوص ، ولن نرى في القصيدة إلا تلك الصور الصحراوية المعتادة التي تعلمنا في مدارسنا أنها لا تعني إلا مدلولاتها المباشرة ، وربما طربنا لبعضها ، بل ربما طربنا للقصيدة كلها . لكننا في أغلب الأحوال لن نتوقع أن تكون وراء هذه القصيدة تجربة روحية عميقة عبر عنها هذا الشاعر البدوي في شعره كما عبر عنها في حياته .

اننا نستكثر على شعرائنا القدامى ، وخاصة اذا بدوا فتاكا ، أن تكون لهم مثل هذه التجارب الروحية ، فكثير منا يستصغر شأن الثقافة التي يمثلها الشعراء القدامى والحضارة التي خرجوا منها . والقليلون المستعدون لاعادة النظر فيما تعلموه عن الثقافة العربية القديمة لا تسعفهم المصادر الحديثة في معرفة الحقيقة ،

وهم في الغالب يعجزون أو يكسلون عن التماسها في المصادر القديمة التي مازالت في معظمها كنوزاً مغلقة تحتاج الى اعادة نشر وتحقيق ودراسة وفرز وانتخاب ، بل تحتاج قبل كل هذا الى الحصر ، فنحن لا نعرف بدقة حجم المكتبة العربية القديمة ولهذا كله فنحن لا نقرأ شعرنا القديم . واذا قرأناه فكأنما نقرأ تقارير عن وقائع مرت وتسجيلات لصور ومشاهد غبرت . أما أن نستشف وراء هذه الصور والأخبار معاناة روحية أو نظرة شاملة فلا ، لأن معظمنا ينكر هذا على الشعر العربي القديم .

لكن الحقيقة ليست كذلك ، لأن الشعر في كل لغة وحضارة ليس تقارير وتسجيلات مهما يكن من بساطة أدواته وسذاجة أشكاله .

الشعر اعادة خلق ومحاولة واعية أو غير واعية للنفاذ الى جوهر الحياة كما عاشها الشاعر ، فكل قصيدة في الواقع اجتهاد يختلف نصيبه من النجاح والفشل للتعبير المتفرد عن هذه الحياة المتفردة ، وان بدا لنا طابعها التكرار والرتابة والثبات .

واذا كانت الحاجة الاجتماعية تعطف الأنسان في الغالب الى ان يرجع في سلوكه الجوانب المشتركة بينه وبين الآخرين وخاصة في مثل المجتمع العربي البدوي القديم ، فالشاعر والفنان عامة والموهوب بصورة أعم يجتهد لينفذ بخصوصية تجربته فوق ما هو مشترك ومكرر ، ويحاول الافصاح عن غربته وتفرده وتمرده.

وعندما نكون أمام قصيدة تعد بذاتها وبصرف النظر عن قائلها من روائع الشعر ، ثم عندما نعرف ان قائلها عاش حياة لا يصدق ما قلناه من التفرد والتمرد كما يصدق عليها ، يحق لنا ان نلتمس في القصيدة وفي سيرة الشاعر هذه

التجربة الروحية العميقة ، أو بالأحرى يحق لنا ألا نقف عند ما نقرأ من صور جميلة وعواطف غنية ، بل لنا فوق ذلك ان نطلب من سيرة الشاعر أن تضيء لنا القصيدة أكثر لنرى ما يمكن ان يكون وراء صورها المباشرة ورموزها القريبة من معاناة روحية وفكرية بعيدة .

• • •

أما الشاعر الذي نحن بصدده فهو مالك بن الريب المازني التميمي . وأما القصيدة فهي يائيته الشهيرة في رثاء نفسه . ولا شك أن كلاً منا يعرف عن هذه القصيدة شيئاً ،فقلما تخلو المختارات الحديثة او المصنفات القديمة من ذكرها ، لكن هذه الشهرة جنت عليها . فقد تعددت فيها الروايات والاجتهادات حتى لا نكاد نعرف مصدرين أجمعا فيها على رواية واحدة . بل ان معظم المختارات الحديثة تجتزىء منها جزءاً لا يتجاوز عشرة أبيات من أبياتها التي يبلغ عدد المتفق على روايته منها حوالي ثمانية وخمسين بيتاً قد تصل الى اثنين وستين في روايات أخرى . وتصل الحيرة بالقارىء الى أبعد مدى حين يقول له صاحب الأغاني عن أبي عبيدة إن ما قاله مالك هو ثلاثة عشر بيتاً وان الباقي منحول !

واذا كانت المصادر تختلف فيما بينها حول عدد الأبيات فهي تختلف أيضاً في طريقة ترتيبها ، وفي قراءة بعض مفرداتها وتراكيبها فـ « تفتكى » تقرأ في رواية أخرى « تفتكى » ، و « البُعد » بضم الباء قد تقرأ « البَعد » بفتحها و « المنقيات » تقرأ « المبقيات » و « محبوك » تقرأ «خنذيذ » الى آخر هذه الخلافات المعهودة في رواية الشعر القديم والتي نجدها في هذه القصيدة اكثر من المعهود ، بحيث يصعب على القارىء الحديث غير المحقق أن يتذوقها تذوقاً يطمئن اليه خاصة وقد أصبح يعلن ان الكلمة في الشعر مقصودة لذاتها فليس يغني عنها

مرادف أو تقوم مقامها اخرى يستقيم بها معنى مقبول بصرف النظر عما يوحي به هذا المعنى وعن علاقته بالقصيدة كلها . بل اني لأرى أنه حتى القارىء المحقق لن يتمكن من تذوق مثل هذه القصيدة ورواياتها مختلفة هذا الاختلاف ما لم يتخذ من ذوقه الخاص مقياساً يرجح به رواية على رواية وقراءة على قراءة ، وفي هذا من المخاطرة والاجتراء ما فيه ، ومن التعرض للنقد القائل بعدم صحة الترجيح على أساس التذوق المعاصر لهذه التحفة القديمة .

وأنا لا أزعم لنفسي هذه المقدرة على تحقيق الشعر القديم ولا أحد يطالبني بذلك ، فأنا مجرد قارىء عاشق لهذا الشعر القديم ، أما التحقيق فيجب ان يقوم به سواي ممن أوتوا العدة للتحقيق بتقديم هذه القصيدة وفي الصورة التي يطمئن المتذوقون الى أنها أقرب ما تكون الى الحقيقة . لكن هذا الجهد للأسف لم يبذل في خدمة هذه القصيدة وفي كثير غيرها من القصائد القديمة ، خاصة قصائد هؤلاء الشعراء المقلين أو الشعراء الذين لم يصلنا إلا القليل من أشعارهم فليسوا من أصحاب الدواوين . وقصارى ما استطعته أنني قرأت القصيدة وما كتب حولها وحول الشاعر وهو متناثر في بضعة وعشرين مصدراً هي ما تمكنت من الوصول اليه ، ثم اخترت رواية « خزانة الادب » لها . وهي رواية تتفق عليها مع اختلافات يسيرة في الترتيب وقراءة بعض المفردات عدة مصادر أخرى مثل « جمهرة أشعار العرب » و « ذيل أمالي القالي » و « المجر » . ثم اخترت من الابيات التي ترويها المصادر الاخرى زيادة على هذه الرواية بيتين وجدتها في معجم البلدان ورأيتها شديدي الصلة بالمقطع الاول وهو الذي يتحدث فيه الشاعر عن وادي الغضى فأثبتها بعد الابيات الثلاثة الاولى من القصيدة على حين أهملت أبياتاً أخرى رأيتها ضعيفة الصلة بالقصيدة ورجحت أن تكون هي المنحولة .

وأنا في هذا المجال لا أدعي أن الرواية التي سأقدمها للقصيدة هي الرواية الصحيحة ، وانما هي رواية فحسب لا ينقصها النظر في الروايات الاخرى ، بل هي في الحقيقة رواية مؤلفة من عدة روايات رأيت ان الروح العام للقصيدة في كل منها واحد لايختلف ، ووجدت ان التعبير الاقوى عن هذا الروح يتحقق بهذا التنسيق المحدود الذي قمت به . وهكذا جعلت الاساس هوهذه الروايات القديمة، ولم أحكم ذوقي إلا في التنسيق بينها حين دعت الحاجة اليه ، وباختصار فالرواية التي أقدمها ليست تحقيقاً وانما هي قراءة . وها هي القصيدة :

١ ـ ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا

٢ ـ فليت الغضى لم يقطع الركبُ عرضَه
وليت الغضى ماشى الركابَ لياليا

٣ ـ لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى
مزارٌ ، ولكنَّ الغضى ليس دانيا

٤ ـ وليت الغضى يوم ارتحلنا تقاصرت
غصونُ الغضى حتى أرى مَن ورائيا

٥ ـ وليت الغضى والأثل لم ينبتا معا
فان الغضى والأثل قد قتلانيا !

٦ ـ ألم ترني بعت الضلالةَ بالهدى
وأصبحت في جيش ابن عفانَ غازيا

٧ ـ وأصبحت في أرض الأعادي بعد ما
أراني عن أرض الأعادي قاصيا

٨ - دعاني الهوى من أهل أودَ وصحبتي

بذي الطبَسين فالتفتُّ ورائيــا

٩ - أجبت الهوى لما دعاني بزفرةٍ

تقنّعتُ منها أن ألامَ ردائيــا

١٠ - أقول وقد حالت قرى الكُرد دوننا

جزى الله عمراً خير ماكان جازيا

١١ - إن الله يرجعني من الغزو لا أرى

وإن قلّ مالي طالبــاً ما ورائيا

١٢ - تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي

سِفارُكَ هذا تاركي لا أبا ليــا

١٣ - لعمري ، لئن غالت خراسانُ هامتي

لقد كنتُ عن بابَي خراسانَ نائيا

١٤ - فان أنجُ من بابَي خراسان لا أعد

اليها وإن منيتموني الأمانيــا

١٥ - فلله درّي يوم أترُكُ طائعــا

بنيّ بأعلى الرقمتين وماليــا

١٦ - ودَرُّ الظباءِ السانحاتِ عشيّةً

يُخبّرنَ أنّي هالكٌ مَن ورائيــا

١٧ - ودر كبيريَّ اللذين كلاهما

عليّ شفيقٌ ناصحٌ لو نهانيــا

١٨ - ودر الرجالِ الشاهدين تفتّكي

بأمري ألا يَقصروا من وثاقيــا

١٩ - ودر الهوى من حيث يدعو صحابه
ودر لجاجاتي ودر انتهائيا !

٢٠ - تذكرتُ من يبكي عليّ فلم أجد
سوى السيف والرمحِ الرُدَيني باكيا

٢١ - وأشقرَ محبوكٍ يجر لجامَه
الى الماء لم يترك له الدهرُ ساقيا

٢٢ - ولكن بأكناف السُمَيْنَةِ نسوةٌ
عزيزٌ عليهن العشية ما بيا

٢٣ - صريعٌ على أيدي الرجالِ بقفرةٍ
يسوُّونَ لحدي حيث حُمّ قضائيا !

٢٤ - ولما تراءت عند مَرْوٍ منيّتي
وحل بها جسمي وحانت وفاتيا

١٥ - أقول لأصحابي : ارفعوني ، فإنه
يَقَرُّ بعيني أنْ سهيلٌ بدا ليا

٢٦ - فيا صاحبيْ رحلي ، دنا الموتُ فانزلا
برابيةٍ ، إني مقيمٌ لياليا

٢٧ - أقيما عليّ اليومَ ، أو بعضَ ليلةٍ
ولا تعجلاني قد تبيّنَ ما بيا

٢٨ - وقوما إذا ما استُلّ روحي فهيئا
ليَ السدْرَ والأكفانَ عند فنائيا

٢٩ - وخُطّا بأطراف الأسنةِ مضجعي
ورُدّا على عينيّ فضلَ ردائيا

٣٠ - ولا تحسداني ، بارك اللهُ فيكما

من الأرض ذاتِ العرضِ أن توسعا ليا

٣١ - خذاني فجرّاني ببردي اليكما

فقد كنتُ قبل اليوم صعباً قياديا

٣٢ - وقد كنت عطّافاً إذا الخيل ادبرت

سريعاً لدى الهيجا الى من دعانيا

٣٣ - وقد كنت صباراً على القرنِ في الوغى

وعن شتمي ابنَ العمِّ والجارَ وانيا

٣٤ - فيوماً تراني في ظلالٍ ونعمة

ويوماً تراني والعتاقُ ركابيا

٣٥ - ويوماً تراني في رحىً مستديرةٍ

تُخرّقُ اطرافُ الرماحِ ثيابيا

٣٦ - وقوماً على بئرِ السُمينة اسمعا

بها الغُرَّ والبيضَ الحسانَ الروانيا

٣٧ - بأنكما خلّفتماني بقفرةٍ

تَهيلُ عليَّ الريحُ فيها السوافيا

٣٨ - ولا تنسَيا عهدي خليليَّ بعدما

تَقطّعَ اوصالي وتبلى عظاميا

٣٩ - ولن يعدمَ الوالون بَثّاً يصيبُهم

ولن يعدم الميراث مني المواليا !

٤٠ - يقولون : لا تبعَد ! وهم يدفنونني

واين مكان البُعد إلا مكانيا

٤١ - غداةَ غدٍ ، يالهف نفسي على غدٍ !
اذا ادلجوا عني واصبحت ثاويا

٤٢ - واصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ
لغيري ، وكان المالُ بالأمس ماليا

٤٣ - فياليت شعري ، هل تغيرتِ الرحى
رحى المِثْل او امست بِفَلْجٍ كماهيا

٤٤ - اذا الحيُّ حلُّوها جميعاً وانزلوا
بها بَقَراً حُمَّ العيونِ سواجيـا

٤٥ - رعينَ وقد كاد الظلام يُجِنُّهـا
يَسُفْنَ الخُزامى مَرةً والأقاحيا

٤٦ - وهل أتْرُكُ العيس العباليَ بالضحى
بركبانها تعلو المناقِبَ القوافيـا

٤٧ - اذا عُصَبُ الركبانِ بين عُنيزةٍ
وبُولانَ عاجوا المنقياتِ النواجيا

٤٨ - فياليت شعري ! هل بكى أمُّ مالكٍ
كما كنتُ لو عالَوا بنعيكِ باكيا

٤٩ - إذا متُّ فاعتادي القبور فسلّمي
على الرَّمسِ ،أسقيتِ السحابَ الغواديا

٥٠ - على جدثٍ قد جرَّتِ الريحُ فوقه
ترابا كسحق المرنبانيِّ هابيـا

٥١ - رهينةَ أحجـارٍ وتربٍ تضمّنت
قرارتُها مني العظام البواليـا

٥٢ ـ فيا صاحبي ، إمّا عرضتَ فبلّغنْ

بني مازنٍ والريبَ الا تلاقيا

٥٣ ـ وعطّل قلوصي في الركاب فانها

ستفلق اكباداً وتبكي بواكيا

٥٤ ـ وابصرتَ نارَ المازنيّاتِ مَوهِناً

بعلياءَ يَثني دونها الطرفُ وانيا

٥٥ ـ بعَودِ النَّجوجِ اضاء وقودُها

مهاً في ظلالِ السِّدرِ حوراً جوازيا

٥٦ ـ بعيدٌ ! غريبُ الدار ! ثاوٍ بقفرةٍ

يدَ الدهرِ معروفاً بأن لا تدانيا

٥٧ ـ أُقلّبُ طرفي حول رحلي فلا ارى

به من عيونِ المؤنسات مُراعيا

٥٨ ـ وبالرمل منّا نسوةٌ لو شهدنني

بكين وفدّينَ الطبيبَ المداويا

٥٩ ـ فمنهن أُمي وابنتايَ وخالتي

وباكيةٌ أُخرى تهيجُ البواكيا

٦٠ ـ وما كان عهد الرملِ عندي وأهلِه

ذميماً ، ولا ودّعتُ بالرمل قاليا !

هذه هي القصيدة ، فمن هو الشاعر ؟

هو مالك بن الريب بن حوط بن قرط بن حسل بن ربيعة بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم . شاعر فاتك لص . منشؤه في بادية بني تميم في

البصرة ، من شعراء الاسلام أول دولة بني أمية . استعمل معاوية بن أبي سفيان سعيد بن عثمان ابن عفان ، على خراسان ، فمر سعيد بجرنده على طريق فارس ، فلقى بها مالك بن الريب المازني ، وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم ثياباً ، رآه سعيد أعجبه ، فقال له سعيد : ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق ، ومايدعوك الى مايبلغني عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل ، قال يدعوني اليه العجز عن المعالي ومساواة ذوي المروءات ومكافأة الاخوان . قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما كنت تفعل ؟ قال اي والله ايها الأمير ، أكف كفاً لم يكف أحد أحسن منه ، فاستصحبه وأجرى له في كل شهر خمسمائة درهم ، وانطلق مالك مع سعيد لكنه مرض في طريق خراسان فلما أشرف على الموت قال هذه القصيدة يرثي بها نفسه .

والرواة يختلفون في ترجمة حياة مالك كما يختلفون في رواية قصيدته ، فأغلبهم يقول ان خروجه كان مع سعيد بن عثمان بن عفان ، لكن بعضهم يقول ان سعيد الذي خرج معه هو سعيد بن العاص . وأغلبهم يقولون انه مات بعد ان مرض ، والبعض يقول بل قتل ، طعن فسقط وهو بآخر رمق . ويذهب آخرون في ذلك مذهباً أسطورياً فيقولون بل مات في خان ، فرثته الجن لما رأت من غربته ووحدته ، ووضعت الصحيفة التي فيها القصيدة تحت رأسه !

ونحن نستطيع بالطبع ان نرجح الرواية الأولى فليس في القصيدة ذكر للمعركة التي جرح فيها ولا يعقل ان يكون هذا الشاعر الفارس الفاتك قد خاض معركة أودت به ثم يغفل ذكرها في القصيدة التي يرثي بها نفسه ، كما أن الطريقة التي يوصي باتباعها في دفنه تدل على أنه مات حتف أنفه كما سنوضح ذلك خلال حديثنا عن القصيدة ، الى ان الرواية الأسطورية غنية بذاتها عن الدفع وان كانت

ذات دلالة عميقة عن الشاعر والقصيدة ، فلا شك ان شخصية هذا الشاعر اللص الجميل كانت تلقى هوى في نفوس الناس آنذاك كهذا الهوى الذي تلقاه شخصية اللص الظريف أو اللص الشريف في عصرنا وفي كل عصر ، خاصة وأن ماتقول الرواية كان من أجمل الناس وجها وأحسنهم ثيابا ، ولا شك في ان مغامرات مالك هو وجماعة الفتاك من اصحابه الذين كانوا يقطعون الطريق في بادية البصرة ومنهم ابو حردبة ، وشظاظ ، وعرقل وكلهم شعراء فتاك ، كانت على ألسنة القوم آنذاك وصاحب الأغاني يحفظ لنا شيئاً من نوادرهم ومغامراتهم ومن ذلك الخبر الذي يروي فيه اجتماعهم وحديثهم عن أعجب ماعملوه في سرقاتهم .

الى ان القصيدة قد هزت بروعتها جمهور الشعر آنذاك فاجتمع سحر شخصية الشاعر وسحر القصيدة حتى نسبها بعضهم للجن على نحو ما كان يفعل قدماء العرب .

وعلى كل حال ، فالثابت أن مالكا كان شاعراً فاتكا خارجاً على القانون ، وفي « الشعر والشعراء » لابن قتيبة أنه حبس بمكة في سرقة ، فشفع فيه شماس ابن عقبة المازني فاستنقذه ، ومما قاله في الحبس :

أتلحق بالريبِ الرفاقُ ومالكٌ بمكةَ في سجنٍ يعنّيه راقبه

لكن مالكا لم يكن مجرد لص . انه في حقيقته متمرد اصيل رافض لكل سلطة الأعراف والتقاليد الفروسية ، وفي اخباره المتناثرة في الكتب مايؤيد هذا الزعم فضلا عما في قصيدته اليائية من تعبير قوي عن هذا الروح المتمرد . ان أهاجيه في الحكام كثيرة حتى لكأنه يهجو مجرد السلطة ، وفي « مجموعة المعاني » بيتان منسوبان له يهجو فيهما مروان بن الحكم الذي كان والي المدينة في زمن معاوية

والذي صار بعد ذلك أميراً للمؤمنين ، وكان مروان قد طلبه هو ومن كان يقطع الطريق معه من أصحابه فهربوا :

لعمرك مامروان يقضي امورنا ... ولكنما تقضي لنا بنت جعفر

فياليتها أمست علينا أميرةً ... وليتك يامروان أصبحت ذا الحَر !

بل لقد هجا أميره سعيد بن عثمان بن عفان نفسه حين سار الى سمرقند في خراسان فخرج اليه اهلها فواجههم سعيد بجنده يوما الى الليل ثم انصرف الفريقان دون قتال ، فقال مالك يذم سعيداً :

وما زلتَ يوم الصفد ترعد واقفاً ... من الجبن حتى خفتُ ان تتنصرا

ولشهرة مالك في هجاء ذوي السلطان والامارة وقــع المبرد صاحب « الكامل » في خطأ شنيع حين نسب اليه ابياتاً في هجاء الحجاج الذي كان في حوالي العشرين من عمره معلما بسيطاً في الطائف حين مات مالك في خراسان عام ستين للهجرة ، فلم يكن الحجاج آنذاك قد ظهر كرجل من رجالات امية وتعرض بسبب قسوته لهجاء الشعراء من امثال الفرزدق وغيره . لكن هذا الخطأ الذي وقع فيه المبرد ونقله عنـــه آخرون يظل دليلاً على مدى شهرة مالك في هجاء السلطة والسلطان .

واذا كان هذا المتمرد الخارج على السلطة يعيش في القرن الأول للهجرة حيث كان الاسلام حركة جديدة حتى على العرب انفسهم ، ثم هو بعد ذلك يعيش في البادية بعيداً عن الحواضر القديمة والجديدة التي كان فيها حياً نابضاً يشع ثقافته الجديدة النامية وترعاه سلطة الحكومة حق لنا ان نتساءل عما في هـــذا المتمرد البدوي من بقايا الوثنية وما فيه من ثقافة الاسلام ، فاذا نحن عرضنا هذا السؤال على أخباره وعلى القصيدة التي بين ايدينا رجع لدينا انه كان رقيق الدين ، وان

مافيه من بقايا الوثنية اكثر مما فيه من تقاليد الاسلام . فمالك بن الريب في نظرنا متمرد بدوي نصف وثني !

ان هذه الحقيقة ستفسر لنا في القصيدة أشياء كثيرة .

لكن ماهي هذه التجربة الروحية العميقة التي عاشها مالك بن الريب وعبر عنها في قصيدته اليائية كما ذكرنا في أول المقال ؟

انها تجربة التمزق بين عالمين متناقضين .. عالم البداوة والوثنية بما فيه من قيم الحرية والكبرياء الفردي والفروسية وعبادة القوة ، وعالم الحواضر الاسلامية الجديد بما فيه من قيم النظام والمجتمع وكبح جماح النفس والامتثال للقانون. عالم قديم آفل ، وعالم جديد داخل وقف بينهما مالك بن الريب يدافع عن عالمه القديم الذي يجد فيه حريته وأمنه وأصله ومتعته وأصحابه وماضيه ويحقق فيه فضائله التي يقوم عليها وجوده . فهو ينخرط في جماعات الفتاك التي عرفتها الجاهلية كما عرفها الاسلام ، وان تكن في الاسلام قد اتخذت طابعاً جديداً هو التمرد على سلطة الحكومة وأحكام الشريعة التي لم تكن قائمة في الجاهلية .

والحقيقة أن الفتك سلوك جاهلي وثني يحقق فيه العربي الوثني فضائله الفردية من تحد للخطر واستهتار بالموت ومباهاة بالقوة ووفاء للاخوان وممارسة للحرية واستنزاف لطاقة الحياة ومحاولة للتوحد بالقدر حتى كأنه قد تجسد في الفاتك .

وفي « المحبر » أن أبا الحزيف عبيد بن نشبة المري وهو من فتاك الجاهلية علم الحارث بن ظالم الفتك ، وأتاه الحارث فقال له : علمني الفتاكة . فقال ابو

الحزيف : « اذا هممت فافعل » ، فأعاد عليه فقال له قوله الأول . فأعاد عليه الحارث القول ثالثة فشد عيه ابو الحزيف بالسيف ليضربه فقال له الحارث : ماهذا ؟فقال: هذا الفتك . هممت بضربك !

وها هو ذا العالم القديم بثله وقيمه يتقوض ويقوم عليه أو بالأحرى يزحف اليه عالم جديد من المدن والمساجد وقصور الأمراء ورجال الشرطـــة والجباة والعلماء والقواد. بل ان هذا العالم الجديد الذي حبس مالكا مرة في سرقة ليقترب منه هو بالذات في هيئة جيش جرار يقوده سعيد بن الخليفة الثالث عثمان فيزحم الافق ويثير الصحراء الساكنة ويمد على هؤلاء الفتاك الوثنيين أو نصف الوثنيين اقطار الأرض ، وها هو أمير الجيش يعجب بمالك فيعرض عليه السير معه ويغريه بمكافأة سخية حتى يقبل الخروج معه مخلفاً أهله وأصحابه ومنازل قبيلته من آل الريب وآل مازن ، ويظل الجيش يضرب الى الشرق حتى تفصله عن مواطنه السهول والجبال والأنهار والصحراء .

لقد صار مرة أخرى سجين هذا العالم . وانه ليشعر بان حريته قدانتزعت منه وانه باعها بالمال في أبخس الثمن . وانه ليمرض ويقول قصيدته ثم يموت ميتة كأنها عقاب على خطيئة . فالفارس الفاتك الشجاع الذي باع حريته بالدراهم وقبل ان يستأنسه ذوو السلطان يموت حتف انفه غريباً بعيداً عن وطنه . لقد خنقه هذا العالم الجديد ومرغ بطولته في الوحل الرغام. وفي ترجمة الأغاني لمالك خبر كأنه تفسير لمعنى قبوله الخروج للغزو . يحدثنا الأصفهاني عن اعجاب امير الجيش بحسن حبه للابل حين افتقدوا حلاّبها فلم يجدوه فتقدم مالك لحلبها فاذا هو يحسن الحلب فيعرض سعيد بن عثمان على مالك أن يقوم بأمر الابل طيلة الغزو فيحس مالك بالاهانة ان يصير حلاّبا وهو فارس فيرفض ، ويقول :

وإني لأستحي الفوارسَ أن أُرى بارض العدا بوْ المخاضِ الروائمِ
وإني لأستحي اذا الحرب شمرت أن ارخىَ دون الحرب ثوبَ المسالمِ
ولكنني مستوحد العزم مقدمٌ على غمرات الحـادث المتفاقمِ

هذا هو مالك بن الريب في سيرته . متمرد بدوي نصف وثني . يتمزق بين عالم الجاهلية وعالم الاسلام ، ثم يرتكب خطيئته الكبرى فينضم للعالم الذي يتمرد عليه ويعاقب على ذلك بالموت . فماذا تقول القصيدة ؟

الشعر

رسائل إلى الإمام الشافعي [1]

عبد الوهاب البياتي
– القاهرة –

– ١ –

قوارب الصيد وبرتقالة الشمس على الأمواج
محفورة بالنار
وطائر من ذهب يغمس في الموج جناحيه ويهوي ميتاً عبر
رمال الشاطيء الحمراء
وطرق موحشة للبؤس فيها : مدن تهيم في الليل غراماً ،
ومن الحب نهاراً ترتدي قناع
تستر عريها وتبكي في انتظار الليل والنهار
وقفت في أبوابها ملتاع
قال دليلي : انها مدائن الابداع
فخذ مفاتيحك وافتح كل باب وانتظر في آخر الأبواب

(١) تعتذر «المعرفة» عن الاخطاء المطبعية التي وقعت في قصيدة «مجنون عائشة» للشاعر البياتي في عدد تموز (يوليه). «المعرفة»

ولتغتصب بوردة الحب نهار العالم النائم في الأعماق

ولا تبح بالسر ، فالرياض في « شيراز »

مغسولة باللازورد ودم العشاق

والفجر في أعماقها مختبيء في عتمة الأوراق .

قال دليلي ؛ واختفى بين كنوز مدن تذبل في الشمس

وصوت العاشق الفقير في الصحراء

لكنني عرفت أسماء النجوم ورحيل البحر في قوارب الصيد

وأبجدية الضياع

ولغة المطر

وأربعاء النار والرماد

وصرخة العاشق في وحدته مستنجداً بقوة الأشياء

- ٢ -

قهوت - في شبابه - الجسد

لكنه كان كنهرٍ هائج مأسور

حطم في اندفاعه السدود والجسور

- ٣ -

متيّمٌ قلبي بكل شيءْ

بجسد الوردة ، باللحم الطري الحي

بالموت والبحر وروح الليل

ومعجزات الفجر

- ٤ -

يطن قلبي في قفير النحل

- ٥ -

صرخت في منازل مقفرة دارت بها الرياح
أكلت برتقالة الشمس ، وفي دمي توضأت وصليت
الى الصحراء
عمود نور لاح لي وواحة خضراء
يرتع في قيعانها سرب من الظباء
وعندما فوقت سهمي كي أصيب مقتلاً منها ومن بقية الأشباح
توارت الواحة والظباء في السراب
وارتفع النور الى السماء
واكتنفتني ظلمة وصاح بي صوت من القيعان :
أتيت قبل موعد الوليمة
تنتظر الموت لكي تموت
فعد الى رياض « شيراز » وبوابات مستحيليها
وانتظر المكتوب
وسقطت دمعة انسان من الأفق على وجهي وغطت مشهد الغروب
وكلمات الصانع المجهول .
والتمعت كنوز ليل العالم - النجوم
تكتب أسماء العصافير على لوح من الطين وسنديانة عجوز

تواجه الصحراء والبحر وتبكي كلما مر بها العشاق في أزمنة السقوط
حزنها ، فسقطت أوراقها وغمرت مشارف الصحراء بالرموز :
زخارف وكلمات ودم ونور
تحرث أرضاً سحقت جبينها : مجاعة السنين
والمطر العقيم

- ٦ -

أتيت قبل موعد الوليمة
وبعد أن تفرق الضيوف

- ٧ -

شطرتُ برتقالة الشمس الى نصفين
وهبت نصفها غراب البين
ونصفها الآخر ألقيت به في البحر
فاشتعل البحر ولكن حبيبي لم يعد ، لنجمع النصفين

- ٨ -

قبلتُ شباك « الحسين » وغسلت الحجر الأسود بالدموع
نضوت في مواكب العزاء
طفولتي مستنجداً بقوة الأشياء
بفقراء الأرض
ومعجزات الفجر :
تهدل النور على الرياض في « شيراز »

وفتحت أبوابها ورفرفت فراشة زرقاء
تطير فوق سورها وفوق وجه العاشق الفقير
صحا لكي يتبعها لكنها اختفت وراء السور
تاركة وراءها خيط دم يمتد في خمائل الأصيل
ناديتها : عائشة ! لكنها لم تسمع النداء
ولم تر العاشق في جحيمه يزحف نحو النار
منتظراً في آخر الأبواب

- ٩ -

« وحدثنا تحت » دليلي قال : « فالاسكندر الكبير
غزا بلاد فارس والهند
لكنه لم يجد الينبوع »
فعاد محموماً الى « بابل » كي يموت
أصابه مس من السحر على تخوم هذا العالم المسحور »
قال دليلي وبكى وخضلت لحيته الدموع
وسقطت فوق زهور الأرض
فأصبحت حمراء ، قال : « انها علامة القيامة »
« وشارة الامامة »

الموت في الضفتين

علي الجندي

... سكب التنين في الأنهار والآبار والبحر دموعه ؛
فتوارت أنجم الآلهة الشقراء في نهر الحديقة ...
فاعبري نهر « الشريعة » ؛
ياقناديل الطفولة
وقفي صفّاً على حافة صحن الموت ، صبّي فيه أحزان الرجولة !
وانفضي آخر ما ظل على أجفانك الحمراء من همّ البطولة ...!
... ينبت الأطفال بعد اليوم عن وحل الضفاف ،
قصباً أصفر ، مثقوباً تنوح الريح فيه ...
ويز الدود في ... فقراته الخمس العجاف ...
يولد الاطفال بعد اليوم من غير بطون الأمهات ؛
يتنامون على « الضفة » قطراً ، علقماً ...
ثم يمتدون تحت التربة العاقر في جذر النبات !!

[. . صار النهر طريقاً نحو جحيم الحريّة !
يعبره اللاهث ، والخائف والجائع ،
والعطشان ... المتعب والمطعون من الخلف ...
مياه النهر غدت : دموية ...] .
... كل أطفالك يا أمي انتهوا تحت صريف العجلات ؛
هرسوا تحت جنازير الغد الخادع ... صاروا فضلات !!
كل أبنائك ماتوا دون دفن ،
طحنتهم آلة العصر الذي نحيا على آلائه ...
تتبارى الضبع الموتورة الأنياب في جوعهم ...
فوق جبين الفجر .. لاتنهشهم ، عافت بقاياهم ،
فقد صارت من الهجر على قارعة الأيام ليست مشتهاة !!
والذين التحفوا بالموت .. لم يستشهدوا
روّعهم ويح الرفاة !
شردوا : لاماء ، لاعشب وجاعوا ...
و .. سعير الصلوات ؛
فوقهم نار ، حمام أسود يطرحم بالسم والغربة ،
والهجر . وبالشوك وأقوال من الفولاذ ...
لاماء ، ولاماء ، ولاماء ...
دم محتقن في كل صوب ...
وجحيم يملأ العالم .
نار هاهنا .. نار هناك !

... عبروا نهر الشريعة ،

غرقوا في طينه .. نهر الخديعة !!...

* * *

... كل قنديل نصبناه على مفرق أحزان الهزيمة ،

صار قبل الذبح عذراً ...

عود ملح .. صار صوتاً لجريمة ...

.. كل أطفال صحارى النفي والغربة والتشريد ..

صاروا سمكاً في النهر لايعرف أي الضفتين ،

ستواريه إذا « شب » من الماء فتغدوا مقبره !

فاذا ماهتفت بالبين في عليائها السوداء تلك القبرة ؛

نهضوا من موتهم مستسلمين ،

نهدوا نحو الذرا المستنفرة ،

ليلاقوا حتفهم ثانية في الضفتين !!

... آه ياأمي أبناؤك ضلوا في تجاويف السنين

خرجوا من لجة الماء بلا ستر ولا ... أوراق تين ..

ومضوا .. يرجون لو نسترهم حتى .. كفن ،

(أين من يمنحهم حتى الكفن ؟!

أين من يلقي عليهم شملة ، فضل عباءة ؟!

فيدارون بها خوفهم ، أو جوعهم ، أو ذلهم

والله لايحني سماءه ...

مرة !

من ينحني بالعطف فوق العبرات ؟!...)
... أين من صلى عليهم ، وبكاهم ثم ... مات ؟!

* * *

... هامٌ قدّام عينيّ المغشّاتين بالدمع طيوفٌ،
تحمل التاريخ مبلولاً بماء النهر ، دمع القهر ...
لايقوون - في الليل - على السير .. حفاةً !
يعبرون - الظهرَ - نهر الخوف ، جسر الذل ...
لاصوت لهم ..
بينهم - آه - وبين الضفة الأخرى ... مسافاتٌ
من الذكرى ، من المستقبل الجاري دماً أسودَ ،
من ريح ... الرفاة !..
بينهم - أوف - وبين الرمل والصحراء نهر من
دموع ، وأنين ، ووجوه الأهل : أطفالاً جياعاً
أخواتٌ ..
بينهم موت ... وبين النوم واليقظة ، بين النوم والخوفِ
صراخ فجأة :
وجه عيسى ويهوذا ...
ودموع الأمهات !!

صندوق الدنيا

أيمن أبـــو شعر

ـ صندوق الدنيا يا اطفال
يا اطفال ...
هذا صندوق الأبطال
هذا الصندوق المسحور
يحوي اشياء غريبة
لم تعرفها الجنيات
انظر من هذي الفوهات
سأريك السلطان الأبله
وأريك كلابا تتأله ..
وإلهاً كان جنيناً .. مات
عندي افعى تتلون
وأريك الحاضر والماضي ..

وأريك عوالم لم تتكون ..
ساقص حكايات القرصان ..
ولسان يجلده السجان ..
صندوق الفرجة بالمجان ..
ثمن الرؤية وعد أمان
« لاتخبر عني السلطان » .
هيا اقتربوا بعد دقائق ..
تبدو في الصندوق حقائق ..
حكم نظرك .. وامسك حذرك
ها قد عدنا نحو الماضي ..
« كان .. ياما كان .. » .
هذا الممسوخ النسي
« يدعى « عنترة العبسي » (١)
قد كان يهرج لسلطان ..
كي يلعق اطباق الاعوان ..
كم كان يخاف من الاطفال .
لكن التاريخ المأجور ..
قد سجله بين الابطال .
حكم نظرك .. وامسك حذرك .

---

(١) ليس المقصود باستحضار صورة عنترة الطعن في البطل عنترة نفسه ـ بل نسف مفهوم البطولة التي تتكون عن طريق السلطة ، أيا كانت ...

هذا التاريخ الأحمق ..

يشرب من حبر السلطان

وافهم اشياءً اخرى ..

فالصورة في كل الازمان .

« ولربَّ حمار صار حصان »

انظر من هذي الفوهة

وتأمل هذي الردهة

هذا قصر في بغداد ..

لا في الكوفة ..

او في مكة ..

بل في عُمان ..

لا ادري في اي مكان ..

لكني واثق ..

هذا قصر للسلطان

من هذا المصلوب المهمل ..

الطير تحوم قدامه

والأم تقبل اقدامه ..

آه .. آه .. ابن زبير عبد الله ..

لما يترجل بعد ..

حتى هذي الساعة ..

مصلوب فوق المعول .

ماهذا .. ؟ ..

وشم فوق الكتف اليسرى ..

رسم يشبه شعلة

تحت الشعلة جمرة

تأخذ شكل المنجل

هذا رمز يعني الثورة

ـ لكأني اعرف هذا الفارس .

بل اين! مكان الصلب .

لكني اخشى الحارس .

لو ان رفيقاً يصحبني في الدروب ..

من يحمل هذا الوشم

لايعرف معنى الموت

لكن مصلوب فقد الصوت

خاطوا شفتيه بحبل الصمت .

ماذا يفعل ..

لو كان معي منجل

لو أن رجالا منكم تقبل ..

أن تفعل شيئاً .. ان تعمل ..

لكن ما من احد يقبل ..

حسناً فلنترك هذي الصورة

ولنقنع ان الفارس مات

فالصورة من صنع الفنان

والفنان ...

اعني السلطان

دوماً يختار الألوان .. « كالنعمان » ..

قد يرسم جدول ..

ويسميه الطوفان ..

او يرسم حقل جماجم

ويسمي اللوحة ازهار البستان ..

اما نحن المسطولون

فنصدق ما قال الفنان

ننسى معنى الرسم وندهش بالالوان ..

كم كانت صادقة العنوان ...

تلك اللوحة ..

اذ كانت ترسم طفلا ... يأكله رجلان ..

عنوان اللوحة الانسان ..

حكم نظرك .. وامسك حذرك

هذي ارض الواق الواق ..

لكن العصر غريب

يدعى العصر العملاق .

بين الفينة والفينة ..

تلقى في الأجواء براق .

وكأني اعرف كل الناس .
هذا النهر الدفاق
في وادي النيل
او في الشام ..
لكن الغابة حول النهر تشابه ارض المغرب ..
قل ارض عراق ..
لا تهتموا بالاسماء ..
فالصندوق المسحور ..
يعطيك رموزاً للأشياء ..
فاكشف اين الداء ..
احبس نفسك ..
وامسك حذرك
واجعل صوتك همسك ..
هذا عصر الذبح
في كل جبين نلقى جرح
هذا عصر فيه تراق .
دماء الصدق مع الأخلاق .
عصر فيه يروج المكر
عصر فيه يباع الفكر
ارخص شيء في الأسواق ..
فهواء الناس من الأفيون

ورغيف الذل طعام الحر ... الأعراض تقدم زلفى
والشارع منفى ..
والمنزل منفى
والمصنع منفى .. والأقبية سجون
هذا عصر جنون .. هذا عصر جنون ..
... مهلاً ... فلنقرأ هذا الاعلان
« فكر .. دبر .. واسرح وامرح .. واكذب تربح .. وامكر
واجرح .. واقتل واقبر »
هذا اعلان حضاره ...
حسناً فلنترك هذا الاعلان ..
ولندخل قصر السلطان ...
عجباً ... كل الموجودين بهذي القاعة فوق العرش
لا تبحث أيهم السلطان
إذ توجد عشرات التيجان
ها قد عقدوا امراً ما
يبدو ان الامر خطير ..
قد يسمع صوت نفير
.... آه .. قطع الصندوق الارسال .
« احياناً يخشى الصندوق الأطفال ! .
لا تحتجوا ... ها قد صلح الأمر ..
إذ يبدو أن الصورة كانت مر .

... ما هذا .. جرحى .. موتى ...
عربات تحمل خوذات ونعال .
أكياس طحين للاطفال .
ودموع تذرفها الآمال .
حدق نظرك
تبدو سكين في ظهر الماره ..
ودم حار
ودم بارد ...
في الأمر خداع ...
لو أدري من فيهم خان
.... فلأخفض صوتي ...
فجزاء الصادق قطع لسان
والتاريخ مع السلطان
والسلطان له أعوان .
والاعوان لهم جيران
والجيران لهم جدران ... والجدران لها آذان ...
لا ... لا ... لن أخفض صوتي بعد الآن
فأنا ادري يا صندوق الفرجة
أن الحق الدامي حبل يلوى فوق العنق
وبأن مصيري الشنق
يا أطفال ..

في جعبة صندوقي مخزن .

فيها رشاش وقنابل ..

وانا ماض لاقاتل

فخذوا الصندوق .

هذه الفوهات مشاعل

تحت الفوهات مشاتل

يا اطفال .

أقسى رمم في صندوق الفرجة

جسمي يتأرجح .. وسط الموجة .

١٩٧٠/٧/٥م

يا دمًا لا ليمسي

نزيه أبو عفش

عند باب الجوامع خلّفتني ياحبيبي
بين وحل الدعاءات والأوجه المثخنةْ
اتقلّصُ في خَدَرِ الليل او انكفي ميّتاً في الحواري
جسدي في التراب ، وروحي
رايةٌ تتشقق في غلظة المئذنةْ
واسلّم امري :
« الضنى كان من قسمتي ونصيبي ! »

* * *

وتسقّطتُ موتك في وجع الطيبين
في الأذان العييّ وفي عثرات السكاري
قلتُ : لاتنسني ياحبيبي .. الفصولُ انطفتْ
فرحُ القول صفّى على الأرض .. لاتنسني ياحبيبي

فلقد كان حلواً عبورك لوخطوت في الحواري الشجون
ولقد كان .. والخوف يأتي مع النائحات .. ويأتي
شاخصاً في عيون السكارى
في النحيب الذي يتواصلُ
في الأوف ، او في نزيف العتابا
انا في الخوف لاسندٌ لي سواكَ
في المفاصل لاسندٌ لي سواكَ
كيف خلّيتني ؟!
العمر يؤتي مسرّاته مرةً ويروحُ
ويقيم على العتبات الضنى : كيف خليتني ..
والنواطير نومٌ على صهوات المنابر : خليتني
ويقيم على العتبات النزوحُ !! ..

. . .

المآذن نوّاحةٌ والرياح شمولٌ
وانا قاعدٌ
بين عينيكَ ازجي خطى النائحاتِ
واهتزّ في عثرات السكارى
ويطول البكا :
« ويلْ ياويلتي انْ خبرّوني
ويل من عامك ع القـاوة
العمر صار كذبه وتراني
انطر اليطلعوا واليجوا ..

واليخاون إسمن على بواب داري ! ..
طيّروا ؛ الاسم صفّى على الباب زينه وتراني
صار همي ان رمح طير اصيح . هلابك .. هلا
لوخبر من طرفهم يجيني
ويل ياويلتي ... وخبروني »

* * *

المآذن نوّاحة والهوى يستحيل .
وانا راقد بين عينيك ، اسماء عينيك ،
ازجي خطى النائحات واعثر في خطوات السكارى.
ويطول البكا :
« ويل ياويلتي .. خبروني ! .. »
وانا راقد .. والهوى يستحيل !

* * *

عند باب الحوانيت خلفتني ياحبيبي
آه امي بكت ..
آه ما كان اقسى ، على الخوف ، الا تكون
بيننا ! ..
كان صوت المنادي يجرّح :
« ياحسرتا كل احبابنا هجرونا ».
وحدنا لاتحب لنا ضحكة ؟ .
فرح الشامتين يبيت .. وخلفتني ياحبيبي

او خاويتني في الزنا ؟ .. او كان الذي (؟؟)
(انت ماقلت لي)
وانا عارف
عند باب الحوانيت خلفتني ، عند باب الجوامع
في الخوف خلفتني في المقاصل
خلفتني وانثنيت !! ..
ربما كبرت تحتي الأرض
اوصغرت تحتي الأرض
اوربما حاصرتني الزمانات في ضيقها وانطفيت

* * *

عندباب الجوامع خلفتني ياحسين
يادماً ناشفاً .. يادماً ساخناً
يادماً لا يُسمّى ! ..
ياوجوهاً معفرة لاتسمّى
ياقطيعاً من الناس يكبر في الموت .. يا كلنا
عند باب الحوانيت خلّفتني ياحسين
وانا واقف لأراك
في الرؤوس التي تتدهور .. في السيف ..
او في الحبال التي لاتجف
في النحيب الذي لايكف
في الرواسي التي تتقهقر مدحورة او تخف

في دعاءاتنا ياحسين
يادماً لايسمى !! ..

* * *

قل : هذي الأرضُ ثمرْ
يؤتى في الصيف نحيباً ينشفُ قبل يحين الصلبْ
قل : هذي ارضٌ تزني
ارضٌ فاسدة القلبْ
قل : هذي الأرض ـ الجبّانة لا يطلع فيها الحب
قل : هذي الأرض محدّدةْ
قل : هذي الأمم المرتدّةْ
أو .. قل : هذي الأرض حجرْ
لا يُرجى في زمن الشدّةْ
. . . .
« قل : هذي الأرض ثمرْ »

*

« أليلة جاءتنا الأخبارْ »

. . . .

ألصيف على البابْ
ثانيةٌ ، ثالثةٌ ، يتقهقر محنيّ الظهرْ
ينزفُ ، لا يتكلمُ ..
نصرفه بشظايا من خبز الأمسْ

شدّ على كفٍ من عشب وتراب
أما نحن فصلّينا
وبكينا وقت تذكرنا الأحباب
ألصيف على الباب
خامسةٌ، عاشرةٌ، .. والأرض انزاحت
كلٌ صار يكشّ النوم
يعدّ تخوم الأرض الأخرى
ولأن الصيف يجيء بغير القيظ وغير صدور النسوان
أقفلنا في وجه الصيف الباب وقلنا :
هذا صيفٌ كذّابٌ !..

●

« ألليلة جاءتنا اخبارٌ أخرى »
...
في الحوانيت ماءٌ
في الخوابي التي تتخبأ .. ماءٌ
في بطون الرواحل .. في الرمل
تحت الأسرّة ماءٌ
والمدائن عطشى !
لو نموت تهونُ ..
لرُبّ اغتسلنا مع الميتين بدمعٍ وماءٌ

●

هذا سيفي يا أمة .. هذا نيشاني

هذي اوجاع الصيك وهذا حر الصيف

يا أمة يامطعونة .. يا أرضاً تصغر في الصيف

تكبر في الصيف

خبزك ما اشبعني ..

ماؤك مر .. وهواك وباء

لكن .. آه لو ليلك غطاني

لو قلبك حن علي وأعطاني

كنت ، على علة وجهي ، اجتزت الصحراء

آثار الجروح

شوقي بغدادي

لكم كنت أحبها !. كان حبي لها نوعاً من الجنون . وكانت تعذبني باستمرار . وكم من مرة تركتها حانقاً ، مقسماً ألا أعود اليها ، ثم تخاذلت فعدت اليها من جديد ، مستسلماً . وكانت ذكية ، مدركة ضعفي ازاءها ، فكانت تستقبلني على أثر كل خصومة بابتسامة استعلاء ساخرة دون أن تغفل عن عاملي بكثير من الحفاوة ، كأن شيئاً لم يكدر صفو العلاقة التي تربط مابيننا . وكنت أشكر لها في سري هذا التسامح ، وأعتبره دليلاً على المحبة ، فأقبل عليها أكثر حماسة من ذي قبل أبدي من ضروب التعلق والهيام ما يدور له رأس أعصى امرأة في الدنيا ، الا هي ، فقد كانت تبقى على عادتها من اللامبالاة الممزوجة بنوع من الخبث النسائي اللطيف ، مما يزيدني شعوراً بضعفي وقوتها ، ويدفعني أكثر فأكثر الى محاولة السيطرة عليها ، وجرها الى المكان الذي أقف فيه حيالها . وعندئذ.. ماذا عساني صانع بها . كنت أتساءل كثيراً في نفسي عندما أصل الى هـذه المرحلة من التفكير المحموم ، هل أنا احبها حقاً ، أم أنني أكرهها . وهل أفسر جميع مايثيرني بالنسبة لها أنه دليل على الحب ، أم أنه نوع من الرغبة المقنعة لاسترداد كرامة مسلوبة ممرغة . بل أستطيع أن أذهب ، أذهب أبعد في تحليل مشاعري الممزقة هذه اذ أتذكر التصورات التي كنت أزينها لنفسي في ساعات الحسرة والألم أنه يجب أن أنتقم منها ذات يوم انتقاماً كبيراً يعوض عن جميع الآلام التي سببتها لي ، وأن أفظع انتقام يمكن أن يصنعه رجل ازاء امرأة هو أن يتملك قلبها تملكاً خالصاً تاماً ، وعندئذ يطعنها في الصميم ، اذ يهجرها ،

أو يخونها علناً ، أو يمارس معها علاقة حافلة بضروب الاستهتار ، والسخرية ، واللامبالاة أو بكلمة واحدة ، أن أصنع بها مثل ما تصنع بي منذ سنين . كنت أنتظر هذا اليوم بكثير من التجلد والتصميم ، فأرسم له الخطط والمشاريع الا أنه كان علي أولاً أن أكسب جولتي الأولى من هذه المعركة ، فأجعلها تتعلق بي تعلقاً حقيقياً عميقاً . أن تحبني فعلاً حباً يدفعها مثلا الى البكاء حين أوجه لها كلمة نابية ، أو الى الغيرة حين أروي لها حكاية لي مع النساء . ولكن .. لكم كان صعباً أن أثير في نفسها المنيعة مثل هذه المشاعر. كنت أهينها أحياناً بكلمات لاذعة لو ألقيت على امرأة غيرها ، اذن لسفحت أنهاراً من الدموع ، أما هي ، فقد كانت تخلد الى الصمت المتكبر وهي تتشاغل بتفاهات تختلقها هنا وهناك دون أن تعبأ بازدراء علي ، أو بالنظر الى وجهي ، فاذا تكلمت أخيراً لم أسمع منها سوى هذا السؤال البارد : « هل انتهيت من حديثك ؟ » أو تتوجه لي بهذا الطلب الساخر : « أخبرني متى تفرغ من شتائمك ، فان لي معك حديثاً آخر .. » ويظل وجهها البيضاوي الجميل محافظاً على استعلائه وجلاله دون أن يتغير لونه ، فكنت أثار أكثر ، أو أخلد الى السكون فجأة ، فتقترب مني تمسح على شعري بهدوء ، محدثة إياي فعلا في موضوع آخر ، فأكاد أنهار تحت ملامستها راكعاً على الأرض ، معتذراً ، لولا بقية من مقاومة أتسلح بها لمثل هذه اللحظات من الضعف البالغ . أما الغيرة ، فيبدو أنها لم تعرفها البتة . آه من قلبها الجليدي . لكم من مرة تعمدت أن اثيرها بقصة مختلقة عن امرأة جميلة قابلتها او حاولت اغرائي . فكانت تهتم بسماع القصة اهتماماً حقيقياً لا بدافع من الغيرة حتماً ، ذلك أنها كانت تضحك في مواضع الاضحاك ضحكاً صافياً ولا تجد تعليقاً ترد به على ثرثرتي الا بهذه الجملة التي تقولها عادة لكل شخص متفاخر : «أنت رجل محظوظ.» بالرغم من كل هذا فلم يكن في استطاعتي أن اقول انها لم تكن تحبني ، ففي ساعات الحب كانت تبدو رائعة في استسلامها المطلق ، حتى ليبدو أن كل خلية في جسدها كانت تريد المشاركة وأنها بجميع مسام بشرتها الناعمة تريد أن تمتص من رحيق النشوة الكبرى التي يمنحها وصال حقيقي بين رجل وامرأة .

كانت تتميز بوجه جميل حقاً ، ولكن أجمل ما فيه شفتاها المكتنزتان ، المنفرجتان دائماً استعداداً لقبلة محتملة ، والمساوان الى درجة اللمعان كأن سائلا داخلياً كان يرطبها باستمرار فلا يملك الرجال حين يقابلونها من أن يتلمظوا بشكل لاشعوري ، وهم يبتلعون ريقهم ، وعيناها .. يا لتلك العينين اللتين لايستطيع أي رجل مهما بلغت عفته ألا يحدق فيها وهو يحسب أن صاحبة العينين تخصه بنظرة ذات معنى . كانتا عينين سوداوين واسعتين ككل العيون ، ولكنها كانتا تتميزان دائماً بهذه النظرة الخاصة التي تحرض

الرجال ، وتثير مكامن الشهوة في أعماقهم حتى لتدفعهم فوراً الى الاعتقاد بجدوى المحاولة مع صاحبتها ، ومع ذلك فقد كانت دائماً قادرة أن تضع حداً لمحاولات المغامرين ، فينقلب الرجل الجسور في ثوان الى رجل عاقل ، متردد ، حتى ليحار فيها المتأمل ، أهي مومس ، أم امرأة شريفة حقاً . وأنا .. حتى أنا .. عشيقها ، والرجل الذي يعاشرها منذ زمن طويل ، كانت تأخذني أحياناً أفكار من هذا النوع . أهي امرأة لجميع الرجال ، أم لرجل واحد . كان يخيل لي أنها تخونني ، وأن استخفافها بي أحياناً ليس مرده الا الى أن لي حياتها رجالاً آخرين،أقدر على ارواء عطشها . ولكننا اذا اخذنا الامور بقرائنها الثابتة لم تدع لي ابداً الفرصة للتأكد من هذا الشعور . كانت حاضرة دائماً لكل متعة مشتركة ، حفية بي أبداً كلما أردت الاحتفاء ، ولكن هذا الشعور الخفي أنها امرأة ذات حياة خاصة بعيدة المنال لم يفارقني أبداً . ولعله كان السبب الأساسي في جميع الخصومات التي كانت تنشب بيننا . وكان جسدها من ذلك النوع الذي مها جهدت صاحبته في اخفاء ملامح انوثته تحت الثياب الفضفاضة ، فقد كان قادراً على أن يعلن عن نفسه في حركة مفاجئة مثيرة تدفع الرجل فوراً الى ترك كل شيء ، وتركيز بصره على جسدها ، أو على ذلك الموضع الخاص الذي برز من جسدها . وكم من مرة وأنا أهم بمغادرتها بعد ليلة حافلة، التفت اليها ، فرأيتها تنحني لتناول حاجة ما ، فيبرز واضحاً هذا الخط الرائع الذي يميز انهدام خصرها ، واستدارة وركيها ، فأسارع اليها وقد تهيجت من جديد ، فألقيها أرضاً ، واضاجعها كمن يغتصب امرأة اغتصاباً . وما كانت لتتأفف من هذا ابداً ، بل كانت قادرة على ارسال بعض الضحكات الخاطفة المثيرة وهي تبادلني رغبتي بدعابة امرأة لعوب لاتمل من ممارسة الحب .

كنت أحبها بجنون ، ولكنها كانت على ذلك تعذبني بكبريائها واستخفافها . كنت أقول لها أحياناً : هل تحبينني حقاً ؟ فتضحك دون أن تعبأ بالرد في حينه ، فاذا حاصرتها اكتفت بقولها : « أنت رجل أناني تفتش باستمرار عمن يحبك ، أكثر مما تفتش عمن تحب..» . لم أسمع منها أبداً اعترافاً بالحب إلا في ساعات النشوة القصوى . في تلك اللحظات كانت تسمح لنفسها أن تهمس بوله المرأة المأخوذة : « أحبك .. أحبك .. » غير أنني لم أكن أقيم وزناً كبيراً لمثل هذا الاعتراف المنتزع في مثل تلك اللحظات . إذا كان الجنس فقط هو الذي يربط مابيننا فهي إذن لاتحبني . ولكن أي رجل آخر اذن كان في استطاعته أن يقوم بدوري ، فلماذا تختارني أنا بالذات ، ومع ذلك ، فلماذا اذا تغيبت عنها أياماً ، لم تحاول الاتصال بي ، ولا الاستفسار عن سبب تغيبي حين نلتقي ، كأنها تمنحني الحب منحة مؤقتة ، وفي ساعات محددة ، وأن ماتبقى من الوقت ، فهو ملك لها وحدها

لاتعبأ أبداً أن تشرك انساناً آخر فيه ، وكان حضوري الجسدي وحده هو الحافز الوحيد لها كي تهتم بي ، فاذا غبت عن عينيها ، غربت من قلبها كأن لاوجود لي على الاطلاق . قلت لها ألف مرة : « أنا لاأريد جسدك فقط . أريد روحك أيضاً ! » فكانت تجيب : « أنت رجل طماع جداً » .. فأقول : « ولكن احب امتلاك تام .. أليس كذلك ؟ » فتجيبني بهذا المنطق : « ان الرجل الذي يمتلك جسد امرأة ، فانه بالضرورة يمتلك روحها » وكان يبدو علي الاقتناع حيناً ، فأشاركها وجهة نظرها ، ونبدو عندئذ متفاهمين كل التفاهم إلا أنني كثيراً مارفضت هذا الاقتناع ، فكان النقاش البسيط بيننا يتحول الى مشادة كلامية مشحونة بالاتهام ، والتحدي ، حتى ليصل الأمر الى حد التهديد والوعيد ، فالمهاترة والانفصال لعدة أيام .

إلا ان الأمور تفاقمت في المدة الأخيرة الى حد خطير ، فقد تفوهت ذات مرة بعبارة اعتبرتها مساً بالغاً بكرامتي ، وفي تلك اللحظة فكرت في ضربها ضرباً مبرحاً ، وفي هجرها الى الأبد . وفي تلك الأثناء تضخمت فكرة الانتقام في نفسي الى حد دفعني إلى التفكير جدياً في الاعتداء عليها ، وإيذائها . ثم أفكر كثيراً في قتلها ، فقد كانت فكرة القتل غير كافية للتشفي الصحيح منها . ولما تبين لي عجزي المطلق عن السيطرة عليها سيطرة تامة ، والانتقام منها فيما بعد حسب الخطط الذي كنت أرسمه لنفسي ، بدأت أفكار أخرى عدوانية تراودني : لماذا لاأشطب وجهها الجميل بسكين قاطعة ، فأشوه ذلك الوجه الرائع الى الابد . ماذا سيحدث عندئذ . هل تشكوني الى رجال الأمن . ليكن ذلك . سيكون في هذا فضيحتها التامة ، والمزيد من ايذائها ، انها امرأة متكتمة لن تلجأ أبداً لمثل هذا الأسلوب المفضوح . وهكذا بدوت مقتنعاً بهذه الفكرة الجهنمية ، فاشتريت بالفعل سكيناً ماضية ، واريتها اياها ، مصرحاً بالنية التي دفعتني الى اقتنائها . فما كان منها الا أن اخذت السكين بين يديها وراحت تمر بأصبعها البض على نصلها اللامع وهي تبتسم ابتسامة عجيبة ، ثم ردتها لي بكل هدوء قائلة : « اذن لقد قررت ان تصبح مجرماً .. » فقلت لها منفعلاً : — « لن اقتلك .. لأن القتل لن يعذبك .. سأشوهك فقط واتركك تعيشين من بعدي كي تتحسسي باستمرار هذا التشويه الذي لن يسعك اخفاء بشاعته ولا مداواة عذابه الأبدي ..» فنظرت إلي نظرة ثابتة دون ان يخونها هدوؤها ، وهذا البريق الخفي في عينيها ، الموحي أبداً بعدم الاكتراث ثم قالت :

— ولكنك لن تنجح في ذلك ..

فقلت لها على الفور وقد أثارني تحديها :

- سوف ترين . ليس عليك الا ان تغضبيني ذات يوم ، وسوف ترين عندئذ العاقبة.

فقالت :

- ولكني اغضبك الآن ، واتحداك ان تستخدم هذه السكين لضربي وتشويهي، كما تقول .

فقلت :

- ولكنه غضب مفتعل الآن . يجب ان يكون مقتنعاً به حقاً . يجب ان اكون في حالة غضب حقيقي ، وعندئذ لن اتورع عن استخدام هذه السكين .. »

كانت السكين مشهرة في يدي، أقلبها ، أنظر اليها تارة ، والى المرأة التي أحبها تارة أخرى ، وقد بدأت أشعر انني اكثر قوة مما مضى ، وان كان الموقف قد بدا مشحوناً بعواطف مختلفة لا تخلو من هذا الإحساس بالسخافة حين يبدو العمل الذي نقبل عليه غير منسجم مع الوضع الذي نحن فيه . ولكن هذا الوضع بدأ يتطور شيئاً فشيئاً انسجاماً مع العمل ، كأن فكرة العمل نفسه كانت تملك وحدها القوة الكافية لخلق الوضع المناسب .

قلت لها :

- هل أنت خائفة الآن ؟

فنفخت من بين شفتيها نفخة تدل على الاستخفاف المطلق ثم قالت :

- خائفة .. ومن أنت حتى أخاف منك !.

فقلت لها :

- اذا لم أكن مخلوقاً ذا قيمة حتى تخافي مني ، ولكني رجل مجنون بحبك .والجنون يمكن ان يصنع أية حماقة ..

فقالت على الفور وقد وضعت ساقاً على ساق وأخذت لفافة راحت تشعلها :

- ولكنك لست مجنوناً الى هذا الحد .. أنت عاقل الى الدرجة الكافية التي تمنعك من هذا التصرف ..

فقلت لها وقد بدت لي لعبة الحوار التي نلعبها مثيرة :

- تقصدين لست شجاعاً الى هذا الحد ؟ ان التعقل أحياناً نوع من الجبن ..

فامتصت من لفافتها ، ونفخت الدخان بأناقة ، ثم قالت ساخرة :

- تستطيع أن تسمي الأشياء التسمية التي تحب .. ولكنني أقول لك

يكفي .. إطرح هذه السكين جانباً ، ودعك من هذا الحديث ، فأنت لم تخلق لمثل هذه الأمور ..

فقلت لها وقد بدأت أنفعل أكثر فأكثر :

– أرأيت ؟! إنك واثقة من ضعفي إلى درجة مذهلة ، لاتصدقين أبداً أنني رجل قادر على أن أتصرف كالأقوياء من الرجال . إنك واثقة من نفسك الى درجة مزعجة ..

فقالت رافعة صوتها :

– أوف .. إنك تزعجني .. أليس عندك للحديث غير هذه السخافات ..

لم تكن كلماتها بالضبط ماكان يثيرني ويرفع من درجة إنفعالي ، وانما هي هذه الثقة التامة التي كانت تغلف الكلمات بغطاء مطاطي غير انساني . كان ثمة كلمات أخرى يمكن ان تقال ، ومشاعر أخرى يمكن ان تخلق ، وتصرفات معينة يمكن ان يقوم بها الانسان كي يبدو فعلاً أنه إنسان طبيعي كسائر البشر . أما هذه المرأة فقد كان ثمة قناع من المطاط الأملس البارد يغلف وجهها وجسدها وكلماتها حتى لتبدو أنها غير قابلة للتأثر والانفعال كغيرها من البشر . وفجأة شعرت أنني أكرهها إلى درجة الحقد ، وأن احتقارها لي لايطاق حقاً . وتخيلت شفرة السكين على وجهها ، والدم الذي سوف يتفجر من الجرح منظراً مثيراً جديراً بها . وعندما حاولت استئناف الحوار الذي انقطع ، أدارت وجهها غير عابئة بالنظر إلي . كنت أتكلم وحدي وأنا أنظر إلى صفحة خدها الأيمن تواجهني بيضاء ملساء . كنت أحدثها عن حبي ، وحياتي التي ضاعت ، وهمومي ، وهواجسي التي لاتشاركني إياها ، وآمالي الكبيرة التي تبددت ، ومعاملتها الفظة التي تجابهني بها . لاأدري إذا كانت تصغي وهي في جلستها التي لم تتغير ، سوى من نظرة عابرة كانت تسترقها الى وجهي بين الفينة والأخرى من غير اكتراث كبير ، ثم ثم تدير وجهها من جديد ، فلا أعود أرى سوى صفحة خدها العاجي الأسيل ، وأنا أتكلم ، وأصغي الى نفسي ، كمن يسمع شخصاً آخر . لا أذكر الوقت الذي مر . ولا كل الذي قلت . لا أتذكر إلا صفحة ذلك الخد الناعم ، وبياض تلك البشرة الذي كان يتألق في ضوء الغرفة الخافت ، والسكين في يدي ماتزال مشهرة تتقلب ، وأنا أتكلم ، وأشعر أنني إنسان مفجوع ، مظلوم الى اقصى ماتتصوره عقول البشر ، وأن هذه المرأة ماتزال بعيدة المنال ، وأن السكين ماضية حقاً ، وان لحم وجهها طري غض الى درجة

عجيبة .. وانفتح جرح ، وتدفق الدم ببساطة ، وارتفعت شهقة استغراب أكثر منها صرخة ألم ، ولم انظر خلفي ، تركت المرأة والسكين ، والبيت ، وكل شيء ، وخرجت الى الشارع . لم يكن في ذهني غير صورة اللحم البض الذي انشق بطراوة مذهلة تحت شطبة السكين ، وذلك السائل الأحمر الناري الذي تدفق بغزارة ، وهذه السهولة الغريبة التي تم بها كل شيء .

لم يكن الخوف ما أحسسته في تلك اللحظات . كنت مازلت كالمأخوذ بسحر العمل الرهيب الذي وجدت الجرأة على القيام به ، ولكنني عندما أويت إلى فراشي ، وجدتني أرتعش بعنف بالرغم من الأغطية السميكة التي تدثرت بها . كنت أفكر الآن في مضاعفات الموقف . ماذا سيحدث غداً . هل يدق رجال الأمن بابي . هل أعترف بالجريمة . يجب أن اعترف اذا أردت تحديها الى النهاية ، والمحافظة على اعتباري الجديد لديها . ولكنني اذا اعترفت ، خسرت عملي ، وسمعتي ، وحشرت في السجن أعواماً . ولو أنكرت ، فلن يكون في مقدوري ذلك . جميع الناس عارفون بعلاقتي بها . سيفضحني صوتي ، ولون وجهي ، ونظراتي ، والسكين . بلى .. السكين التي تعرف من أين اشتريتها ، والتي تركتها في مكان الجريمة وآثار يدي مطبوعة عليها .

لم أنم نوماً حقيقياً في تلك الليلة ، إلا من فترات متقطعة كانت تهاجمني فيها الكوابيس ، فأنتفض مذعوراً ، لاهثاً ، كي استأنف تفكيري المزعزع . سوف أذهب اليها صباحاً معتذراً ، مستميحاً الغفران ، وسوف تدرك انني لم أصنع كل هذا إلا بسبب حبي الجنوني لها ، وسوف تصفح ، وكم من مرة نهضت في الليل من فراشي كي ارتدي ثيابي ، وأمضي اليها على الفور ، ثم اتراجع ، وأدفن نفسي في الفراش من جديد . وعندما بزغ نور الفجر كنت صاحياً تماماً أصغي الى اصوات الدنيا البعيدة التي تستيقظ . ها أنذا قد ضعت أخيراً . رجل مقهور ، مغلوب على أمره ، دفعته الحماقة الى ارتكاب عمل سخيف لامبرر له . يجب ان أدفع الثمن الآن مهما كان . انا الذي اخترت ، وانا الذي نفذت وانا الذي يجب ان احمل العبء وحدي . وهكذا بدأت أستمد من استسلامي لمصيري القدرة على التجلد ، فأنهض كي أمارس أعمال الصباح العادية استعداداً للخروج ، وفجأة سمعت رنيناً . ظننته جرس الباب أول الأمر ، فانهار قلبي . آه .. لا أدري لماذا خفت كثيراً في تلك اللحظة ، ثم تبينت بعدها أن الرنين صادر عن الهاتف . ولكن من الذي يهتم بمخابرتي في هذا الصباح الباكر . ان رجال الأمن لايخابرون هاتفياً لمثل هذه الأمور . إنهم يقرعون الباب بأنفسهم ، ويسوقون الانسان مخفوراً الى التحقيق . هل تكون هي ؟. كانت هي بالفعل – فأنا أعرف صوتها

«العذب كل المعرفة - تدعوني ان أحضر اليها على الفور . ولكن كيف . ولماذا ، لأمر « هام » سأحدثك عن التفاصيل حين تحضر . لاتخف ياحبيب . إحضر فوراً ... وعلقت السماعة وانقطع الصوت . هل كنت أحلم ، هل هي مؤامرة مدبرة كي تضمن وجودي في الدار . يجب ان أخرج بسرعة الآن ، ولكن نبرة صوتها كانت منفعلةصادقة ولم تكن بحاجة لهذه الخدعة فهي تعرف جيداً أنه لامفر لي من متابعة حياتي اليومية بالرغم من كل ماحدث ، كما كان سهلاً عليها في الليل ان تصنع ذلك . إنها تطلبني اليها لأنها بحاجة إلي . وتذكرت انها هي المرة الأولى التي تخابرني بها بمثل هذه الحرارة كي أوافيها على الفور . هذه ليست خدعة أبداً . انها ملهوفة محتاجة لي ، ويجب ان اكون شهماً فلا أتهرب من مسؤوليتي .

تخلصت من ارتداء ملابسي بسرعة ، واندفعت الى الطريق . كان الوقت مبكراً جداً وما يزال ثمة فسحة طويلة تفصلني عن موعد العمل اليومي . لم يكن في الشوارع إلا نفر قليل من العمال المبكرين . كنت أمشي بخطوات سريعة وأنا أفتش عن سيارة أجرة عابرة ، ولما يئست من ذلك بدأت أحث الخطى أكثر فأكثر حتى تحول سيري الى نوع من الركض . لم يكن بيتها قريباً ، وكان علي ان أقطع المسافة بأقل وقت ممكن . وهكذا اجتزت الشوارع الخالية راكضاً ، وما كدت أصل حتى شعرت انني الهث بشكل واضح ، كان باب دارها الخارجي مفتوحاً فسارعت الى الدخول دون ان أفكر كثيراً في السبب . كان ثمة حديقة صغيرة تفصل الباب الخارجي عن المدخل ، فاجتزتها عدواً ، وصعدت الدرجات القليلة بوثبه واحدة . كان الباب الداخلي مفتوحاً ايضاً على مصراعيه ، فاجتزت المدخل كالسهم الى الصالة الكبيرة وهناك رأيتها واقفة في انتظاري بثياب النوم . اندفعت نحوها ، واندفعت بدورها نحوي مفتوحة الذراعين . وتعانقنا . لم ألاحظ شيئاً غير عادي وانا في غمرة دهشتي . انها تستقبلني لأول مرة في حياتنا المشتركة بهذا الشكل . كنت سعيداً مأخوذاً . بدأت أسمع صوت نشيجها على كتفي وهي ماتزال ملتصقة بي . فأبعدتها عني بلطف ، ونظرت الى وجهها . وعندئذ فقط لاحظت ذلك الشيء الغريب ، كان وجهها صافياً ، لامعاً ، مبللاً بالدموع ، ولم يكن ثمة أثر للجرح الذي فتحته ليلة أمس في وجنتها اليمنى . كان أمراً لايصدق . ولابد انها لاحظت استغرابي ، فقالت بلهجة حانية :

إنك تفتش عن أثر الجرح . لن تجـــد شيئاً ، أنت لم تجرحني ياعزيزي .. أنت واهم ..

لم يكن كلامها معقولاً . لقد كانت السكين في يدي ، ولقد رأيت الدم بعيني ، سحبتها من يدها الى مكان مواجه للنور ، ثم شرعت أحدق في صفحة الخد الذي طعنت أمس . كانت صفحة بيضاء ، نقية كعهدي بها ، لاجرح مفتوح ، ولا ندب مرسوم ، ومع هذا فقد كان هو المكان الذي جربت فيه سكيني لأول مرة . هل كنت واهماً حقاً كما تقول ، وإلا فأية معجزة تلك التي حدثت حتى اندمل الجرح وزالت آثاره بمثل هذه السرعة ، قلت لها وقد استلقيت على مقعد قريب ، منهوكاً من الإعياء ، والدهشة :

– ولكن هذا لايصدق . لقد تفجر الدم . رأيته بعيني . لابد انك ساحرة ، او انني مجنون حقاً ..

فركعت الى جواري ، ووضعت رأسها بوداعة على ركبتي وهي تهمس بحنان :

– الدم .. هل اخافك منظر الدم . إنه منظر طبيعي ياعزيزي تراه في كل مكان .. بلى .. لقد طعنتني بالسكين في وجهي ، ولكنك لم تصبني . إن جروحي تندمل بسرعة خارقة ولاتترك وراءها ندوباً ..

كنت مستلقياً على المقعد مرخي الذراعين وأنا أصغي إلى كلامها فلا أفهم شيئاً وأنظر إلى شعرها المرسل الناعم وإلى وجهها الذي كان يشع بصفاء عجيب فأتصور أنني في عالم مسحور . كان يجب أن أقتنع وإلا حكمت على نفسي بالجنون . وهكذا مددت يدي أمسح على شعرها ، ثم احتوايتها ذراعي ، وأمكث طوال النهار بين أحضانها لاأفكر بشيء سوى انني احبها وأنها تحبني حقاً ؛ وإن اي عمل آخر جدير بالاهتمام كالبقاء إلى جوارها . مكثت إلى جوارها حتى ساعة متقدمة من الليل ، وعندما اردت مغادرتها تشبثت بي ودعتني الى المبيت في دارها . كان اغراء لايقاوم ، فهي توجه لي هذه الدعوة لأول مرة في حياتها ، فهل وصلت اذن أخيراً الى أن اجعلها تحبني فعلا ، وان امتلكها حقاً كما هي تمتلكني . قالت لي : « لاداعي للذهاب . يمكنك أن ترقد هنا وان تذهب الى عملك غداً صباحاً فتخترع لهم بعض الأعذار عن تغيب هذا النهار . أليس رائعاً أن ننام الواحد الى جنب الآخر حتى الفجر .. كان هذا رائعاً حقاً . ولكن .. لماذا يحدث الآن فقط . انها امرأة اذن تحب القسوة ولا تهوى من الرجال الا الذين يضربونها ، ويسيلون دمها . وعند الصباح ، وانا اهم بمغادرة الدار نظرت اليها مودعاً كانت واقفة في باب المدخل المفتوح ، وضوء النهار الطالع يغمرها ، وبالرغم من ابتسامة الحلوة التي كانت تضيء وجهها . فقد لاحظت ان ثمة تجاعيد باهتة حقاً ، ولكنها واضحة تحيط

بعينيها . كنت ارى هذا المنظر لأول مرة . فمنذ قديم الزمن لم الحظ اي علامة من علامات الهرم في وجهها النضر . وعندما كنت اسألها احياناً عن عمرها كانت تتهرب دائماً من الإجابة باستخفافها المعهود ، او تجيب هازئة : « انا امرأة لاأهرم ياعزيزي . الايكفي ان تراني شابة فتية على الدوام . فماذا يهمك من عمري . » وكنت اكتفي عادة بهذا الجواب ولا اعود الى هذا الموضوع الا بعد فترة طويلة . اما في ذلك الصباح ، فقد تلبثت فترة احدق في التجاعيدالتي لاحت لي وقد عاودتني من جديد فكرة العمر ، غير انني لم اعبأ هذه المرة بالسؤال ، مقنعاً نفسي انني ارى تجاعيدها لأول مرة لابسبب الهرم، وانما بسبب ضوء الصباح الباهر الذي اراها فيه لأول مرة بعد ليلة لم نتم فيها الا قليلاً .

لم يسألني أحد في عملي عن تغيبي أمس . حتى زملائي الذين اعرف فيهم الفضول بدا عليهم عدم الاكتراث ، وراحوا يعاملونني كأنني كنت حاضراً بالأمس . وعندما سألت أحدهم عما حدث في غيابي وهل سأل الرئيس عني رفع رأسه الي باستغراب وهو يقول : « وهل غبت حقاً البارحة . انني لم ألاحظ ذلك فقد كنت مشغولا جداً . ومع ذلك أتذكر انه بالرغم من جميع مشاغلي فقد لمحتك هنا أمس .. » نضحكت ساخراً هامساً : « أنت واهم يا عزيزي . أرجو ان يكون الجميع مثلك واهمين وعندئذ لن يكتشف غيابي أحد . » وهكذا مضى النهار دون أن يفاتحني أحد في الموضوع حتى الرئيس نفسه الذي دخلت الى مكتبه اكثر من مرة ، لم يبد الاهتمام بموضوع غيابي ، بل لقد وجه لي في احدى المرات ملاحظة من نوع آخر بدت لي غريبة بعض الشيء حين رفع رأسه عن مكتبه محدقاً في بنظرة خاصة ذات معنى لم اعهدها من قبل . ولم افهمها ابداً ثم قال : « انت موظف نشيط لا تغيب ابداً ، ولا تتأخر مطلقاً . انك تقوم بعملك كما ألاحظ على الوجه الا كمل في شركتنا ومنذ مدة طويلة . يبدو لي انك تستحق نوعاً من الامتياز ، وانك لم تحصل عليه منذ زمن طويل .. » خيل لي لأول وهلة انــه يسخر مني ، ولكن لهجته الجدية المؤانسة لم تكن تحمل اثراً من آثار الهزء اوالتوبيخ، فشكرته، وخرجت منفعلاً . وهناك في غرفة عملي ، وجدت سماعة الهاتف مسندة على المكتب ، ورأيت أحد زملائي يغمز لي بعينيه مبتسماً وهو يقول : « صوت نسائي رائع يطلبك ياسيدي .. » صوت نسائي يطلبني في مقر عملي ؟! هل تكون هي مرة أخرى . ولكنها لا تصنع ذلك عادة ، فهل غيرت عادتها تماماً منذ صباح أمس . كانت هي بالفعل . قلت لها : « خير ان شاء الله .. ما في بالعادة ! . » فقالت ممازحة : « كل خير ياعزيزي أحببت أن أسمع صوتك فقط . اشتقت لك .. » ماذا حدث يا إلهي . وكيف تنقلب هذه المرأة مثل هذا الانقلاب الكبير وبمثل هذه السرعة . كنت مزهواً ، منتفخـاً

بانتصاري . لقد نلت ما تمنيت بأسرع وقت ، وأبسط طريقة على غرابتها وقسوتها ، ولكنني مع ذلك غير مقتنع بما حدث . يخيل لي ان شيئاً ما غير صحيح ، خارقاً للعادة قد تسرب الى حياتي ، فجلاها وزينها ، ونفحها قوة جديدة ، ولكنه سوف يقلب الأمور رأساً على عقب بغتة فيعيدني الى مكاني الطبيعي ، بل سوف يرمي بي الى حضيض أدنى ، وعندئذ سوف افهم كل شيء . أما الآن .. فهي تتحدث ، وتعدني بمسرات جديدة اذا وافيتها بعد خروجي من العمل فوراً . لم اجد بداً من الانصياع لرغبتها وانا أتمتم بكلام متعثر لا معنى له . ويجب ان أفهم في هذا المساء شيئاً مما يدور حولي . سوف أحاصرها بأسئلتي ، فاما أن تعترف ، واما .. واما ماذا ؟ . هل أطعنها من جديد ؟ . انها لعبة مثيرة على ما يبدو . سوف ابقى الى جوارها اتأمل هذا الجرح الذي يندمل بسرعة ولا يترك وراءه ندوباً .

ضحكت في سري لهذه الفكرة ، وسرعان ما نسيتها في غمرة العمل . وما كدت أفرغ منه حتى سارعت اليها كما وعدت ، فقابلتني هناك مفاجأة جديدة ، الدار التي كنت اعرفها لم تكن هي من الداخل . كان جميع الاثاث القديم قد تغير تقريباً واستبدل بأثاث جديد فاخر مذهل ، حتى لقد بدت الدار قصراً فخماً . قلت لها مذهولاً : « متى صنعت كل هذا ؟ . » قالت : « اليوم . أليست الدار أجمل الآن ؟ . » .. بلى انهـــا اجمل ... لماذا فعلت كل هذا ! . كانت ترتدي ثياباً أنيقة غاية في الجمال لم أشاهدها لديها من قبل ، وعندما سألتها أيضا عنها أجابتني بنوع من الدلال : « هل أعجبتك . لقد صنعت كل هذا كي أرضيك فهل أنت راض ؟ » .. نعم أنا راض ولكن المسألة لا تستحق كل هــذا الجهد . انها امرأة غريبة الأطوار حقاً . ولم تلبث ان أخذتني من يدي في حنان وادع وهي تقول : « لابد أنك متعب من عمل النهار .. تعال وغير ثيابك فقد اشتريت لك بذلة جديدة . سوف نسهر اليوم في الخارج ، ولكننا سوف نتعشى هنا اولا . لقد حضرت لك بيدي وجبة لذيذة .. » ماذا حدث يا الهي ! . ان رأسي يدق ، ويخيل الي انني سوف أصرخ بأعلى صوتي طالباً النجدة . يجب ان أتأكد من نفسي . من شخصيتي . من وجودي . من حضور هذه الأشياء كلها حولي .. ولكنني لم أصنع شيئاً من هذا ، فقد استسلمت ليدها تدفعني بلطف الى الحمام حيث قضيت وقتاً أطول من المعتاد مستمتعاً بالدفء ، والنظافة ، والعزلة ، حتى سمعت صوتها تستبطيء خروجي . كانت تنتظرني كي أبدل ثيابي ، فخضعت بوداعة الطفل المطيع ، وعندما نظرت الى نفسي في المرآة بدوت رائعاً حقاً في بذلتي الجديدة . شكرتها من دون حماسة كبيرة ، ثم ذهبنا الى غرفة الطعام حيث جلست الى يساري ، وبدأنا نأكل في صمت قطعته اخيراً بهذا السؤال :

– لماذا لا تتكلم ؟ . ألم يعجبك الطعام ؟!

فقلت لها وأنا أمضغ بهدوء :

– على العكس أعجبني جداً ..

فقالت :

– اذن ارو لي ما حدث معك اليوم في عملك . هل سألوك عن سبب غيابك ؟..

وعندئذ انطلق لساني في الحديث ، فرويت لها كل شيء ، وعندما ذكرت لها ما دار بيني وبين رئيسي قالت :

– هذا شيء طبيعي ياحبيبي أن يتنبه رؤساؤك أخيراً الى نشاطك وحسن سيرتك ويفكرون في مكافأتك . سترى .. ان الأمور سوف تسير الى أحسن بكثير بعداليوم ..

فهززت رأسي موافقاً كالأبله ، وعدت الى صحني . وفجأة لمحت السكين على المائدة . كانت سكيني التي تركتها خلفي أول امس . لماذا وضعتها أمامي ياترى . هل تفكر في الثأر من جديد . أم أنه عارض غير مقصود . أخذت السكين الي وبدأت أقلبها من جديد بين يدي وأنا أتأمل نصلها اللامع الحاد ، قالت :

– لقد نسيتها هنا . خذها في جيبك . انها سكين من النوع الجيد وقد تفيدك في شيء ما ..

تفيدني في شيء ما . لن تفيدني الا في تمزيق وجهك أيتهـــا المرأة الساحرة .. قلت لها :

– اسمعي . قبل أن تخرج أريد منك جواباً مقنعاً شافياً على جميع الأسئلة التي تحيرني ، والتي أود طرحها عليك الآن .

فأجابت على الفور :

– دع عنك هذا ياعزيزي . هل تجده وقتاً مناسباً للسؤال والجواب ..؟ فرفعت رأسي محدقاً بنظرة عدائية وقلت :

– نعم . انني أجده وقتاً مناسباً جداً . وعليك أن تطيعيني والا ... » فقالت :

– والا ماذا .. ماذا ستصنع بي أيضاً . اذا كان لابد من أسئلتك فاطرحها علي

بعد عودتنا من السهرة . سألتك بالله لا تفسد كل شيء منذ الآن . . » فقلت بلهجة اكثر حدة :

– ولماذا يفسد كل شيء . اذا جاوبتني بصراحة لا يفسد شيء البتة .. » فوضعت يدها على كتفي مربتة ملاطفة ، ولكنني دفعتها عني بعنف ، ثم ازحت كرسيّ جانباً كي اواجهها ، وقلت وانا اشعر انني صرت مستعداً لارتكاب اية حماقة جديدة فيما لو انها اصرت على رفضها . قالت بلهجة مسالمة :

– حسناً .. حسناً .. لا تغضب .. اسأل .. ماذا تريد ان تسأل .؟

فقلت على الفور :

– اريد ان اعرف اولاً كيف تخلصت من جرحك بهذه البساطة والسهولة ؟!.

فضحكت ضحكة مبتسرة ثم اجابتني باستغراب :

– ولكنك سألتني هذا السؤال من قبل واجبتك عليه ..» فقلت :

– لم اقتنع . اريد جواباً مقنعاً ..

فتحولت برأسها متأففة من اصراري ، ثم قالت كمن يحدث طفلا عنيداً :

– يا صغيري .. انا مثلك لا اعرف كيف حدث هذا . يبدو انني ظاهرة عجيبة لا تفسر . من قديم الزمن كنت اجرح باستمرار ، وابرأ على الفور .. » فقلت :

– لا تسخري مني . انني احذرك من السخرية بي ..

فقالت كمن يقسم :

– ولكنني لا اسخر . انني مخلوقة بهذا الشكل . اذا لم تكتشف ذلك من قبل فلأنك لم ترني انزف حتى الآن . يجب ان تصدقني ... اقسم لك .. »

فهدأت قليلا حيال لهجتها الجادة ، وقد بدء علي شيء من الاقتناع . ظاهرة عجيبة لا تفسر ! هل يكون هذا صحيحاً . لماذا لا اجرب ذلك الآن .. يجب ان اشاهد ذلك بعيني حتى اصدق .. قلت لها :

– اجرحي نفسك الان امامي ولو جرحاً بسيطاً .. يجب ان اتأكد بنفسي . . » فقالت :

– ولكنني لا استطيع ان اجرح نفسي بنفسي » . فقلت :

– انت خائفة من رؤية الدم . » فقالت محتجة :

– على العكس . ان منظر الدم لا يزعجني البتة .. ولست خائفة منه . ولكنني

لا استطيع ان اجرح نفسي بنفسي . يجب أن يصنع ذلك شخص آخر .. » فقلت :

- لا بأس . سوف اصنع ذلك بنفسي .. » فقالت اكثر احتجاجاً :

- ولكنك سوف تفسد ثيابي. لا يهمني الجرح، ولكن الدم سوف يسيل ولو قليلاً، وسوف تفسد ثيابي الجديدة ..

كنت مأخوذاً بهذه الفكرة الجهنمية ، ولم يعد يهمني ابداً سوى متابعتها الى النهاية. كنت كالمسوق الى قدر لا مفر منه . قلت :

انزعي ثيابك اذن ، واستبدليها بثياب لا قيمة لها ..

فقالت بلهجة جديدة :

- اسمع .. اما انك مجنون برؤية الدم ، واما انك لاتحبني . قل لي أي رجل انت، اقل لك من انا .. » فقلت :

- انت تعرفين جيداً من انا . لا حاجة بي الى أن اعرفك بنفسي ، فأنت السبب في كل ماحصل . اما انت ، فانني لا اعرف عنك شيئــاً . انت التي يجب ان تتكلمي ، لا انا .. فقالت :

- اذا كنت تظن نفسك قادراً على اخافتي بمثل هـذه التهديدات فأنت واهم .. انني لا اخاف بشراً .. ثم انكم جميع الرجـال كذلك .. ثانيون .. شرّيرون .. لن اجيب على أي سؤال ، ولن اسمح لك بإهانتي الى هذه الدرجة . هناك حدود يجب التوقف عندها حقاً ..

وهكذا احتدم الموقف بعد ان كاد يميل الى الاعتدال ، ووجـدتني اشتمها بكل قسوة ، فتبادلني سباباً بما هو افدح وانكى ، وتمتد السكين مرة أخرى مدفوعة برغبة آمرة لا تقاوم ، وبطعنة اشد نكالاً ، حتى لقد خيل لي انني جدعت انفها في هـذه المرة . وتدفق الدم من جديد ، احمر قانياً ، حـاراً ، نفر من الجرح المفتوح كرشاش مكبوت وجد متنفساً تناثر حتى اصابعي . سمعت صرختها الثاقبة كما حدث في المرة الاولى، ولكنني لم اسارع الى الخروج في هذه المرة . كانت منكسة الرأس ، قد خبأت وجهها بكفيها ، والدم يتسرب من بين انامله ، فيسيل على معصمها ، ويقطر على ارض الغرفـة ، وعلى ثيابها ، ويلطخ كل ما يصل اليه بذلك اللون المتخثر القاتم . لم اكن ادري ماذا افعـل . هل ابادر الى اسعافها . هل اخرج واترك كل شيء ورائي ولا اعود بعدها ابداً . كنت واقفاً ، جامداً ، مذهولاً .. ومن اعماق دوامتي التي كنت اتخبط فيها رأيتها ترفع الي وجهاً ملطخاً بالدماء وهي تصرخ :

– أخرج من هنا .. لا أريد أن أراك بعد الآن . إنني أكرهك . ليتك تموت . اخرج . لاتقف هنا بعد الان . أخرج ..

وكأن صوتها رد إلي صوابي الضائع وأرشدني الى طريق الخلاص ، فتحركت أريد الخروج . ولكنني ماكدت أتجاوز الغرفة الى الردهة حتى سمعت صوتها من جديد صارخاً :

– إسمع .. لاتذهب .. لا أريدك أن تذهب .. عد إلي .. إنني بحاجة إليك . أرجوك ..

فتسمرت في مكاني كرجل منوم صدر اليه الأمر بالتوقف عن الحركة . ثم التفت الى الخلف مدفوعاً بقوة لا ارادية ، ولكنني لم ارجع اليها حتى سمعت صرختها الثانية تأتيني من اقصى العالم :

– هل تسمعني ؟ .قلت لك لاتذهب. عد الى هنا . انني بحاجة اليك ..»فتحركت راجعاً . لامفر من الرجوع . وعند مدخل الغرفة توقفت مذهولاً كما صنعت في صباح هذا اليوم ، وانا انظر الى وجهها المرفوع . كان ثمة قطرات من الماء تتساقط منه ، ولم يكن ثمة اثر الدماء . لابد انها غسلته بالماء . ولكن الجرح .. لم يكن ثمة اثر لأي جرح . واقتربت اكثر ، وحدقت في الوجه المغسول . لاشيء . لاشيء على الاطلاق . انها صادقة بالفعل . انها لظاهرة عجيبة لاتفسر . انهرت على اول مقعد الى جوارها وانا اغمغم بصوت متهدج :

– اغفري لي .. ارجوك ان تصفحي عني . لقد آلمتك دون سبب .. وبحركة محمومة عانقتني معبرة عن صفحها . واحسست في تلك اللحظة انني احبها اكثر من اي وقت مضى . لتكن ظاهرة شاذة . ولتكن امرأة ساحرة او مسحورة . ماذا يهمني من كل هذا مادامت تحبني الى هذا الحد . وعانقتها بدوري . وبكيت . وهكذا لم تفسد سهرتنا . إلا اننا اضطررنا الى تغيير ثيابنا الملطخة بالدماء قبل الخروج . وعند الصباح نظرت الى الثياب من جديد . كانت آثار التجبيع واضحة . لم يكن ماحدث وهماً اذاً كما خيل لي في المرة الأولى . وكانت الى جواري ترى معي المنظر نفسه وهي تلتصق بي كمن يحتمي من خطر ، فعانقتها بحنان ثم اتجهت للخروج الى عملي . وعند المخرج ، نظرت اليها مودعاً وانا ام بالنزول . ولكن ما أشد ماراعني مشهد التجاعيد التي رايتها صباح امس وقد ازدادت وضوحاً وعمقاً . بل لقد رايت تجاعيد اخرى جديدة حول فمها ، وعنقها ، وبدت لي امرأة كبيرة في الكهولة ،وانها ليست ابداً الفتاة اليافعة نفسها التي كنت اعرفها

قبل ايام . غير اني لم آبه كثيراً للمنظر . قلت لي نفسي : لعلها حوادث الأمس الرهيبة هي التي اهرمتها وخلفت لها هذه العلامات على وجهها ، ولا بد ان يعود لها صفاء وجهها بعد ايام حين أكف عن اثارتها وازعاجها . قبلتها من جديد ثم مضيت. قالت من خلفي: « سأنتظرك هذا اليوم بعد خروجك من العمل .. » لم التفت الى الخلف . شعرت برغبة مفاجئة ملحة في ان ارتاح بعيداً عنها وحدي ، في غرفتي ، وانه لن يكون في مقدوري أبداً ان اكون عند حسن ظنها اليوم . ربما غداً .. أو بعد غد ..

وفي العمل ابلغوني ان الرئيس يطلبني شخصياً . وما كدت أدخل حتى نهض مرحباً بي ، وقدم لي تهانئه القلبية لأن مجلس الادارة وافق على اقتراحه بترقيتي ،وزيادة راتبي ، واسناد رئاسة فرع هام لي . شكرته بهدوء وخرجت . لم اشعر بفرح كبير . تقبلت الأمر كنبأ عادي كأن جميع احداث الدنيا لم يعد لها اي تأثير في . وعندما انتهى النهار توجهت الى داري ، واستلقيت مسترخياً على مقعد مريح أصغي الى موسيقا كانت تتناهى الي من مكان بعيد ، لاأدري كم من الوقت مر علي وانا في هذه الجلسة ، أذكر فقط ان الغرفة كانت غارقة في الظلام عندما رن جرس الهاتف ، فمددت يدي متمهلاً اليه ورفعت السماعة ، كانت هي على الطرف الآخر ، سمعتها تقول : « لقدحزرت أنك في الدار ... لاتتأخر ياحبيب ... انا في انتظارك ... » خيل لي وانا اصغي ان صوتها المعدني قد فقد كل تأثيره القديم ، وانه صوت امرأة غريبة تنادي بأعلى صوتها من قرار حفرة عميقة الأغوار ان اهبط اليها . لم انبس ببنت شفة ، فقالت : ماذا جرى ؟. لماذا لاتتكلم ؟. هل انت مريض ؟.. » اسعفتني اذاً بالفكرة . انا مريض حقاً ، مهدم ، محتاج للراحة . قلت لها بصوت واهن : « يبدو انني مريض حقاً ، وانني أحتاج الى شيء من الراحة .. » فقالت على الفور : « لاتخرج اذن . سآتي انا اليك .. »وعلقت سماعتها . ما العمل الآن . سوف تأتي الي بنفسها . ما الجدوى اذن . انها لم تزرني ابداً في داري من قبل الا زيارات عابرة قصيرة . اما الآن فيبدو انها ستقضي الليلة هنا .ليتني لم أقل انني مريض ، او اختلقت عذراً آخر يمنعها من المجيء . ولكن فات الوقتالآن . ولا بد انها قد خرجت في طريقها الي وسوف تكون هنا بعد دقائق . ولم تمر دقائقحقاً على هاتفها حتى رن جرس الباب ، فنهضت متثاقلاً افتح . كانت هي ، بثياب خروج سوداء انيقة . دخلت على الفور وهي تقول : « لماذا تجلس في الظلام .. » واشعلت النور . فرفت عيناي في الضوء الباهر وشعرت بضيق ظاهر من النور المباغت ، عانقتني وجلست كأنها في دارها ، ثم قالت : « ماذا تشعر . هل هو مجرد تعب ام ماذا ؟ طمني » قلت : « لا ادري . شعور عام بالاعياء . ماذا اقدم لك ؟. قهوة .. شراب..»

قالت : « لاشيء . لاتزعج نفسك . انزع عنك ثيابك واندس في الفراش وسأبقى الى جوارك طوال الليل فأنت بحاجة الى من يعتني بك لأنك وحيد .. » كنت وحيداً حقاً، ولكنني كنت افضل وحدتي عليها في هذا اليوم . "وماذا بعد لو خطر لها ان تنام الى جواري . لن استطيع النوم الى جوار انسان هذه الليلة . ولكنها وفرت علي هذا العناء حين قالت : « سأنام على هذه الكنبة . يجب ان تنام وحدك نوماً عميقاً .. » فشكرت لها في سري هذا الاحساس الذكي المرهف . ولكننا امضينا جزءاً لابأس به من الليل ونحن جالسان على مقعدين متقابلين نتحدث في امور شتى قبل ان نأوي الى الفراش . رويت لها خبر ترقيتي وترفيعي ، فاعتبرت الخبر مصداقاً لما ترقبت حدوثه لي في عملي . كنت احدثها وانا احاول جهدي الا انظر الى وجهها ، فقد ساءني حاله كثيراً في ذلك المساء، اذ كانت تجاعيد الصباح قد زادت عمقاً ، وبدا وجهها الجميل كوجه امرأة مسنة متصابية لم تستطع المساحيق ان تخفي عمرها الحقيقي . ربما كان هو الاشمئزاز ، اوشعور آخر . لا ادري . كنت مصدوماً بعض الشيء . الا انها كانت محدثة بارعة ، أنستني هموم وجهها بما كانت تحبكه من تعليقات ذكية ، ونوادر مسلية . وعندما أويت الى الفراش ، لم امنع نفسي من النظر اليها وهي تتعرى فأراها اكثر هزالاً مما اعهد حتى اذا اذا اطفأت النور تبادلنا تمنيات النوم التقليدية ثم اخلدنا فجأة الى صمت خالص ، الا من انفاسها التي بدت لي متقطعة لاهثة ، ثم انتظمت ، فعلمت انها نامت قبلي . وكان استغرابي اكبر حين سمعت تنفسها يتحول الى شخير متقطع صنع عجوز طاعنة في السن . ابداً لم ابصرها نائمة من قبل . ففي الليلتين اللتين نمنا فيها معاً كنت دائماً البادىء في النوم والمتأخر في اليقظة . اما الآن فها انذا وحدي مستيقظ في الظلام ، اصغي لها وهي نائمة واكتشف لأول مرة انها تغط في نومها غطيطاً مزعجاً .

لم اذهب الى زيارتها في اليوم التالي ، كما لم ارجع الى داري الا في ساعة متأخرة من الليل . ومع ذلك فما كدت ادخل الى البيت حتى رن جرس الهاتف كأننا على موعد ولكنني لم ارفع السماعة ، بل عمدت الى سحب الشريط ، ثم أويت الى الفراش دون اي تأنيب للضمير ، ومر يومان على هذه الحال دون ان نتلاقى . كنت اقطع الساعات كيفما اتفق دون حماسة لشيء ، كنت اتحرك فقط ، سواء في العمل او خارج العمل وقد فقدت الأشياء بالنسبة لي هذه المزية التي تدفعنا الى الاهتمام . في اليوم الثالث وجدتها تنتظر في الليل قرب الباب . لم تكن مفاجأة سارة بالطبع ، ذلك ان عتاباً ثقيلاً على سماعه الآن ، وحساباً طويلاً علي ان اؤديه عن ايام غيابي . وحدث ماترقبته بالفعل ، الا انني لم اعبأ بالرد على عتابها ، ولا بتقديم كشف حساب عن ايام الانقطاع هذه ، كانت

ماتزال انيقة كعهدي بها ، الا ان وجهها ، ويديها ، وعنقها ، وقامتها ، وكل شيء فيها كان قد تبدل بشكل غريب في هذه الايام الأخيرة حتى بدت حقاً مثل امرأة عجوز لولا مسحة من جمال ، وبقية من عنفوان . لم اصنع شيئاً في سبيل ارضائها . وعندما وجدتها صامتة كسيرة البال كمن يهم بالبكاء ، عمدت الى ملاطفتها بهذه الدعوة المغامرة التي سرعان ما انعشتها فدبت فيها الروح ، وعاد الى وجهها شيء من الصفاء والرونق ، والى كيانها نوع من الأنوثة . دعوتها ان تبيت الليلة معي . ويالها من ليلة !. حاولت جهدي ان اثير شهيتي بمختلف التصورات دون جدوى . كنت ميتاً ، وهي تقبلني ،وتداعبني وتهمس لي بأرق الكلمات . كنت جثة باردة بقدر ماكانت مشتعلة بالرغبة ، وفي النهاية لم يبق امامنا الا ان نخلد للسكون ، ونستسلم للأمر الواقع . وفي صميم الليل المحيط بنا سمعتها تنشج في خفوت ، فربت على كتفها برقة ثم ادرت لها ظهري ، ورحت بعدها في نوم عميق .

كان يجب علينا ان نعترف بالحقيقة . لقد انطفأ الان كل شيء . ويجب ان نتفارق اذ لم يعد ممكناً ان نتجاهل هذا الدود الزاحف الذي كان يقرض كيانها . كان عليها ان تفهم ذلك ، وانه لم يعد في الامكان بعد الان ان نتبادل الحب . ولكنها لم تفهم ، او لعلها فهمت ورفضت الاستسلام ، فراحت تطاردني بمختلف الوسائل ، وانا اتهرب منها بشتى الأعذار والطرق حتى جاء ذلك اليوم الرهيب .

كنت في الدار وحدي في يوم عطلة عندما سمعت قرعاً على الباب . لم اشك بها فقد عودتني على استعمال الجرس ، وكان قد مر على لقائنا الأخير اكثر من اسبوع ، الا انني فوجئت بها عند المدخل واقفة شاخصة عارية الراس في ثوب طويل بسيط رمادي اللون. كان منظرها غريباً بهذا الزي ، فهي لم تألف ابداً الخروج بمثل هذه الأزياء المبتذلة. كانت تبدو كامرأة مجهولة اذ كان الهرم قد استفحل في كل ركن من وجهها وجسدها واطرافها ، حتى شعرها فقد غزاه الشيب ولم يعد ممكناً ان اجد فيها المرأة التي عرفتها ذات يوم .لم ادعها للدخول ،وعندما طلبت ذلك بصوت كسير رفضت معتذراً بضيوف لدي . فقالت : « اذا كان هذا صحيحاً فتعال الى زيارتي بعد ذهابهم .. » فقلت : «انهم باقون مدة طويلة ، وقد ينامون عندي . هذا مستحيل كما ترين . » فقالت مسترحمة : « ليس هذا صحيحاً ياعزيزي .. اناواثقة انه غير صحيح .. دعني ادخل لفترة قصيرة وللمرة الأخيرة فقط .. ارجوك .. » اوشكت ان اتراخى امام استرحامها الظاهر ، ولكنني تماسكت وقد تيقنت انه لاجدوى من هذا اللقاء ابداً ، فاعتذرت من جديد وهممت باغلاق الباب ، ولكنها التصقت بي ومنعتني من اغلاقه وهي ماتزال تقول :«هذه

المرة فقط .. المرة الأخيرة .. ارجوك .. » الا انني صرخت وقد ضقت بها ذرعاً : « قلت لك هذا غير ممكن .. عندي ضيوف ابتعدي عن الباب .. » ولكنها لم تبتعد بل راحت تشد في اتجاهي ، وانا اشد في اتجاهها ، ونشبت معركة غريبة بين رجل وامرأة يتدافعان باباً مشتركاً ، احدهما يريد الدخول بأي ثمن ، والأخير يريد منعه من الدخول بأي ثمن . ولما وجدت صعوبة في الامر بسبب قدمها التي دستها بين العتبة والباب ، فضلت أن ادفعها بيدي دفعة قوية سقطت من جرائها على الارض ، فسارعت الى اغلاق الباب وقد تنفست الصعداء ، ولكن لم تمض ثوان حتى سمعت القرع من جديد عنيفاً ، متلاحقاً. حاولت جهدي تناسيه فلم استطع ، كان قرعاً، ملحاً ، مزعجاً الى حد لايطاق فلم اتمالك من ان افتح الباب وانا مستعد لمعركة فاصلة ، غير انني ما كدت افتح الباب حتى فوجئت بمنظر مرعب . وجدت نفسي وجهاً لوجه امام عجوز شمطاء ، محنية الظهر ابيض شعرها كله ، وملأت وجها الحفر والأخاديد ، وهي تفتح فماً سقطت اسنانه تفح منه صوتاً غير مفهوم ، محركة يديها المعروقتين حركات هستيرية لا معنى لها . من كانت هذه المرأة . وماذا تريد . انه ما يزال الثوب نفسه ، والعلامة الباقية الوحيدة التي تدل عليها . ولكن .. لا ... ليس من المعقول ان تكون هي ... وصرخت مذعوراً بصوت عال لا بد انه اخافها لأنها تراجعت قليلا ، ثم هزت رأسها ، ومضت في طريقها مبتعدة وهي تترنح موشكة على السقوط لدى كل خطوة ...

قصة سفينة

عبدالقادر ربيعة

هذه الحكاية محفورة في ذاكرة ذلك المرفأ الصغير ، من جملة حكايا عن الصيد والوهم والحكمة ، فقد اختلطت مع بعضها اختلاط اللؤلؤ بالحصى ، يجترها الصيادون في مواسم المحول ، حينما يتحدثون عن سمكة بطول المئذنة .. وعن بحار تزوج حورية وعاش معها في اعماق المحيطات .

وثمة مجموعة من البحارة عثروا على انفسهم فوق هاتيك السفينه الخزفية .. مع ربانهم الذين بدا أنما البحر لا يثبت .. ودرويشاً يرضى بكل شيء على حب الله .. هو كالربيع يملأ كل مكان همة ونشاطاً .. هنا وهناك على الدفة والسارية .. وتارة سمكاً بالقلوع .. دون أن يعبأ بحق الرياسة المقدس .

في السنة الأولى خاضوا بحار العالم بلا توقف .. وصلوا كل الجزر النائية .. والمرافىء البعيدة ، حتى بلاد الواق الواق .. وزاروا مدناً يدفن فيها الزوج حياً مع زوجته ، يتاجرون بالعبيد واللؤلؤ والفراء ، واحياناً يتشاجرون مع الغرباء ،

تجار المحاسن ، فيتطاعنون بالمدى والحراب من اجل جارية حسناء ، ثم يخسرون كل شيء .

مع الايام اخذ ربانهم يدعو لكرامة الرياسة .. ولإطاعة أولي الأمر بالحق ، ثم لحقه الالهي في تعديل المكاييل. كذلك منع النقاش وحب التساؤل .. كان يتفرعن على غفلة منهم ، شيئاً فشيئاً ، كذلك يسري الخنوع فيهم خفية كرطوبة البحر حتى امسى قرصاناً مختالاً بنفسه .. ذا ثقة عمياء بإرادته ... اوامره لابد ان تطاع مهما كانت مستحيلة . ثم وجد ان الوجبة اليومية كبيرة على الواحد منهم ، فقصرها على سد القوت ، وبل الرمق . وصحوا على الجوع والظمأ والغربة التي لاتنتهي ... لكنه قد اسقط في يدهم .. وبقي لهم خزى في النفس وحسرة في القلب ... حتى السماء الجميلة اصبحت عماً سديمياً .. وسفينتهم الخزفية قمقماً يضيق حتى بالدماء .

وأصبح ربانهم أمرها بحب الخمرة والنساء .. ورنين الذهب .. بل لاتحلو له الا بحرمانهم منها .. ماعاد يبارح مقصورته إلا نادراً لتأديب أحدهم ... واذا ماهبت العاصفة فانه يمد رأسه من الكوة وينادي باستهانة .

- هيا يا بقر ... حلوا القلوع .

كان الزاكي وهو أكبرهم سناً يستغفر الله دوماً ويسر في آذانهم معزياً .

- الله سيضع لكل ظالم نهاية .

مرة تباحثوا فيما يحدث لهم فقال أحدهم

- كيف يحتكر القبطان لنفسه كل شيء، الخمرة والنساء واللؤلؤ وفراش الريش ونحن نكابد في هذا العنبر القذر .

وعقب حميد مغتاظاً

ـ كل هذا لاقيمة له مقابل نعتنا بالابقار .. هل نحن أبقار حقاً !؟. لماذا انتم صامتون !!؟ لأنكم أبقار .. أما أنا فلا ..

وران صمت مخيف ، يبعث مزيداً من الكآبة .. تمزقه أرتال الموجات التي تتشظى بانتظام على مقدمه السفينة ، فيما ينسل كل منهم إلى فراشــه القذر ليغوص فيــه حتى يشرق الشقاء من جديد ، تمرمرهم وساوس احلام محمومة ، وتساؤلات شتى ، ترى ماذا باستطاعة حميد أن يفعل ؟ وماذا سيحدث له ؟! سيمزقه القرش بعد أن تحطم البلطة عظم جمجمته .. وبعدها يفرح كل منهـم بخسة ، اذ يطمئن الى أن الضحيه في النهاية هو الآخر !!.

ثم يتسال النعاس الى الأجفان اليابسة المملحة .. وتتحرر الروح الذليلة من بدنها المتهالك ، فتغيب في لاشيئية مبهمة .

في ليلة صيف مقمرة تجلت فيها مصابيح السماء المتألقة كنثار من الماس لايحصى .. والنور يتبرقع على صفحة البحر كوشي القطب .. ونسيم رهوٌ يبعث الخمول .. وحب الاحلام .. ورغائب زرقاء في العودة الى اليابسة .. أو معانقة أمرأة ... اية امرأة ، حتى ولو كانت عبدة سوداء .

يومئذ كان للقبطان عشيقه حوراء العين دافئة العنق .. مدلهمة الشعر ، بشرتها صفراء كان قد اشتراها من جزيرة المرجان . في هاتيك الليلة خرجت من مقصورتها تستسلم لاحلام القمر .. تحنو على فرائها بدلال ، وتميل صوب البحارة أحياناً ، كهبة عطر من ارم ذات العماد .

فانقض حميد عليها كالبازي صارخاً باعلى صوته

ـ آه يافتاة المرجان .. انت لي .. ألم احملك علىظهري ؟. الم اخضبك

ماء البحر ؟. منذ سنة وأنا لم ار امرأة ... أية امرأة .

وبكو صديقهم حميد الذي هشمت بلطة القبطان رأسه ، ثم القوه الى البحر دون صلاة على روحه ، ثم سمعوا طقطقة عظامه في فم القرش. ومنذ هاتيك الساعة تحولوا الى حجارة ، فلم يعد أحد منهم يشتهي امرأة .

في اليوم الثاني قال الزاكي

ـ نحن لانريد مغانم ، بل طعاماً وفراشاً ولباساً .

وقال آخر

ـ حتى هذا غير مهم ، اما وانه ينعتنا بالبقر ، فهذا مالن نصبر عليه .

الجميع

ـ نعم لن نصبر عليه .

وتساءل الصفدي

ـ ماذا ينبغي ان تفعلوا ؟

فاجاب احدهم

ـ نصبح بقراً بالفعل .

ـ كيف ذلك

ـ اذا ما اقبلت العاصفة ونادى كعادته هيا يابقر فلنرد عليه بصوت واحد كالبقر تماماً « موع موع » .

ـ ولكننا هكذا سنخسر السفينة .

ـ نعم لكي نحرمه سفينة يختال عليها .

ـ وماذا يحدث لنا نحن .

ـ نحزم انفسنا بالطوافات ونسبح الى اليابسة .

وتساءل الصفدي بهلع

- أليس هناك من طريقة اخرى لنقتله ونحتفظ بالسفينة ؟

- كلا .. وأنت رأيت الكثيرين قد فكروا بذلك والنتيجة ان اكلهم القرش .. انه يعرف كيف يقمع العصيان !!

وعلق أحدهم بحماس

- نعم يجب ان نقتله ، حتى ولو متنا معه وخسرنا السفينة .

وعقب الزاكي باكياً .

- لكن البحر كالجبال يا اولاد .. سوف يغرقنا نحن والسفينة والطوافه ان يغرقوه .. انها فكرة اغرت الجميع .وعلى الرغم من عدم اقرارها ، فقد اعادت اليهم بعض الثقة .. اسلمتهم لنشوة من الفرح الغامر .. وعادهم مايشبه الحرية . غنوا معاً بصوت واحد .. انتابهم الأرق ، فلم يشتهوا نوماً ، وهم ينصتون أحياناً لعربدته بشماتة القدر ، واصبح عليهم الصبح وهم حاقدون ببرود .

كانت الدنيا شتاء غاضباً ، والعواصف السوداء تتكور على نفسها كثعبان يقرض ذيله .. لايمضي يوم إلا وتهاجمهم احداها . كانوا قد اوشكوا ان يأتوا على مؤونة السفينة ، وبعدها قد يضطرون لأكل الجرذان والجلود اليابسة .. كل شيء يوحي بأنهم سيموتون جوعاً ، وبأنهم يأكلون بعضهم بالقرعة . إذن لا مفر من الخطة . ولقد جهز الصفدي الطوافات ، وهو حزين النفس حتى الموت ، يفكر بأمه وزوجه ومرفئهم الصغير ، والزاكي يقرأ القرآن بصوته الرخيم .

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

السماء آخذة بالسواد .. غرقت كل لآلئها المضيئة ، فيما يقرع المطر هام السفينة ، كأنه يروي غليل الربان الكاره .. انقطع حبل النظر .. وامسوا

غارقين في حفرة رمادية من الضباب والأمطار .. الريح السافية تعبر شقوق العنبر كالنصال .. انها ساعة الصفر ولا بد .

انطفأ المصباح المزيل المعلق في زاوية العنبر ، فانحبست انفاسهم .. تكوروا كالجرذان المرتعبة ، والسفينـــة تشق البحر كمارد اسطوري . ثم نادى الصفدي .

- يا أولاد نحن بلا طعام .. والبحر ينقلب فوقنا كالجبال .. وسفينتنا بالية . احزموا انفسكم بالطوافات . وليطلب كل منكم السلامة لرأسه ..

ثم اعقبه صوت القبطان معربدا

- هيا يابقر انزلوا القلوع .. وانت أيها الداعر امسك الدفة جيداً والا ألبست طاقيتك لكلب جرب أمام بحارة الأرض والسماء .

واجابه الجميع بصوت واحد كالبقر تماما

- هوع هوع

- قلت لكم هيا يابقر .

- هوع هوع . نحن أبقار حقاً ولا نعرف شيئاً عن الملاحة

ثم أخذ صوته يتلاشى مردداً آخر كلماته

- لقد هلكنا يا اخوتي .. سأعطيكم كل شيء ...

كانت الطبيعة قد اتحدت بكل عناصرها ، لتتحول الى كرة اسطورية تتدحرج فوق السفينة .. الصاري الاكبر انقصف فاحدث صوتاً كالصاعقة .. واحس كل منهم بالماء ، يتسرب في فمه وعينيه ، غير مصدق انه سيغرق مع القبطان ، ويضيع في المحيطات مع أشلاء سفينتـــه ، ليغدو مزقاً في أفواه السمك .

الكلمة ملكوتي

LA PAROLE EST MON ROYAUME

پول ريكور

ترجمة : جورج صدقني

ماذا أصنع عندما أعلّم ؟ أتكلم . ليس لدي غير ذلك أكسب به رزقي ، وليست لي في غيره كرامة . ليست لديّ وسيلة أخرى أغيّر بها العالم ، وليس لي تأثير بغيرها على البشر . الكلمة عملي . الكلمة مملكتي .

أما تلاميذي فسيكون لمعظمهم علاقة أخرى بالأشياء والبشر . سوف يبنون شيئاً من الأشياء بأيديهم ، أو سيتكلمون ويكتبون في المكاتب والمخازن والإدارات . ولكن كلامهم لن يكون كلاماً يعلّم ، سيكون قطعة من عمل ، أمراً ، خطة ، رسماً تخطيطياً لعمل . كلامي لا يبدأ أي عمل ، ولا يأمر بأي عمل يمكن أن يقع وقوعاً مباشراً أو غير مباشر في دائرة الإنتاج . إنما أتكلم

لكي أصل جيل الشباب بما يعرف جيل الراشدين وما يبحث عنه وحسب . هذا الاتصال ، تقيمه الكلمة ، معرفة مكتسبة وبحثاً متحركاً وهو علة وجودي : إنه مهنتي وشرفي . لن أحد أولئك الذين هم « في الحياة » ، ولهم « سيطرة على الواقع » ، كما يقول المعلمون غير الراضين عن أنفسهم . إنما واقعي وحياتي امبراطورية الكلمات والعبارات والأقوال .

بوسعي أن أقوم بجولة في حقل مواد التعليم الواسع : لقد ولّدت كل مادة منها لنفسها طريقة في الكلام تربطها بنفسها ، وتعبّر لي عنها ، وتعلمها لشخص آخر . إذا علمّت الرياضيات أغدو ، في فعل التعليم ، الكلمة تستنفد نفسها في التسمية الدقيقة ، والجملة مقصورة على الدلالة الخالصة ، والقول بأني البرهان ، وبكلمة موجزة الكلام طبعته الطبيعة بطابعها . وإذا علمّت الشعر أقترب بوسائل نثرية ، من لغة تقول مايتجاوز دلالته تجاوزاً لانهاية له بعكس الكلام الذي يدل دلالة دقيقة ، من لغة تخلق جوهر الحضور والتقارب ، وتعيد خلقه بالاتحاد الملموس بين المعنى والصوت . وإذا علمّت علوم الطبيعة أكون خادم لغة أخرى تصف العالم ، وتربط الواقعة والقانون معاً ، فتصبح أداة إنشاء موضوعية الموضوعات وانشاء كلية العبارات التي تقود العالم . وإذا كنت مؤرخاً أجدني في قول يولد من السرد ويتزع إلى بلوغ دقة صارمة في اللغة جديرة بتحويل أثر من الآثار إلى وثيقة ، جديرة بالتحليل وإعادة الربط ، جديرة باعادة البناء وبث الحياة من جديد . وإذا علمت اللغات الحية أكون في خدمة التواصل الخالص متجاوزاً اختلاف اللغات ، وأناضل ضد كل تمييز ، وأبحث عن الإنسان الآخر في لغته الأخرى وفي آثاره المكتوبة . وإذا علمت

الفلسفة فان ما أبذل نفسي في سبيله هو قول حديث أيضاً ، قول لايكون رمزاً وحسب مثل قول الرياضي ، بل واقعاً . لايكون شعراً وحسب ، بل حقيقة واقعة ، بل شرط إمكان . لايكون رواية ، بل نظاماً وعقلاً .

إن الجامعة هي جماع قوى اللغة المتعددة في لحظة تواصل « الأقوال »..
ومن ثمة فان هناك شيئاً واحداً لايمكن لإصلاح التعليم أن يطاله ألا وهو نهاية عهد سيادة الكلمة في التعليم ! فكل إصلاح يكون إصلاحاً في قلب اللغة التي يتحدث بها جيل إلى جيل آخر لكي ينقل إليـه ثمرات ثقافته وحركة هذه الثقافة .

ذلك هو لب كل تأول مسبق ، هو قبل كل إصلاح للتعليم بصورة عامة . أما الباقي فيبنى على هذه القاعدة . الباقي : وقبل كل شيء كل مانسميه تربية . إنها لحياة مشتركة حقيقية تلك التي تولد حول تواصل المعرفة ، حياة مجتمعية لها قواعدها ، وروحها ، وقلبها ، والانسان عاملها بجوارحه كلها . بيد أن هذه الحياة ليست الحياة في المهن ، أو في المجتمع ، أو في العالم . إنها حياة كاملة - أو إن الحياة المدرسية ينبغي على الأقل أن تكون حياة جديرة بهذا الاسم - ولكن هذه الحياة منتظمة انتظاماً كاملاً بما يتفق ومهمة الكلمة العظمى ، لا بما يتفق مع الفاعلية المهنية . ولهذا أستبعد أن يتمكن إصلاح التعليم من أن يأخذ على عاتقه بناء الحياة المجتمعية في الصف وفي المدرسة وفي الجامعة على صور العلاقات البشرية في الحياة المهنية . فهذه الحياة لايمكن لها أن تكون استباقاً للحياة الحقيقية ، أو صورة أمينة مصغرة لها ، إذا قررنا أن نطلق اسم الحياة الحقيقية على الحياة المهنية وعلى اندماج الانسان في تقسيم العمل تقسيماً اجتماعياً ..

هذه الحياة هي الحياة الخاصة بجماعة ولدّها تواصل المعرفة من جيل إلى جيل . إن المدرسة تربي لأنها تعلم ، وليس العكس .

• • •

وها أنذا أحاول ، على ضوء ماتقدم تبديد بعض الأوهام التي حيكت حول اصلاح التعليم .

١ – إنه لمن الخطأ القول إن على بلادنا أن تندم على تقاليدها الجامعية وأن تقلص نصيب الثقافة المنزهة عن المنفعة في التعليم – سواء أ كان الأمر يتعلق بنظرية رياضية ، أو بمعرفة الثقـــافات الأجنبية ، أو بالتاريخ والجغرافيـة ، أو بالانسانيات المدرسية ، أو بالفلسفة – بحجة أن عليها الآن التسارع في انشاء الحداثة . صحيح أن التصنيع هو الضـرورة العظمى بالنسبة إلى بلادنا ، إذا أرادت أن تبقى بلاداً ذات ثقافة رفيعة . ولكن الخيار بين أمرين : ثقافة منزهة عن المنفعة أو تخصص مسبق ، هو اختيار زائف على مستوى التعليم الثانوي الراهنة . بالعكس ، لقد ذهلت من الكلام الذي يستخدمه التقنيون . فهم يقولون لنا إن التأخر في التخصص هو عامل يضمن للعالم الحديث إعادة توازنه . وإذا كان التلاؤم مع التقنيات يجب أن يكون تلاؤماً على مستوى عال ، أي إذا كان ينبغي له أن يحافظ على نصيب من المرونة المهنية ، وعلى توازن متعدد الاتجاهات وعلى تناسق بين التقنات الخاصة ، وإذا كان يجب أن يبقى تلاؤماً ذكياً ومبتكراً ، فيجب أن تهيمن الثقافة عليه . فإذا نظرنا إلى هذه الثقافة من وجهة النظر التقنية وقد بدت لنا قبل قليل و كأنها تعارض بين اللغة والعمل فإنها تأخذ الآن صورة تأخر في التخصص . وبهذا المعنى يكون

التأجيل في التلاؤم وظيفة من وظائف التلاؤم نفسه . التلاؤم هو منعطف طويل بين الإنسان وقدراته . زد على ذلك أن الثقافة المنزهة عن المنفعة ، أو «النظرية» بأوسع معاني الكلمة لاترتد ، حتى من وجهة نظر تقنية ، الى وظيفة تأجيل التلاؤم ، حتى من وجهة النظر التقنية فنحن نعلم اليوم أن وقت الفراغ المستخلص من إنتاجية العمل يطرح مشكلة تميل إلى أن تصبح في مستوى مشكلة (التوافق مع العمل) من الأهمية ، الا وهي مشكلة (استخدام وقت الفراغ) . يجب على كل ثقافة بعد الآن أن تهيء للعمل ولوقت الفراغ ، على إيقاع (العمل - اللهو) . والإنسان ، الذي يستخدم في وقت الفراغ خيرات وخدمات تضعها التقنية تحت تصرفه ، يواجه حلقة جديدة من المشكلات لاتعود تطرح نفسها في عبارات تقنية عن التلاؤم ، بل في عبارات اخلاقية عن ضبط النفس . بل ينبغي القول إن كل ضبط للنفس يتضمن القدرة على التحلل من الأشياء التي نسعى إلى أن تكون لنا سيطرة عليها لكي نستمتع بها . إن هذا التحلل لايتحقق دون قدر معين من الاحتجاج ضد الاختصاص . وإني لأقول ، على مافي هذا القول من مفارقة ، إن كل ثقافة لاتدخل تأخيراً على التلاؤم وحسب وإنما تدخل أيضاً عاملاً من عوامل عدم التلاؤم أو إبطال السحر التقني أو عدم الخضوع لهذا السحر ، لايستطيع الإنسان العصري دونه أن يستخدم خيرات الحضارة استخداماً جيداً . وإن الثقافة لايمكن لها - ولاسيما في اقتصاد منهك للقوى كهذا الاقتصاد الذي يبدو أننا نزداد اتجاهاً نحوه شيئاً فشيئاً - أن تعرف بعبارات التأخر في التخصص - أي في التوافق - وحسب ، ولكن يمكن لها أيضاً أن تعرف بعبارات عدم التوافق مع الخيرات التي تؤلف أكثر فأكثر عالم « المباشرية » . وعلى هذا النحو تكون مهمة الثقافة أن تحرض تحريضاً دائماً على نقل الرغائب من الخيرات المباشرة

التي أنتجتها الحضارة التقنية نحو خيرات أصعب منالاً ، نحو مسرات ثقافية أشد تعقيداً وأكثر ندرة . إن وظيفة عدم التلاؤم هذه بالنسبة إلى المباشرية ـ هذه الوظيفة التي يبدو لي أنها مشكلة وقت الفراغ الكبرى (وبصورة عامة مشكلة الاستمتاع بالخيرات التي نستهلكها) ـ توقع الارتباك في كل فلسفة الثقافة شديدة الذرائعية (البراجماتية) في الثقافة ، وفي كل فلسفة تتصور الإنسان من خلال عبارات التلاؤم مع البيئة . أو ينبغي القول ـ إذا كنا نريد بأي ثمن المحافظة على هذا المفهوم في التلاؤم لضمان الاتصال بين علوم الإنسان والعلوم الطبيعية ـ ان تلاؤم الإنسان مع العالم المصطنع المؤلف من آثاره يتضمن قدراً معيناً من عدم التلاؤم مع الأشياء الداخلة في نطاق رغائبه الأولية . وهذا يعدل القول ان مفهوم التلاؤم يدمر نفسه بنفسه لدى احتكاكه بهذه البيئة المتصفة بالمفارقة ، هذه البيئة التي يخلقها الانسان لنفسه بواسطة تاريخه الثقافي .

هذا هو السبب الذي يجعلني أرى في تكريس الجامعة ذاتها لقدرات اللغة كلها شكلاً من أشكال « هـــذه الخدمة التي تقدمها الكلمة للعمل » . يجب على جامعتنا أن ترفض الانزلاق على منحدر التقنية ، وأقصد به التعجيل في ملاءمة الانسان مع مهنته وذلك بمقدار ما تكون الثقافة التي توفرها ثقافة حية (وهذا يطرح مشكلة أخرى لا ينبغي خلطها بمشكلة القصد الأساسي من مشروع تعليمي بصورة عامة) . إن بوسعها ، ومن واجبها، أن تتأبى على ذلك لأسباب تكنولوجية مستمدة من الشروط اللازمة للتلاؤم مع تقنيات المهن تلاؤماً جيداً ، ولأسباب أخلاقية مستمدة من الشروط اللازمة لاستخدام خيرات المتعة استخداماً جيداً في وقت واحد . إن هاتين السلسلتين من الأسباب يعيدانها إلى وظيفتها التقليدية ألا وهي خدمة الكلمة . ولهذا أجد نفسي متفقاً اتفاقاً كاملاً مع عبارات مثل

العبارات التالية : « إن الاستعداد للتعلم وللتلاؤم فيما بعد ينبغي أن يكون غرض التعليم الأول ، وبالأحرى غرض التربية » . - « إن عصرنا يعرف أنه أنه يجب انقاذ المختصين من طغيان الأشياء بأن تُقدَّم لهم وسائل الوصول إلى ثقافة إنسانية ، طالما أنه حكم على البشرية بأن تصبح جماعة من المختصين أشبه شيء بوكر « نحل » » .

وعلى كل حال ، فإن هذا النداء الذي يوجهه عالم التقنية إلى الثقافة هو أيضاً النداء الذي توجهه إليها الديمقراطية السياسية . إن ارتباط هذين المطلبين ببعضهما متناسب مع الوسائل النفسية التي تستخدمها الدولة أو الحزب ، وهي وسائل لإغراؤها شبيه بإغراء الدعاية في الحياة الاقتصادية . إنني أؤيد ، من هذه الناحية ، تصريحات ألتوسير (Althusser) الليبرالية بكل معاني الكلمة حول (صف الفلسفة) ، التي يرى فيها «مدرسة التفكير » و«النقد» والتحرير الثقافي» . وأخيراً ، إن وظيفتي الثقافة متصلتان : وظيفة « النظر » في مواجهة التخصص والتكوين المهني المبكر ، ووظيفة التفكير في مواجهة الضغط الديكتاتوري يصدر من الميدان السياسي .

٢ - والآن ، إذا قاربنا المشكلة على شكل أدق ، وإذا انتقلنا من أكثر قصد من مقاصد الثقافة اتصافاً بالعمومية إلى مسألة مكان « الانسانيات » الشرعي - لا أقول اللاتينية - في الثقافة ، واجهتنا مشكلة جديدة : هل صحيح أن استخدام البورجوازية الثقافة بوجه عام ، و « الإنسانيات » بوجه خاص ، لكي توطّد سيادتها من حيث هي طبقة وتدعمها ، يبرّر نقداً جذرياً يوجَّه إلى هذه الثقافة وإلى هذه الإنسانيات - أعني نقداً يستبعد استعادة المعنى لأجل نمط

آخر من الحضـــارة ، وبكلام أكثر تواضعاً ، لإطار اجتماعي آخر لتعليمنا الثانوي ؟

إنه لمن الأمور الواقعة « أن أبناء الجامعة صورة مقلوبة عن السكان العاملين . وعلى هـذا النحو نجد أن العمال الذين يشكلون ثلثي السكان العاملين يؤلفون تسع أبناء الجامعة ، في حين أن الطبقات البورجوازية أو المتوسطة ، التي تشكل الثلث الأخير ، تؤلف ثمانية أتساع طلابها » . هناك ، إذن ، معركة يجب أن تُشَنّ لكي نحطم « هذا الجمود الذي يحرم ثلثي (أبناء هذه البلاد) من إرث الثقافة » ، لكي تزول الثقة بين تركيب مؤسساتنا المدرسية الاجتماعي وبين تركيب الأمة . بيد أننا نقع في ارتباك تام عندما نخلط بهذه القضية قضية « الثقافة العقلية » (Intellectualisme) في تعليمنا الثانوي ، أو قضية «التجريد» المفصول عن الحياة ، أو قضية « صورية التعليم » (Formalisme) الحالية من التأثير في الواقع . إن في هذا المشكلة بالتأكيد ، وسنقول فيها كلمة فيما بعد . غير أن هـذه المشكلة التربوية تتعلق بطريقة تعليم الإنسانيات ، فلا ينبغي أن تختلط مع المشكلة الاجتماعية المتعلقة بالدلالة البورجوازية « للإنسانيات » . علينا ، بالعكس ، أن نطرح بأكبر قدر ممكن من الصرامة ، لا مشكلة الدور العام الذي يلعبه تعليم المواد النظرية التي يشكل مجموعها الثقافة ، بل الدور الخاص الذي يلعبه تعليم « الإنسانيات » في مجتمع عصري آخذ في التصنيع السريع . إن اتهام تعليمنا الثانوي بأنه تعليمُ طبقةٍ شيء ، والتـــأمل النقدي في وظيفة الإنسانيات في مجتمع غير بورجوازي شيء آخر . وصحيح تماماً أن الثقافة غير المتخصصة تعمل في الوقت الحاضر لصالح طبقة توطد هيمنتها على عمل الآخرين بملكها ناصية الكلام ، وأخيراً بالبلاغة ، غير أن مهمة المستقبل هي ، على وجه

التحديد، تحرير الدلالة الكلية في الإنسانيات من وظيفتها المباشرة أو غير المباشرة في الاستغلال الاجتماعي ، بتعميم فائدة هذه الانسانيات على الجميع .

ولا تبدو هذه الوظيفة الكلية في « الانسانيات » إلا إذا فصلنا مصير الثقافة التقليدية (الكلاسيكية) عن تعلّم اللغات الميتة من جهة أخرى . إن مشكلة اللاتينية هنا هي أنها الشجرة التي تخفي الغابة . فليس صحيحاً وحسب أن مشكلة اللاتينية لا تتطابق مع مشكلة الانسانيات اليونانية - اللاتينية ، بل إن هذه لا تتطابق مع مشكلة الانسانيات إذا أخذت في جملتها .

ان مشكلة اللاتينية لا تستنفد مشكلة الدراسات التقليدية، وإن الدراسات التي وضعت في هذا المجال لم تأت امراً إدّاً ، بل تعمل عملا ثورياً عندما قالت إن فتح ابواب الأدب اللاتيني واليوناني مشكلة متميزة من مشكلة تعلم اللاتينية (وتعلم اللاتينية في الأندر) . وفي الحقيقة إن هذه القطيعة قد تمت من قبل ، ونحن نخفيها عن انفسنا بقدر الامكان . إن تلاميذنا لم يعودوا يبلغون الثقافة القديمة بدراسة اللغات الميتة . واسوأ من ذلك أن الوهم القائل إن تعلم اللغات الميتة هو الطريق الملكي المؤدي الى محراب الروح القديمة ، مسؤول عن نظام يحرم غالبية أولادنا العظمى - أولئك الذين « لايدرسون اللاتينية » - من هذه الثقافة . إن واجبنا هو أن نعيد ، وبالأحرى أن نمنح أخيراً الى الجميع الثقافة اللاتينية واليونانية في «الجذع المشترك» للتعليم الثانوي ، تلك الثقافة التي لا تستطيع منحها في الوقت الحاضر الا قراءة آثار الأقدمين ودراستها من خلال الترجمات . فليس من الانصاف ان يكون هوميروس وإسخيلوس وأفلاطون ولوكريس وتاسيت مقصورين على اولئك الذين لايستطيعون ، في آخر الأمر ، ان يقرؤوهم في نصوصهم الأصلية ، ولكنهم قادرون في احسن الأحوال ان « يكتبوا بفرنسية

جيدة ، عشرين سطراً لمؤلف من المؤلفين في ثلاث ساعات من العمل . إنني لأسمع الاعتراضات : المرء لا يبلغ ثقافة من الثقافات بالترجمات ! أعترف بان هذه الحجة لا تؤثر في اي تأثير . فمن الواضح انهـــا صالحة بالنسبة إلى تكوين المعلمين ، لا بالنسبة الى تعليم الأطفال ، جميع الأطفال ، ثقافة ، ولا سيا ثقافة لغة ميتة . ولقد اكتشفنا ، كلنا تقريباً ايضاً ، تولستوي ودوستويفسكي وكير كيجارد في الترجمة ، وكذلك ولا ريب شيكسبير وسيرفانتس ودانته ، أليس كذلك ؟ان اللغات موجودة لكي نتكلمها – اذا أمكن – ولكي تترجم لعدم امكان ماهو افضل . الترجمة مصير اللغات الطبيعي ، ولا سيا اذا كانت ميتة . فالترجمة اختبار (الكلية) وبرهان عليها . وطوبى لأولئك الذين يقرؤون (؟) ، فوق ذلك ، جوقات اسخيلوس في نصوصها الأصلية !

إن المشكلة الحقيقية ، كما أشعر ، هي أولاً خلق تعليم حقيقي يتناول الانسانيات القديمة مستقل عن فك رموز اللغات الميتة (الذي يتميز بصفات اخرى غير انه واهي الصلة بالثقافة اليونانية – الرومانية) . وهي ثانيا إيجاد التوازن الصحيح بين الانسانيات القديمة والانسانيات الحديثة . إننا نتصدى ، مع هذه النقطة الثانية ، إلى وجه مشكلة الانسانيات الثاني : فمشكلة الانسانيات اليونانية – اللاتينية ليست مشكلة الانسانيات برمتها . الحقيقة ان مكان الثقافة اليونانية – اللاتينية اليوم موضع نزاع حتى في قلب ذاكرتنا الثقافية . فلقد انتقلنا شيئاً فشيئاً من نظام ثقافي محدد بماضينا المتوسطي وحده تقريباً الى نظام ثقافي محدد ايضـــاً بالثقافات الحية في العالم بأمره . ان الثقافة اليونانية – اللاتينية وراءنا ، والثقافات الأجنبية بجوارنا ، تتنازع مكان الصدارة في أنفسنا . اليوم تعلمنا الثقافات الانجليزية والألمانية والأسبانية والأيطالية والروسية وتحاصرنا ، وغداً يدق الشرق الأقصى

أبواب فهمنا وحساسيتنا بمزيد من الالحاح . وانني ، من جهتي ، أدافع دفاعاً قويا عن الانسانيات اليونانية – اللاتينية (الجديرة بهذا الاسم) ضد مبالغة في نزعة التحديث ، قائمة على الحجة القائلة ان ثقافات عالم اليوم وحدها ثقافات حية . ان مشكلة الانسانيات اليونانية – اللاتينية هي هذه : هل نستطيع ان نعرض انفسنا بغير حساب لتأثيرات عالم اليوم الشديدة التباين كلها دون ان نعيد في الوقت نفسه غرس جذورنا في أصولنا ، لكي نصون متانة شخصية ثقافية اصيلة في هذه المنافسة الكبرى التي لا تنفك تتسع جغرافياً وتغدو اكثر عمقا . ان الثقافة اليونانية – اللاتينية هي الوسيلة الممتازة لاعادة التوازن الى الروح العصرية التي تزداد انسياقاً مع النزعة الثقافية الى التعلق بما هو اجنبي (Exotisme) . ينبغي المرء ان تكون له « ذات » لكي يتواصل مع « الآخرين » . وينبغي ان تكون له ذاكرة ووفاء لكي يصغي الى الآخرين ويتعلم منهم .

ليس علينا ، اذن ، ان ندافع عن اللاتينية ، ولكن علينا ان نرمي اساساً للإنسانيات وان نعممها لجميع الأولاد في « الجذع المشترك » من التعليم الثانوي . وعندما تفهم الانسانيات على هذا النحو ، فانها تتجاوز مصير المجتمع البورجوازي .

ان الثقافة اليونانية – اللاتينية (المتميزة هي نفسها من تعلم اللغات الميتة بوصفه تمريناً تربوياً) لتعثر ، في نهاية المطاف ، على حقيقتها في تعليم ثانوي مشترك بين الجميع ، ويستمد عناصره من طبقات المجتمع بأسرها ، ويكون على صورة هذا المجتمع . بعد هذا لن تكون الثقافة اليونانية – اللاتينية الأداة والزينة اللفظية في يد طبقة مسيطرة بل تكون في ذاكرة هذا القطاع من الانسانية الذي آل مصيرنا اليه اليوم على هذا الكوكب . ولن تكون تمريناً

مبتوراً وسوبياً يمارس على جثة لغوية ، بل تكون قراءة حية للآثار الكبرى التي تهب البشر جانباً من انسانيتهم .

٣ - هل يعني هذا أنه لا توجد مشكلة حول «المدرسة والحياة» ؟ . إن الأمر على العكس ولكن هذه المشكلة لا تدور حول توجيه تعليمنا بقدر ما تدور حول تربوية هذا التعليم . ان الحياة التي يفتقر اليها تعليمنا هي قبل كل شيء حياة الآثار والأفكار المفروض أن ينقلها . واذا أخذنا مثالاً من الميدان الذي تركناه لتونا - ميدان الانسانيات - نجد أن ما يؤخذ على هذا التعليم ليس أنه لا يصل بـ « الواقع » و بـ « الحياة » - فهذه المآخذ تتجاهل تجاهلاً تاماً المسافة التي تقيمها الثقافة بينها وبين الواقع والحياة بواسطة اللغة والآثار المكتوبة . ان ما نأخذه عليه هو انه قطع الصلة بينه وبين مضمونه الانساني ، وليست الخشية من عدم اعطاء التعليم العلمي والتقني مكانه بقدر الخشية من أن يغير الجانب الغير علمي من تعليمنا روحه وطرقه . وينبغي أيضاً ألا يقتل هذا التعليم الانسانيات بل يرد اليها الحياة وينقل هذه الحياة الى الفتيان . هذه هي المشكلة الحقيقية ، فاذا لم نضل في جانب المشكلات الزائفة ، مشكلات « الانفصال بين الكلمة والممارسة العملية المعاصرة » ، على وجه التحديد ، تصل مشكلة « الحياة الخاصة » بالثقافة المنقولة بالكلام الى أوج حدتها .

واذا بحثنا في هذا الاتجاه ندخل في سلسلة من المسائل أبعد بكثير من مسألة إصلاح المناهج . واذا كان للمرء أن يأخذ شيئاً على الدراسات التي وضعت فهو عدم إعطاء نقد نظام الدراسة عندنا - ذلك النظام المطبوع الى حد كبير بطابع تقاليد اليسوعيين والكلية النابليونية - قدراً كافياً من الاطناب . وانني لأخشى من أن تبقى « مشروعات التنظيم » ، التي تميل الى أن نجعلها واصلاح التعليم

شيئاً واحداً — حبراً على ورق ، اذا لم نطور الحياة المجتمعية التي تولد من نقل الثقافة بالكلام تطويراً عميقاً . إننا لنستنفذ جهودنا في بناء مشروعات مزخرفة وفي اصلاحات بنيوية معرضة للالغاء بفعل بقاء عين الضلالات المعتادة في حياة الصف وفي نظام الامتحانات : فانا لا أرى ، مثلاً ، إمكان نقل « الانسانيات » (اليونانية - اللاتينيـــة والحديثة) دون تغيير عميق في شيمنا (MŒURS) المدرسية . فالآثار الكبرى تقتضي قراءات غزيرة ، ومناقشات موجهة في زمر درسية قليلة العدد ، يحذف منها ما لا يزال باقياً من علاقة السيد بالعبد في دروسنا المنبرية ، وأخيراً أسئلة وأعمالاً مكتوبة داخلة في صلب الامتحان النهائي . وأكرر القول ان الحق في الاحتجاج على تصور للتعليم نفعي ، وعلى غزو من التكوين المهني المبكر ، يجب ان يستحق وان يكتسب بحيوية تعليمنا للانسانيات . الحياة ؟ انما ينبغي خلقها في المحتوى الثقافي نفسه .

وانه لأكثر من واضح ان نظامنا في الامتحانات ومسابقات القبول هو مفتاح مشكلة المدرسة والحياة هذه . وان اصلاحاً للتعليم يقتصر على تغيير المنشأ الاجتماعي لطلاب مدارسنا وبتعديل حلقة المناهج في « جذع مشترك » للثانوي ، سيكون عديم الجدوى ، اذا لم يضع الفأس على بناء الامتحانات ومسابقات القبول لدينا . وقد قالها اندريه لاتري (Latreille) بقوة : « ان هذه الابتكارات في الامتحانات ، او المحافظة عليها ، أو تعزيزها نتيجة مؤامرة من قبل عناصر الأمة بأسرهم تقريباً » . ان عبودية المعلمين المناهج ، وحشو رؤوس التلاميذ ، وتزييف حياة الصف المجتمعية بالانشغال سلفاً بالامتحان أو المسابقة ، ورصف سلسلة طبقات من اصحاب المناصب في الأمـــة ، هي أيضاً أمراض مهنية في اللغة استثارها في حياة التعليم هوس الامتحانات . يجب أن نعترف بأننا لم نستخلص

النتائج من هذا النقد الخالي من الخطأ والأسفاه. ان دراسة كاملة لاصلاح التعليم كان ينبغي عليها أن تأخذ مشكلة الامتحانات ومسابقات القبول هذه من ناصيتها. والمفتاحان هما (البكالوريا) و (الأغريغاسيون)، ولعله كان ينبغي على الأرجح أن أضيف مسابقات الدخول في كبريات المدارس، ولكنني لست مطلعاً على الموضوع اطلاعاً حسناً.

أما فيما يتعلق بالأغريغاسيون، فإنني لا أستطيع أن أقرأ دون حزن لأن مهنتي هي الاعداد لهذا الفحص ـ الحملة اللاذعة التي لا رحمة فيها الموجهة إلى الأغريغاسيون والتي كتبها أربعة من المتقدمين إليها والفائزين بها رغم ذلك: ان لدينا جميعاً شعور بأن ماهو جوهري في ثقافتنا، قد حصلنا عليه من خارج الأغريغاسيون، قبلها أو بعدها». . «ان مسابقة الأغريغاسيون، في الواقع، في دائرة اختصاصنا على الأقل، لا تنسجم مع أي هدف من الأهداف التي يمكن تحديدها لها تحديداً معقولاً». . «ياله من رياء مضحك ذلك الذي أجبرنا شهوراً على أن نتباهى في فراغ عقلي تام!». . «اننـــا، جميعاً، مفرغون تقريباً، ولا ندري لأية مدة من الزمن، ولسنا، من ثم، أهلاً لأية مهمة تتطلب منا نقلاً من الحياة الى الآخرين..»، وضحايا المسابقة!... وضياع الأمل والصحة النفسية الذي يمثله الإخفاق!... ان كل جملة من هذه الحملة اللاذعـــة تصيبني في قلب مهنتي. وانني لأخشى أن تكون صحيحة وألا يكون هناك من سبيل آخر لإصلاح الأغريغاسيون سوى حذفها بكل بساطة. أنا لا أجهل خطورة اقتراح كهذا، فإن قدراً عظيماً من البهاء ـ في فرنسة وفي الخارج ـ قد ارتبط بهذه المؤسسة الفرنسية الخالصة. ولكن عندما تنقطع روح الطبقة المتميزة واحترام الأشياء القديمة عن اعماء بصيرتنا، فإنني أخشى أن يصبح من الواجب حقاً أن

تسلم بالبداهة . فربما كانت هذه العملية الجراحية شرطاً لصحة الجسم برمته . وربما كان من الواجب انتظار أن تثبت شهادة الأهلية التربوية للتعليم الثانوي الجديدة ميزاتها حتى نستطيع أن نضع الفأس بهمة على أصل (C. A. P. E. S) شجرة الأغريغاسيون . إن العيوب الثقافية في الاعداد للأغريغا سيون تبدو لي بالغة من الخطر حداً لاتعوض عنه ميزات العناصر المتفوقة التي يتيح هذا القسر استخلاصها . وما نرجه في بداية حياة المتفوقين الدراسية ، ألا يمكن الحصول عليه من عدد أكبر ، لو أن الجامعة تطلب مزيداً من الجهد الثقافي بعد امتحانات القبول : إن نظامنا لايدخل في حسابه مايعلمه المرء وهو يعلم ولكي يعلم . إن نظام الحواجز المتتابعة لدينا لايتطلب أبداً من المرء ، والحق يقال ، أن يثقف نفسه بعد أن يلج حياته المهنية ، بل لعله يثبط من همته لبذل جهد ثقافي لاحق .. ولعلي أشهد يوماً عن طيب خاطر إقامة نظام تسلسلي – في الترقيات والمكافآت الملحقة بالمرتب – تابع لعمل المعلمين بعد دخولهم في الوظيفة . ولعله يجب أن تأخذ (دكتوراه الجامعة) المكان الذي تأخذه في معظم البلدان الأخرى . ويبدو لي ان روحاً في البحث اكثر حرية ، وعملاً اكثر عفوية ومرحاً وتوازناً فكرياً اعظم يمكن ان ترتبط بهذا اللقب اكثر من ربطها بالأغريغاسيون. وأخيراً ليس على الجامعة ان تشجع عمل المعلمين واللاحق – المسابقة ، وتكافىء عليه وحسب ، بل يجب أن تتيح له الفرص وتخلق الميل اليه : سنة تتخللها الفرص ، رحلات ، محاضرات اختصاصية ، الخ .. ان الفكرة العامة هي التالية : بسط الجهد المركز في الوقت الحاضر في قسر الأغريغاسيون على الحياة المهنية .

أعتقد بأن المنزل بكامله يبدأ من جديد في التنفس والحياة إذا حُرِّر صرحنا الجامعي من فوق ، وشفي من مرض الامتحان المزمن . وقبل كل شيء

كليتا الآداب والعلوم لدينا . ويعدّ للحصول على الاجازة (الليسانس) بروح أفضل ، إذا انحسر عنها الأغريغاسيون . وإذا أضيفت إلى ذلك إصلاحات ملحقة (توسيع نظام الذين يحتفظ بهم على هـــذا النحو في الكليات بدلاً من تركهم يضيعون في قسم بعيد من الأقسام الداخلية والذين يستفاد منهم كحلقة اتصال بين عمل حلقات البحث وإعداد الأعمال المكتوبة من جهة ، وبين تعاليم الأساتذة والأعمال التطبيقية من جهة أخرى ؛ وتطوير الفعاليات الثقافية التي تصل بين التدريبات المفصولة عن بعضها في وقت مبكر جداً بالنسبة إلى عمر الطالب ، وتشجيع الثقافة الخارجة عن نطاق الجامعة وكذلك الحياة الجماعية بين الطلاب إلخ ..) وربما كان من الواجب أيضاً إدخال درجات الأعمال الكتابية أثناءالسنة ودرجات الاعمال الشخصية الحرة في صلب الدرجةالنهائية للإجازة بصورة رسمية . إن الفكرة العامة ما تزال تخليص الثقافة من قيد الامتحان والمسابقة الثقيل ، لأن هذه هي « الحياة » في العالم الحديث الذي تؤلفه الجامعة .

أما البكالوريا ، فان اقتراحاتنا بالنسبة اليها كانت موجزة إلى حد ما ولكنها موجهة توجيهاً جيداً : « بوسعنا أن نخفف من آثار « الامتحان » بقصر الاختبارات على اختبار شفوي للطلاب الذين تفوق معدلاتهم السنوية درجة معينة ويكمل هذه الاختبارات بمحادثات مع المرشح ، يخفض فيها نصيب الذاكرة والتمارين الأكاديمية بوجه خاص . ويلح زادو ـ نايسكي (Zadou - Naïsky) أيضاً على دور « اختبارات القابلية » والاعمال الشخصيةالحرة . ينبغي الاعتراف بأن هذا كله يظل غامضاً ويستدعي دراسة منظمة . ويخيل لي أن الفكرة العامة ينبغي أن تكون تحويل البكالوريا إلى (دبلوم إنهاء الدراسة الثانوية) ، وفي هذا الدبلوم : ١ ـ تدخل الدرجات المعطاة للاعمال المنفّذة خلال السنوات

الأخيرة (أو السنة الأخيرة) في صلب الدرجة النهائية . ٢ - يُحَدُّ من اتساع الامتحان بالنسبة الى الطلاب الجيِّدين . ٣ - يُجرى الامتحان في المدارس نفسها على مسؤولية لجنة مختلطة مؤلفة من أساتذة المدرسة الذين يعرفون المرشح ، ومن أساتذة من خارج المدرسة لا يعرفونه، لكي تجمع حسنات الموقفين وتخفف سيئاتهما .

لا أظن ، في أية حال ، ان الامتحانات شر في حد ذاتها . ان لها مالكل مكافأة من قيمة فهي تحفز من الخارج على بذل الجهد بالثواب والعقاب وهي تعبير عن العدالة والمساواة في الوصول الى المهن العامة والخاصة . وهي ذات قيمة معينة بوصفها مقياساً للقابليات والمعرفة . ليست المشكلة ، إذن ، مشكلة تصبح نمطاً من انماط الفساد الاجتماعي . ليس من ريب في اننا قد تجاوزنا ، في فرنسا ، هذه النقطة الحرجة ، وعلامة الانذار هذه ، ولا شك في أن اصلاح نظام الامتحانات والمسابقات لدينا لايقل أهمية عن إصلاح « خطة الدراسة » الصرفة ، في صورة اصلاح التعليم الجملة .

٤ – وفي الختام ، اضيف أن مشكلة « المدرسة والحياة » لاتبدو لي مقتصرة على تربوية الصك ونظام الامتحانات ، بل لها علاقة مؤكدة بمشكلة اخرى هي مشكلة « المدرسين » : المدرسة العامة والمدرسة الخاصة . لقد وضعت لهذه المشكلة دراسات كثيرة ، أهمل فيها ارتباط المشكلتين ، ولا سيا ارتباط حلول المشكلتين . وبمعنى ما ، كان عملا حكيما عدم خلط المسألتين وعدم جعل اصلاح التعليم العام متعلقاً بالحل المعطى للمشكلة القومية والسياسية الناجمة عن نظام المدرسة ، تلك المشكلة الواقعة الآن في (مأزق) .

اذا كان نظام الامتحان لدينا يبلغ هذا من القسوة والصلابة ، أليس مرد

ذلك الى انه يجب ايجاد موازنة بين ابناء المدرستين امـــام محكمين غرباء عن دراساتهم ! واذا كان جهازنا الاداري لا يترك الا مثل هذه المساحة الضئيلة للمبادرات المحلية والابتكارات والمغامرات التربوية المطبوعة بطابع شخصيات موهوبة ، أليس مرد ذلك الى ان الدولة اضطرت الى ان تقيم في وجه المدرسة الطائفية جهازاً وحيد الطرف يوحدها مباشرة نظام مركزي ؟ والنتيجة هو اننا ننهك قوانا في بناء مشروعات مزخرفة فرض فيها أنها تحدث ثورة مدرسية من اسفل الى اعلى ومن أعلى الى اسفل . ولكننا خاضعون لنظام قانونه (الكل أو لا شيء) . وان التجريب الحر والمحدود لمستحيل فيه تقريباً بل وغير معقول . بل ان اصلاح التعليم ليبدو ، فوق ذلك ، وكأنه اصلاح جزئي في جهاز الدولة ، ولا يبدو ممكنا خارج نطاق حركة تجديد تتناول المؤسسات الاخرى . فاصلاح التعليم اذن لم يتم لأن الاصلاحات الأخرى لم تتم .

هنا تبدو لي الحلول ، التي اقترحناها لحل النزاع بين المدرستين ، صالحة لحل مشكلة الحياة المدرسية . كنا قد اقترحنا ان تعطى الجامعة – من الناحية القانونية - نظام مؤسسة مستقلة ، متميزة من الادارة العامة ، يديرها الاساتذة والأسر وممثلو الدولة . وكنا قد اقترحنا ان تكون الجامعة جامعة الامة هذه ، أي هيئة اجتماعية مفصولة عن الدولة ، ذات بنيات متعددة تتوافق مع الحد الأدنى من الوحدة في جهاز عضوي منسجم ، بحيث تدخل في صلبها ، صيغاً جغرافيـة متباينة ، وصيغاً تربوية مختلفة ، وتجارب اصيلة ، لاتقاليد متصلبة وحسب . وانني لمقتنع بان جميع الاقتراحات لا تجد مجال تطبيقها الا في جامعة مستقلة كهذه .

وانني لأشك ، بوجه خاص ، في شفائنا من مرضنا ، مرض الامتحان المزمن ، طالما ان قطاع الامة التربوي لم يسلخ عن الدولة ، كقطاع متميز ، وطالما

أن هذه الجامعة لم تباشر بإبطال مركزيتها إبطالاً جذرياً .

قد يقال لي : كيف تستطيع أن تدعو في وقت واحد الى « الجذع الوحيد » في التعليم الثانوي والى ابطال هذه المركزية الجغرافية والوظيفية في الجامعة ؟ إنني لا أرى أي تناقض بين توحيد في خطة الدراسة يتعين على كل مؤسسة أن تحترمه ، وابطال مركزية التجربة التربوية من جهة ، وبين توزيع الدرجات الجامعية من جهة خرى . لقد حصلنا على إبطال المركزية هذا في الإجازة (الليسانس) مثلاً ، حيث بنية الشهادات هي قضية قومية ، وسير الدراسات وتقدير المرشحين قضية داخلية من قضايا الكليات . ويخيل إلي أن مشكلة فرنسا هنا مشكلة خاصة ، مختلفة جداً عن هذه المشكلة في البلاد الأنكلوسكسونية مثلاً . ففي هذه البلاد ، وفي أمريكا بوجه خاص ، تجد تشتت الدرجات الأكاديمية تاماً . فان لشخص يحمل درجة ماجستير من هذه الكلية أو من هذه الجامعة هو من مستوى ذلك الذي يحمل الدرجة ذاتها من جامعة اخرى من مستوى آخر . فالتجارب التربوية متنوعة ، وحتى فوضوية . ومؤسسات الدولة (وهذه المؤسسات ليست ، في الولايات المتحدة ، مؤسسات اتحادية أبداً) تمد تشعباتها الذاتية عبر هذه المتاهة من المؤسسات الخاصة ، ذات المستوى الرفيع في أغلب الأحيان . ليس من واجبنا أن نقلد هذا النظام ، فكل بلد يرث بنية تربوية متصلة بمغامرة قومية لاتقبل التقليد بحال . إن المرء لايختار أجداده على هواه . فعليه أن يعمل - إذا أمكن القول - مع أولئك الذين يمنحه إياهم التاريخ . علينا ، إذن ، أن نصون إرثاً معيناً يتميز ، بوجه خاص ، بشبكة قومية من الدبلومات وبخطة قومية للدراسات . وليس من واجبنا أبداً أن نخلق الظروف لانتشار الفوضى في الدرجات الأكاديمية خلقاً مصطنعاً ، تلك

الفوضى التي ربما تلاءمت معها أمة أخرى بحكم العادة . ولكن ينبغي علينا ـ فيما أعتقد ـ أن نمضي الى أبعد حد ممكن في اتجاه استقلال الادارة والابتكار والتجربة ، دون أن نبطل ، لأجل ذلك ، وحدة المستوى التقريبية في منح الدرجات الجامعية ، ودون أن نخرّب وحدة القصد وخطة منهاج الدراسة . وبكلمة مختصرة ، علينا أن نجعل خطة الدراسة لدينا من جديد عضواً متصلاً بـ « جذع مشترك » هو التعليم الثانوي وأن نجعل الوحدات التربوية وحدات مستقلة في الوقت نفسه . هنا يأخذ مثال البلدان الأخرى قيمته . فبوسعه أن يشفينا من نزعتنـــا الاعتقادية الذاتية (Dogmatisme) ، بأن يكشف لنا أن تجربتنا التربوية جائزة (Contingente) ، شأنها في ذلك شأن تجربة غيرنا ، وبوسعه أن يحفزنا الى تصحيح عيوب نظامنا ، وهي غالباً عكس عيوب بلد أجنبي معين ، ولكنها أيضاً ثمن المزايا الحقيقية التي يعترف الأجنبي لنا بها .

بهذا المعنى تبدو لي مشكلتا « المدرسة والأمـــة » و « اصلاح التعليم » مترابطتين رغم الظروف التي تجبرنا على فصلها . إن نداء الحياة ، في إطار مؤسسة قوامها اللغة ، ليؤدي الى تساؤلات جذرية . ولكن نداء الحياة لا يستطيع أن يسوقنا الى انكار أنفسنا من حيث كوننا معلمين ، والى الشعور بالعار من أننا نتكلم وحسب . لأنه ، في نظرنا ـ نحن المعلمين ـ ليست لدينا من رغبة ، عبر جميع مشروعاتنا لاصلاح التعليم ، سوى أن يصبح في وسعنا ـ في نهاية الشوط ـ أن نتكلم في صفوفنا .

الرأسمالية اليابانية (١)

ترجمة واعداد : ميشيل كيلو

هذه الدراسة أقرب إلى التحقيق الصحفي، ولكنها تملك ميزة هامة جعلتني أقوم بترجمتها إلى العربية ، فهي تدحض بالارقام مايشاع عادة في الادبيات الاقتصادية الرأسمالية حول « استثنائية » التجربة اليابانية التي تمثل ، كما يقولون ، دحضاً واضحاً لافكار الاشتراكية العلمية ، لأنها لاتخضع للتناقض المستديم الملازم للرأسمالية ، تناقض « رأس المال - العمل » . هذه المقالة توضح عمق تورط الرأسمالية اليابانية في هذا التناقض وغيره من التناقضات ، وحدة الازمة العامة التي تعاني منها ، ويعاني منها المجتمع الياباني بأمره .

«المترجم»

---

(١) عن مجلة (الشبيغل) الالمانية .

إن لديهم أسرع قطارات العالم ، وهم يبنون واحدة من كل سفينتين تمخران بحار العالم ، وينتجون الصلب في افران عليا أكثر حداثة مما لدى منافسيهم. وقد توصلوا باجتهادهم وطموحهم إلى احتلال المقعد الثالث بين أمم العالم الصناعية ، وحققوا ذلك أسرع من أية أمة أخرى . إنه « العملاق الذي لم يقدر حق قدره » ، والذي فاجأ طيلة عشر سنوات قادة الصناعة ومنظري الاقتصاد والصحافيين في العالم الغربي بمعدلات نموه الاقتصادي الاسطورية وبقدرته الفائقة على زيادة صادراته التي ارتفعت إلى خمسة أضعافها بالقياس الى عام ١٩٥٩ (مقابل مضاعفة الصادرات الالمانية الغربية ثلاث مرات منذ عام ١٩٥٩) والتي مكنت اليابان من احتلال المحل الرابع بين الأمم المصدرة ، بعد أن كانت في المحل الثامن .

في المستقبل ، هكذا كانت تقول التقديرات الاقتصادية المذعورة والمعجبة في نفس الوقت ، لن يبقى من الأمم الصناعية في الذروة سوى اثنتان : اميركا واليابان . وحتى منتصف السبعينات كان رجال الصناعة ومخططو الاقتصاد في اليابان على قناعة تامة بأن بلادهم ستستمر في تحقيق نجاحات اقتصادية عظيمة ، لا بل انهم اعتادوا التصور بأنها ستتجاوز خلال السنوات الـ ١٥ القادمة الولايات المتحدة .

واليوم ، يتضح اكثر فأكثر أن الحلم الياباني بتجاوز جميع الأمم الصناعية في أقصر وقت ممكن لم يعد حلماً واقعياً . لقد كبح ذلك العامل الذي كثيراً ما حسد الرأسماليون الاوروبيون هذا البلد الآسيوي عليه ، ونعني عامل التطوير المستمر للصناعة الخاصة بدعم من الدولة وقبول من المجتمع ، دون النظر إلى خلق شروط معيشية تليق بالانسان النمو الذي كان يبدو أنه لا يتوقف للاقتصاد الياباني .

وينعكس الآن على اليابان بصورة مريعة قصورُ الحكومة في مجال الاستثمارات العامة كبناء الشوارع والمساكن والمشافي ، وتجاهلها لمشكلة حماية البيئة من التلوث . ولا شك أن اليابان لم تبذل من الجهد لحل هذه المشاكل مايفوق مابذلته أوروبا لحلها عند بدء تطورها الرأسمالي .

وإلى جانب القذارة التي تهدد بخنق الصناعة اليابانية ، تكدر مطالب العمال بزيادة أجورهم حياة الرأسماليين وتفقدهم الرغبة في استثمار أموالهم ، وهو مايكبح بدوره وتائر النمو المرتفعة . أما الطبقة العاملة التي رباها الرأسماليون على الطاعة الاقطاعية ، فهي لم تعد مستعدة للعمل من أجل عظمة الأمة فحسب ، بل هي تطالب الآن بزيادات في الأجور لاتجرأ النقابات الاوروبية على المطالبة بها إلا فيما ندر ، وهذا ماجعل الرأسماليين يؤمنون بأن الاقتصاد الياباني سيقصر في سباق المنافسة الحالي مع غيره من اقتصاديات الدول ، وانه لذلك لن يتجاوزها ، كما كان يظن من قبل .

ويقول نائب رئيس منظمة ارباب العمل السيد ميوشي : « إن اقتصادنا لن يتطور بصورة اوتوماتيكية بنفس الوتيرة التي سبق وتطور بها ، فنحن الآن نقف أمام سلسلة من العوامل المعيقة لنموه » ، ويعترف خبير التخطيط ميازاكي بصراحة بأنه « لايعتقد بأن التشخيصات طويلة الأمد التي تقول اننا سنتجاوز الولايات المتحدة عام ١٩٨٥ هي ذات معنى ، فهي لم تعد تعدو كونها تلاعباً بالأرقام . »

والحال ان التنبؤات المتفائلة حول التطور المقبل لليابان قد نبعت من أن الطاقة الاقتصادية اليابانية قدرت في البدء بأقل مما هي ، ثم لم يلبث الخبراء أن

ستطوا في النقيض ، واخذوا النتائج الباهرة للسنوات الـ ١٥ الأخيرة كمقياس لتطور القادم أيضاً . ففي الستينات تضاعف الانتاج الصناعي الياباني سبع مرات عما كان عليه عام ١٩٥٥ – لم تستطع البلدان الرأسمالية الغربية تطوير انتاجها إلا إلى الضعفين في نفس الفترة – وكان الدخل القومي الصافي يزيد بأكثر من ١٠٪ كل سنة ، بينما لم تسجل في المانيا الغربية ذات التصنيع الكثيف سوى زيادات لاتتجاوز ٥،٢ ٪ من الدخل القومي سنوياً . أما الولايات المتحدة ، وهي اغنى دولة في العالم ، فقد وجب عليها أن تكتفي بزيادة سنوية لاتتجاوز ٤٪ .

وقد ضاعف اليابانيون دخلهم القومي الصافي خلال فترة الازدهار الأخيرة التي بدأت في نهاية عام ١٩٦٥ واستمرت ٥٨ شهراً ، فوصل إلى ٧، ١٧٧ مليار دولار . وفي عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ بلغ نمو الدخل الحقيقي ٨، ١٣ ٪ كل سنة ، ثم انخفض في عام ١٩٦٩ إلى ١٢،١ ٪ . « إن النهوض الذي عشناه بين ١٩٦٧ – ١٩٦٩ لن يتكرر مرة أخرى على الاطلاق » . هذا ما قاله مدير بنك فوجي السيد إيفازا . ومع أن وزير المالية السابق ووزير الخارجية الحالي السيد فوكودا يتنبأ للسنوات الخمس القادمة بمعدل نمو يفوق ١٠٪ من الدخل القومي سنوياً ، فإن مدير بنك فوجي السيد ايفازا وسواه من المتشائمين يعتقدون أن من الارجح أن يتطور الاقتصاد بنسبة ٨ إلى ١٠٪ كل عام وليس هناك على كل حال من خبير لا يعتقد بأن النصف الثاني من السبعينات سيشهد استمراراً في انخفاض معدلات النمو الاقتصادي . وقد صحح الواقع نفسه في العام المالي ١٩٧٠ – ١٩٧١ وللمرة الأولى منذ سنوات كثيرة تنبؤات المخططين الاقتصاديين في طوكيو ، فارتفع الدخل القومي بنسبة ٩،٩ ٪ بدلاً من ٨، ١٠ كما كانوا يتنبؤون . إن هذه النسبة

تظل أعلى من مثيلاتها في جميع الدول الصناعية الأخرى ، ولكنها أقل مما هو ضروري لتحقيق منظورات المستلقين من امثال هيرمان كان الذي تحدث عن اليابان « كقوة اقتصادية عظمى ستكسر العمود الفقري لجميع الأمم الصناعية» .

« إن الاقتصاد الياباني يواجه اليوم مشاكل لم يواجهها من قبل » ، هذا ما قاله السيد كوامای ، مدير احتكار الصناعات الالكترونية هایتاشي حول التطور المتباطيء للنمو الاقتصادي .

لم يُصدر سوى ١٠٪ فقط

تعاني الصناعة اليابانية منذ صيف العام الفائت من حالة من الجذر هي « أطول واصعب حالة منذ الحرب العالمية الثانية » ، كما قال كوتو ، احد كبار رجال الصناعة . أما أهم الاسباب لذلك فهي حالة الركود في الولايات المتحدة ، حيث يذهب ٣٠٪ من صادرات اليابان ، والانخفاض الواضح للطلب في سوق اليابان الداخلية .

وعلى كل حال فإن الطلب الهائل للرأسماليين اليابانيين على السلع الانتاجية المحلية ، ورغبة المستهلكين في الشراء هما اللذان رفعا في السنوات السابقة معدلات نمو الصناعة ، وليس النجاحات الحيالية على صعيد التصدير ، كما يظن ، فنصيب الصادرات من الدخل القومي الياباني لا يعادل سوى ١٠ ٪ ، بينما هو يبلغ ٢٣ ٪ في المانيا الغربية و ٤٥ ٪ في هولندا .

وقد انعكس الجذر الذي أصاب السوق الداخلية على صناعة التلفزيونات الملونة مثلاً . فحين عرف الشعب أن الاحتكارات الكبرى كهايتاشي وتوشيبا تبيع التلفزيونات الملونة في الولايات المتحدة بأرخص من اسعارها في اليابان

نفسها ، أجاب على ذلك بالاقلاع عن شراء هذه التلفزيونات ، ولا زال هناك حتى اليوم مليون جهاز متراكم لدى المنتجين والباعة ، ولا تعمل المصانع التي تنتج هذه الاجهزة إلا بـ ٦٠ أو ٧٠ ٪ من طاقتها في هذه الأيام . وقد انخفضت ارباح هايتاشي بنسبة ٣٠ ٪ وأرباح توشيبا بنسبة ٤٠ ٪ . وكما أصابت الخسائر هاتين الشركتين ، أصابت سواها من الشركات . وطبقاً لحسابات أكبر الجرائد الاقتصادية في اليابان انخفضت الأرباح في جملة الصناعة اليابانية بنسبة ٥٫٨ ٪ المرة الأولى منذ خمس سنوات ، أما في الصناعات التحويلية فقد بلغت ١٠٫٩ ٪ . وليس هناك من نموذج يوضح تطور مختلف الفروع الصناعية التي بالغ قادتها في الاعتماد على قابلية السوق لامتصاص سلعها ، بقدر الصناعة البترو كيميائية التي تتخبط في مشاكل فائض الانتاج ، بحيث انخفضت طاقتها الانتاجية الآن من ٣٫٩ مليون إلى ٢٫١ مليون طن من بعض المنتجات البترو كيميائية .

حذر الرأسماليين

كتبت جريدة الاقتصاد الياباني قائلة : « ان الصناعة البترو كيميائية تواجه الآن أفظع أزمة في تاريخها » . وقد أعلن أكبر منتجي الخيوط الصناعية أن انخفاض أرباحهم قد بلغ في النصف الأول من العام المنصرم حوالي ١٩ ٪ ، وبلغ الانخفاض في أرباح « صناعات التوراي » ، وهي ثالث اكبر شركة في العالم لانتاج الخيوط الصناعية ، ٣٤٫٥ ٪ عن نفس الفترة من عام ١٩٧٠ المنصرم . وبالنظر الى هذه التراجعات يعتقد السيد هيراتو ، مدير هذه الشركة ، أن الصناعات البترو كيميائية « ستصل قريباً الى حدود توسعها القصوى » .

في ضوء هذه الحقائق غدا قادة الفروع الصناعية الأخرى أكثر تشاؤماً ، ولهذا فقد تواضعوا في رسم أهدافهم . وعلى سبيل المثال يريد منتجو الصلب اليابانيين أن ينتجوا في عام ١٩٧٥ حوالي ١٣٠ مليون طن من الحديد والصلب بدلاً من الـ ١٦٠ مليون طن التي كانت مقررة لهذا العام (الانتاج الحالي يبلغ ٩٣،٣ مليون طن) . وقد اضطروا حتى الآن الى تخفيض انتاجهم بنسبة ١٥ الى ٢٠ ٪ ، في حين يقدر الخبراء أن أكثر من ١٠٪ من مجمل الانتاج لاتزال مخزونة . « اذا ما بدأ المرء مثلنا من الصفر ، فان من السهل عليه الوصول الى معدلات نمو تبلغ ١٥ الى ٢٠ ٪ سنوياً . أما الآن فاننا لاننتظر أن يستمر التطور على هذه الصورة » . هذا ما يقوله فاكوسوكي ، رئيس أحد كبار احتكارات الحديد والصلب ، ويردف السيد كوتو : « ان بناة السيارات لايرون المستقبل بنفس اللون الذي كانوا يرونه به قبل عام منصرم ، على الرغم من نجاحاتهم في التصدير . لقد غدوا الآن أكثر حذراً » .

هذا الحذر غير المعهود لدى رجال الصناعة اليابانية قد أدى الى تراخ لم يعرف من قبل في الرغبة بالاستثمار . وبينما ارتفع متوسط الاستثمارات الفردية فيما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٩ بحوالي ١٩٪ سنوياً ، نجد أنه انخفض في السنة المالية التي انتهت في ٣١ تموز من عام ١٩٧٢ الى ٨،٦٪ ، وهم يقدرونه الان بقرابة ٥ ٪ فقط . أما موظفو التجارة الخارجية والصناعة فقد غدوا أكثر تشاؤماً ، وهم على ثقة من أن الرأسماليين لن يوظفو في السنة المالية الجارية سوى ٤٨ مليار في شراء آلات وبناء ورشات جديدة ، وهذا المبلغ ليس فيه سوى ١،٧ ٪ زيادة عن استثمارات السنة السابقة التي شهدت نمواً بلغ ١١،٤ ٪ . ويستنتج البروفيسور شينوها ، وهو أحد كبار الاقتصاديين اليابانيين ، أن « معدل النمو السنوي لمجمل الدخل القومي سيكون

في المستقبل اكثر انخفاضاً بكثير مما هو عليه الآن » . ويشارك صناعيو اليابان في هذا التشاؤم ، وقد أعلن مكتب التخطيط الاقتصادي أن ٥٧٪ من قادة الصناعة يعتقدون أن النمو سيستمر في تباطئه ، وان ٣٧ ٪ يعتقدون بأنه سيحدث تراجع في هذا النمو . وقد لخص السيد يوشيمورا ، وهو مدير في اتحاد ارباب العمل ، رأي زملائه على النحو التالي : « ان الظروف الاقتصادية الحالية ليست نتيجة لعوامل طارئة ، بل تقع في الطبيعة البنيوية للتنظيم الجديد الذي بدأ الآن ، والذي يستهدف خلق نمو جديد ومتوازن » .

لقد طبع التوسع الصناعي الكبير صناعة اليابان منذ البدء . وفي الوقت الحاضر لا زالت الصناعة توسع مجالات عملها ، دون ان تهتم لتقسيم العمل والتخصص . وعلى سبيل المثال ينتج احتكار الأجهزة الالكترونية ماتسوشيتا حوالي عشرة آلاف سلعة . كما تنتج كل من شركتي سوني وهايتاشي نفس العدد من السلع أيضاً . ذلك ترك مئات الألوف من الورش المتوسطة والصغيرة دون قدرة على منافسة الكبار بسبب عدم كفاية تجهيزاتها وشروط العمل البائسة التي تقدمها . إنها بالتالي تعمل بانتاجية أخفض من الاحتكارات الكبرى وتعيش لذلك تحت رحمتها . ان ٩٠٪ تقريباً من الورش الست مائة الف التي تعمل في صناعات تحويلية تشغل أقل من ٣٠ عاملاً ، كما ان ٩٠٪ من جميع الشركات اليابانية لا تملك رأس مال يتجاوز المائة الف ليرة سورية .

على نفس الدرجة من التأخر تقف التجارة أيضاً ، وهناك ملايين التجار الصغار الذين يبيعون في حوانيت جد صغيرة سلع استهلاكية سبق لها ان مرت بمراحل تجارية متعددة قبل ان تصل اليهم . ويترتب على نظام التوزيع الفوضوي وعلى هذه الحوانيت الصغيرة غير المنتجة ارتفاع في أسعار السلع . وبينما بقيت أسعار

منتجات الصناعة الكبرى ثابتة تقريباً ، فان أسعار السلع الاستهلاكية قد ارتفعت في السنة الأخيرة فقط بنسبة ٧,٧٪ . ويعود السبب بذلك الى ان الورش المتوسطة والصغيرة التي تحدد الى حد بعيد مستوى تكاليف المعيشة لا تستطيع أن توازن ارتفاع الاجور عن طريق رفع انتاجيتها ، كما تفعل الشركات الكبرى ، ولهذا يجب ، كما قال المدير المساعد لمكتب التنسيق في دائرة التخطيط الاقتصادي ، « ان يعطي استقرار الاسعار من الآن فصاعداً الأفضلية على معدل النمو » . ويخشى كثير من اقتصاديي اليابان أن يحدث لاقتصاد بلادهم ما حدث لاقتصاد ألمانيا الغربية ، حيث تسبب الصعود الكبير للأجور في تضخم متزايد للتكاليف ، بعد ان كانوا يغرفون لسنوات طويلة من احتياطي بدا وكأنه لا ينضب من قوة العمل الرخيصة ، وبعد أن كانت هناك امكانات كبيرة لرفع انتاجية العمل ، بحيث لم يحدث ارتفاع الاجور بنسبة ١٥ ٪ سنوياً أي أثر على الاقتصاد. والى جانب ارتفاع الأجور ، هكذا يقول استراتيجيو الاقتصاد الياباني ، يتهدد نقص متزايد في القوى العاملة فرص توسع الاقتصاد ، ويشكو رجال الأعمال من « نقص خطير في الطاقة العاملة » . والحال ان عرض العمل لم يرتفع في السنة الأخيرة إلا بنسبة ١ ٪ ليبلغ عدد العمال اليابانيين ٥١,٩ مليون عامل .

الاجور ترتفع اسرع من انتاجية العمل

ومع ذلك فان فنادق طوكيو الضخمة لاتزال تستطيع أن تترك فتاتين ترحبان بالضيوف في مصاعدها ، ولا تزال المحلات التجارية في شارع جينزا الفاخر تشغل فتيات لا عمل لهن سوى الانحناء أمـــام الزبائن وهم يصعدون السلالم الكهربائية وشكرهم على ما اشتروه . أما من يريد اصلاح سيارته ، فانه

يستقبل من جيش من الميكانيكيين .. كما يجلس على أبواب محطات القطارات جباة لا عمل لهم سوى ثقب بطاقات السفر .

وعلى الرغم من الاحتياطي الكبير لقوة العمل التي لم تستخدم حتى الآن بصورة منتجة ، فان الاسعار قد ارتفعت (في عام ١٩٧٠ : ١٧٪) أسرع من انتاجية العمل (١٤ ٪ في نفس السنة) . « لو استمر هذا التطور ، فاننا سنفقد بسرعة الميزات التي لا نزال نتمتع بها على صعيد المنافسة الدولية » هـذا ما قاله سكرتير أرباب العمل. أن ارتفاع الأجور الذي سيبلغ هذه السنة ١٥ الى ٢٠٪ سيفوق كثيراً ارتفاع انتاجية العمل ، لأن ذلك العامل الياباني الاسطوري الذي يعمل كالنحلة ويعيش قانعا على حفنة من الأرز يومياً ، لم يعد يوجـــد الا في الورشات الصغيرة التي لا تشغل لديها سوى فلاحين سابقين . صحيح ان العامل الياباني لا يزال يعمل ٣٧ ساعة في الأسبوع ، وهي زمن أعلى بكثير من الزمن الذي يقضيه زميله الأوروبي في العمل ، ولكن العمال اليابانيين الفتيان لم يعودوا يرغبون في العمل إلا لدى شركات تقدم لهم ما يكفي من الأوقات الحرة. ويدعو الاتحادان النقابيـان الكبيران « سوهيو » و « دوماي » في برنامج عملها لعام ١٩٧١ ، وللمرة الأولى ، الى تخفيض اسبوع العمل الى خمسة أيام .

إن هذه الاتحادات العمالية النقابيـة تبني ببطء قوتها ونفوذها ،فهي الآن مشتتة وموزعة في ٦٠٠٠٠ نقابة تحس أنها ملتزمة بمصالح المصنع الذي تعمل فيه بقدر التزامها مصالح أعضائها من العمال .

طرائق سلوكية للرجال الاقحاح

يقول أرباب العمل :

« إن المشاعر العائلية التقليدية للياباني قد أدت إلى تخفيف التوترات التي ظهرت في مرحلة التصنيع بين أرباب العمل والعمال . وهذا ما جعل بدوره تصنيع اليابان ينجح بصورة لا نظير لها دون صراعات حادة بين العمل ورأس المال . والحال أن رجال الأعمال اليابانيين يعاملون العمال حسب تقاليد العصور الوسطى الاقطاعية ، ويطلبون منهم طاعة عمياء . فيجب عليهم أن يبدوا يوم عملهم بنشيد المصنع أو الشركة ويعلنوا ولاءهم مع مدرائهم لروح العدالة والانسجام الاجتماعي ، وللدأب في العمل ، والطموح والتواضع والتلاؤم مع الظروف والعرفان بالجميل (هذا هو مثلاً يمين شركة ماتسو شيتا) . ويعلن عمال ماتسو شيتا أيضاً « إرادتهم في جعل عملهم الصناعي يسهم في تطور الأمة » . مثل هذه الوصايا أو « الطرائق السلوكية للرجال الأقحاح » (كما تقول الوكالة الدعائية دينتسو) ، توجد في جميع المصانع .

إن الحديث عن المصنع كعائلة كبيرة يسند ويدعم فيها العمال أرباب العمل وبالعكس ، يخفي تبعية كاملة للعامل حيال رب عمله ، كما يخفي نقص الخدمات التي تقدمها الدولة ، وخاصة في المصانع الصغيرة حيث تتجاوز تبعية العامل لرب العمل كل الحدود المألوفة .

هذا هو السبب في أن العمال يتلقون أجورهم بحسب حجم الشركة التي يعملون بها ، وبحسب عمرهم ومدة عملهم في المصنع ، وليس بحسب إنتاجهم نفسه .

الوصول الى مستوى الاجور في ايطاليا

لو أخذنا حدّاداً له ثلاثين عاماً من العمر ويعمل في الصناعة التحويلية ، لوجدنا أنه يكسب وسطياً ٦١٦ ليرة سورية في الشهر – بما في ذلك أجور الساعات الاضافية – . وبدون الساعات الاضافية كان مستوى الدخل الشهري في عام ١٩٧٠ في حدود ٤٩٠ ليرة سورية . ولكنه من المألوف في اليابان أن تدفع الشركات منحتين للعمال سنوياً . ولو عدنا إلى حدّادنا لوجدنا أنه يتلقى سنوياً ١٤٦٨ ليرة سورية منحاً من مصنعه .

غير أن أكثر من نصف العمال لا يصلون إلى حدود الـ ٦١٦ ل . س لأنهم يعملون في ورش صغيرة لا تحسن الدفع لهم . وبين كل أربعة عمال واحد يكتفي شهرياً بأجر يتراوح بين ٣٥٠ و ٣٩٠ ل . س . أما المهندس الموظف منذ ١٢ سنة فهو يتلقى راتباً قدره ٩٢٢ يرتفع إلى ١٢١٩ ل . س بعد أخذ الساعات الاضافية بالحسبان . تضاف إلى ذلك خمسة رواتب تعطى له سنوياً كمنحة .

« لقد وصلنا بالكاد إلى مستوى الأجور في إيطاليا ، ولو شئنا أن نعتبر مستوى أجورنا معادلاً لـ ١٠٠ ، لكان مستوى الأجور في ألمانيا معادلاً لـ ١٨٠ » هذا ما قاله خبير الأجور في جامعة فاسيدا .

إن من يغير مكان عمله ، يفقد حقوقه في التقاعد أو التعويض ، كما يفقد في أحوال كثيرة مسكنه . ولهذا لا يستطيع العمال ترك عملهم والالتحاق بعمل آخر ربما كان أفضل أجراً .

وتقرر إدارة المصنع أو الشركة كذلك الطريق المهني الذي يجب على

عامل ما سلوكه داخلها ، وهكذا يمكن أن يوضع الطبيب في الادارة، والمهندس في قسم المحاسبة ، إذ أن أن فلسفة النظام الياباني تحتم على كل فرد أن ينضوي تحت الهدف المشترك للهيئة التي ينتمي إليها ، وهي هنا الشركة .

وهكذا لا يعترف إلا بالمنتجين ، أما كبار السن والمرضى الذين لم يعد بمقدورهم لعب أي دور هام في حياة المؤسسة التي ينتمون إليها ، فإنهم يتركون لمصيرهم دون أن يعنى بهم معلمهم السابق .

وفي حين تقترب الاجور ببطء من مستوى الأجور في البلدان الاوروبية، لاتزال الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة محكومة بالفوضى . وفي عام ١٩٧٠ كان متوسط التقاعد لايتجاوز ١٣٧ ليرة سورية ، وهناك ثلاثة ملايين يتلقون اعانات من الدولة لا تتجاوز الـ ٢٣ ليرة في الشهر ، برغم رفع الاعانة في السنة الفائتة بنسبة ١٥٪ ، ولا يبلغ معدل الخدمات الاجتماعية بالنسبة للدخل القومي سوى ٧٪ ، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٠ ٪ في فرنسا والمانيا الغربية . اما الاعانات البطريكية التي يقدمها رجال الأعمال والتي يراد منها ان تحل محل اعانات الدولة ، فهي بائسة وتافهة ، وعلى سبيل المثال فان شركات كبيرة جداً قد دفعت لمن بلغوا سن التقاعد لديها (٥٥ او ٦٠ سنة) راتب شهر عن كل سنة عمل فقط ، وحسب احدى الاحصائيات لمكتب الصناعة والتجارة في طوكيو ، فان العامل الذي بدأ العمل بعد مرحلة التعليم الالزامي يتلقى بعد ثلاثين سنة من العمل ما يعادل ٢٢٠٠٠ ل . س تعويضاً ، ويتلقى العامل الذي يحمل شهادة بكالوريا ٣١ الفاً ، وحامل الشهادة العليا ٤٢ الفا . اما الشركات الصغيرة والمتوسطة فهي تدفع في احسن الاحوال عدة آلاف فقط ، وحتى حين يتلقى الياباني تعويضاً مرتفعاً ، لا يستطيع التصرف بأكثر من الفي ليرة وسطياً في العام ، لأن متوسط عمر الرجال

٦٩ والنساء ٧٤ سنة ، ولهذا فانه من الصعب على الياباني ان ينقطع عن العمل ، فيستمر المسنون في العمل داخل الشركات التي كانوا يعملون لديها ، ولكن بشروط اكثر سوءاً وأجوراً أقل تختصر حتى ٤٠ ٪ من الأجر السابق ، مع فقدان الحق في الخدمات الاجتماعية .

اعلى نسبة ادخار في العالم .

في معظم الشركات حل مدراء الأعمال محل الاسر القديمة المستبدة التي تحكمت حتى الحرب العالمية الثانية باقتصاديات البلاد . لقد جاء المحتلون الاميركان ومنعوا الزمر الأسرية القديمة من ممارسة اعمالهم وصادروا ثرواتهم ، غير ان الاحتكارات المرتبطة باسماء هذه الزمر عادت الى الوجود منذ وقت طويل ، وان كانت ليست ملكيتهم وحدهم فقط .

اذا كانت الاحصائيات اليابانيـــة قد تركت الغموض يحيط بظروف الملكية الصناعية ، فانه من الواضح ان سبع مجموعات مصرفية كبيرة هي التي تملك السلطة التي كانت في السابق بايدي النبلاء الماليين ، وهذه البنوك هي : فوجي ، وميتسوي ، وميتسوبيشي ، وسوميتومو ، وسانفا ، وداي ايشي . هذه المصارف كانت هي التي مولت نهوض الصناعات الكبرى ، بعد ان كرست ثروات طائلة بفضل السياسة النقدية المتسامحة للبنك المركزي والادخار الذي لامثيل له لدى اليابانيين ، فقد بلغت نسبة المدخرات السنوية من الدخل الشخصي حوالي ١٨٪ بشكل دائم ، وهذه اعلى نسبة ادخار في العالم (المانيا الغربية ١٢،٤ ٪) . لقد جمعت بنوك اليابان هذه المدخرات الصغيرة - وسطي الادخار بالنسبة لكل دفتر توفير

كان في عام ١٩٧٠ يبلغ ١٤٠٧ ل . س - ثم قامت بوضعها كقروض تحت تصرف الصناعة .

وبعكس ذلك تملك الشركات الاحتكارية مصارفها الخاصة بها ، فتملك مجموعة ميتسوي حوالي ٣٢،٢ ٪ من رأس مال بنك ميتسوي ، وتملك شركات ميتشوبيشي حوالي ثلث اسهم بنك ميتشوبيشي ، كما ان ربع أسهم فوجي هي ملك لاحتكار فوجي نفسه .

ومع انه لايسمح للمصارف ، حسب قانون مكافحة الاحتكار ، ان تملك اكثر من ١٠ ٪ من رأس مال شركة ما ، فان هذه قد ضمنت لنفسها وبواسطة القروض التي تمنحها ، درجة عالية من النفوذ والتسلط . فالبنوك تقدم للاحتكارات الكبرى أربعة أخماس رأس المال اللازم لها لشراء الآلات الجديدة ، مع انها لاتملك سوى ٢٠ ٪ من رأسمالها ، وهذه نسبة ستجعل أي مصرف اوروبي يحجم عن منحها أي قرض . وبما ان الشركات الصناعية اليابانية كانت ترضى بارباح قليلة ، واستغنت عن التمويل الذاتي لاستثماراتها ، فان ملكية الأسهم الموزعة توزيعاً كبيراً تفقد اهميتها كأداة رقابة فعالة على الشركات الغارقة في الديون ، وهو مايمكن مصرفاً يملك ربع اسهم شركة ما مثلا من اخضاعها لرقابته . وفي السنة المنصرمة كان الافراد يملكون ٣٩ ٪ من جميع الأسهم المطروحة في السوق ، والمصارف حوالي ٣٣ ٪ والشركات ٢١ ٪ ، واذا كان قادة الصناعة اليابانية بعد الحرب لم يهتموا لثرواتهم الخاصة ، كما كانت الزمر الأسرية تفعل ، فانهم قد استطاعوا توحيد الشعب وراء هدف واحد ، وهو نمو الاقتصاد القومي . والآن فقط يستيقظ اليابانيون على فداحة التضحيات التي قدموها من اجل هذا النمو ، وقد قال رئيس شركة هايتاشي السيد كوماي : « حتى الآن ركزنا جميع جهودنا

على ناحية واحدة فقط ، وهي دفع نمونا الاقتصادي بأسرع وتائره ، ذلك أدى الى امراض جدية وخطيرة في مجتمعنا» . ويردف مدير شركة كوراي السيد هيروتا : «اننا على ثقة من ان الحياة اللائقـــة بالانسان ستغدو مستحيلة اذا ما استمرت الامور على هذا المنوال ، والحال ان ذلك الفيض من الاستثمارات الذي وظف في الصناعة قد احرز لليابان نمواً هائلا لا مثيل له ، ولكنه تم على حساب الاستثمارات العامة التي كان يجب ان توظف في بناء الطرق والمساكن والمجاري والمدارس والمشافي ، وفي مجال حماية البيئة . ان ٣٥٪ فقط من مجمل الاستثمارات قد وظفت في السنوات الـ ١٥ الاخيرة من اجل مشاريع عامة . وقد رفضت اليابان اكثر من اية دولة اخرى في العالم الأخذ بانه يجب ان يكون هناك نوع من التوازن بين الاستثمارات الخاصة والنفقات العامة .

ويعيش الـ ١٠٤ ملايين ياباني على طول الشواطىء في المناطق الصناعية العملاقة التي تزيد مساحتها عن ٣٥ الف كم². ويسير القطار السريع الذي يجتاز المسافة بين توكيو واوزاكا بين مراكز صناعية لا تنقطع ، ومدن مبعثرة دون خطة ، وذات منازل صغيرة حقيرة يسكنها البشر رغم ذلك .

أما الهواء فهو في العاصمة وخليجها مسمم أكثر من أي هواء آخر في العالم . ترتفع نسبة الاحماض التي لا يجوز تجاوزهـــا في الهواء يومياً فوق الحد الاقصى المسموح به ، ولهذا يعاني كل واحد من خمسة من سكان طوكيو من برونشيت مزمن . وبعد دراسة أجرتها الجهات الصحية المعنية حول تلوث المياه والانهار ، كتبت جريدة .. شاهي شيمبنون ، الواسعة الانتشار : «إننا نسبح في الصديد» . أما على اليابسة ، وخاصة على محاور الطرق الهامة ، فإن الناس يعانون من التسمم بازوت السيارات ، ومن ضيق المنازل السكنية ،

ومن دخان المصانع الذي يغطي ، حين يصبح الجو رطباً ، مساحات واسعة ويكوي العيون والرئات .

سيرتجف الرأسماليون ذات يوم

لقد أرعبت هذه الغيوم الصناعية المسمومة الشعب ، فبدأت البلديات في المناطق الصناعية تطالب بصناعات نظيفة بدلاً من مصانع الحديد والصلب والكيماويات . وتدعو اتحادات المستهلكين إلى مقاطعة منتجات الشركات التي تلوث البيئة . « ان الرأسماليين الكبار سيرتجفون ذات يوم خوفاً من هذه الحركة » ، هذا ما علق به البروفيسور شينودا من جامعة صوفيا بطوكيو على بوادر الحركة الشعبية الجديدة .

إلى جانب القذارة والسموم تعيق الشوارع والطرق الضيقة والمزدحمة رغبة الياباني في الانطلاق . صحيح أن الشوارع السريعة (الاوتوستراد) تتقاطع داخل المدن مشكلة طوابق عديدة ، وأنها تربط المراكز الصناعية الكبرى مثل طوكيو ويوهاما وأوزاكا ، ولكن هذه الشوارع لا تشكل سوى جزء ضئيل من شبكة طرق المواصلات اليابانية التي لم يعبد منها سوى ثلثها فقط . ولو أراد موظف لدى شركة هوندا أن يعود من أحد المؤتمرات في طوكيو إلى مكان عمله الذي يبعد ٤٠ كيلومتراً عن المدينة ، لكان بحاجة إلى ساعتين ونصف من أجل قطع هذه المسافة ، وفي قطار يحمل ثلاثة أضعاف عدد الركاب المسموح له بنقلهم .

على غرار مشكلة تلوث البيئة وفوضى المرور هي ايضاً مشكلة السكن . فقد دلت احصائية أجراها مكتب رئيس الوزراء قبل ثلاثة سنوات على ان نصف

أرباب الأسر الـ ٢٨ مليون غير مسرورين من ظروف سكنهم . هذا الرقم لابد أن يكون قد ارتفع في الفترة المنصرمـــة . ففي المدن الكبرى كطوكيو وأوزاكا وناجويا يوجد ٣٠ طلب سكن لكل منزل جديد يبنى، مع ان مساحته لا تتجاوز وسطياً ٤٠ م٢ . وحتى عام ١٩٨٥ ستكون ثمة حاجة لسبعة ملايين منزل في طوكيو ولأربعة ملايين في أوزاكا ، وتقدر الحكومة أن ٣٠ مليون مسكن جديد يجب أن تبنى في السنوات العشرين القادمة .

لقد قبل الشعب في حمأة نشاطه الاقتصادي ظروف معيشية مهينة ومرضية . وهذا هو سر ارتفاع رقم العصابيين والمجانين . وقد قال الدكتور شيوزاكي رئيس قسم الأمراض العصبية في مستشفى آزاي بطوكيو : «أستطيع القول بثقة أن ثلث الموظفين اليابانيين هم في المراحل الأولية من أمراض نفسية عديدة » . ومن مظاهر هذه الأمراض ذلك القصور الجنسي الذي يصاب الكثير من الرجال فيما بين ٣٠ و ٤٠ سنة ، وذلك الميل الجارف نحو المشاريب الروحية الذي يعم البلاد بأسرها .

ويقول كبير خبراء مكتب التخطيط القومي لدى الدولة : « لقـــد ارتكبنا خطأً فادحاً عندما كنا نستنتج مستوى المعيشة من الرقم الإجمالي للدخل القومي ، بدلاً من فهمه بمعنى انساني ـ اجتماعي » . غير ان رئيس الاتحاد الصناعي يرد على هذا الرأي : « لقد دفعنـا نمونا الاقتصادي الى الاسراف في معيشتنا » . وعلى كل حال فقد قرر اليابانيون ان ينقلوا مركز الثقل في استثماراتهم من الصناعة الى الدولة . ويحسب الخبراء ان بناء الطرق والمجاري وحماية البيئة ... الخ ستكلف ١٨٠٠ مليار ليرة سورية (حسب أسعار عام ١٩٦٥) من أجل الوصول إلى المستوى الحالي للولايات المتحدة !.

في البدء ، هذا ماتقرره الخطط الرسمية ،يجب أن ترتفع استثمارات الدولة في الثقافة والعلم والبحث العلمي ١٣,٥ ٪ سنوياً ، متقدمة بذلك على الاستثمارات الخاصة (١٢,٥٪) . هذا يعني ان الاستثمارات العامة ستتضاعف بالقياس الى السنوات الخمس الأخيرة لتبلغ ٥٥٠ مليار ل.س .

إن هذه الجهود ستكون ضرورية لإزالة الاضطراب القائم حالياً بين الاستثمارات العامة والخاصة ، ولكنها تعني في نفس الوقت ان وتيرة النمو ستتباطىء . ذلك هو الثمن الذي سيدفعه الشعب من اجل جعل جزره اكثر جمالاً ، وصناعته اكثر قدرة على المنافسة في المستقبل ..

سنموت جميعاً من الامراض الاجتماعية

فضلا عن ذلك فان التوسع الصناعي الياباني سيكبح على الأرجح بواسطة المنافسة المتزايدة التي سيواجهها رأسماليو اليابان بعد أن قررت الحكومة الشروع من العام القادم بتهديم الحواجز الجمركية التي كانت تحمي الصناعة من المزاحمة المقيتة .

يضاف الى ذلك ان الولايات المتحدة تضغط من الآن على حكومة طوكيو من اجل رفع سعر الين (١) ، فالاميركيون يعتقدون ان السعر الحالي للدولار (دولار واحد = ٣٦٠ ين) يستخدم بصورة غير مبررة لتمويل تصدير السيارات والتلفزيونات والخيوط الصناعية الى السوق الاميركية . غير ان العبء الحقيقي الذي ستنوء الصناعة اليابانية تحته هو تلك الاستثمارات التي يجب عليها توظيفها من اجل حماية البيئة . وهناك قانون يحتم على الصناعة ان تدفع $\frac{3}{4}$ نفقات

---

(١) الوحدة النقدية اليابانية : Yen .

لتنقية المياه . وستضطر الشركات التي تسمم الهواء كالشركات البترو كيميائية ان تعمل على تركيب آلات لتنقية الهواء ، ويحسب رأسماليو اليابان انه سيكون عليهم توظيف ٦ الى ٩٪ على الاقل من استثماراتهم من اجل حماية البيئة . وكان هذا الرقم حتى الآن بين ٣و٥٪ ، إن لم يكن اقل من ذلك .

« إن الفروع الصناعية ذات التصدير المرتفع كصناعة الحديد والصلب والصناعة البيترو كيميائية يمكن ان تضار في قدرتها الدولية على المزاحمة » ، هذا ما كتبته جريدة الاقتصاد الياباني . ويزداد رجال الصناعة اليابانية على كل حال اقتناعاً بأن « الصناعة ستختنق تحت وطأة انتاجيتها المنفلتة من عقالها » إذا لم تقم بنفسها بتحسين اوضاع البيئة . وهكذا تعهدت ثلاث شركات صلب كبيرة بأن تقوم في هذا العام بتخفيض الأكاسيد السامة المنطلقة من مداخنها الى عشر كميتها الحالية ، مع ان التكاليف ستبلغ ١٦٠ مليون دولار .

« إذا لم نفعل ذلك » قال المخطط الاقتصادي ميازاكي .. «وإذا واصلت صناعتنا نموها دون كوابح ، فاننا سنموت جميعاً تحت وطأة الأمراض الاجتماعية .

وثائق تاريخية

عن قيام

اتحاد الجمهوريات العربية

في فترة تقل عن ستة أشهر ، حققت الأقطار العربية الثلاثة : مصر ـ سورية ـ ليبيا ـ ، قيام اتحاد فيدرالي فيما بينها ، أسمته « دولة اتحاد الجمهوريات العربية » ، ففي السابع عشر من شهر نيسان (ابريل) ١٩٧١ صدر اعلان بنغازي الشهير عن نتائج مباحثات الرؤساء انور السادات ، حافظ الأسد ، معمر القذافي ، وقد تضمن الاعلان اتفاق الرؤساء فيما بينهم على « إقامة اتحاد الجمهوريات العربية » استجابة لمتطلبات الشعب العربي وإرادته ونضاله في سبيل الوحدة والتحرر ، كما تضمن الاتفاق تحديداً للمنطلقات الأساسية التي تشكل حجر الأساس في بناء دولة الاتحاد .

وفي الوقت ذاته ، أقر الرؤساء الثلاثة « الأحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية » ، وتقع في (١٦) بنداً ، تحددت في ضوئها هوية هذا الاتحاد ، واتجاهه الديمقراطي الاشتراكي ، وتطلعاته الوحدوية ، لأن الهدف من قيامه ، كما جاء في البند الثاني ، « هو العمل على تحقيق الوحدة العربية الشاملة وحماية الوطن العربي والدفاع عن استقلاله وبناء المجتمع العربي الاشتراكي ، والعمل على تحرير

الأراضي العربية المحتلة ، ودعم حركة التحرر الوطني العربية ، وحركات التحرر الوطني في العالم » . وقامت لجان مشتركة من الأقطار الثلاثة بوضع مشروع دستور الاتحاد المرتقب .

وفي الفترة من ١٨ - ٢٠ آب أغسطس ١٩٧١ اجتمع الرؤساء الثلاثة في دمشق وأقروا « مشروع دستور دولة الاتحاد ليعرض على الاستفتاء الشعبي مع اعلان بنغازي وأحكامه الأساسية في الجمهوريات الثلاث يوم الأربعاء الفاتح من أيلول ١٩٧١ » .

وهكذا في يوم الأول من أيلول - سبتمبر ١٩٧١ ذهب المواطنون من أبناء الجمهورية العربية السورية وجمهورية مصر العربية والجمهورية العربية الليبية الى مراكز الاستفتاء ليعبروا عن ارادتهم الشعبية وحقهم المقدس في قيام هذا الاتحاد .

وترى مجلة « المعرفة » أن مجموع هذه النصوص وهي :

- اعلان بنغازي
- الأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية
- اعلان دمشق عن توقيع مشروع دستور اتحاد الجمهوريات العربية
- دستور دولة اتحاد الجمهوريات العربية

تشكل وثائق تاريخية هامة ، وأن من واجبها أن تقدمها الى القراء العرب بكاملها في الصفحات التالية .

اعلان بنغازي

عن قيام

اتحاد الجمهوريات العربية

من موقع الصمود العربي ، وفي ظل صراع حاسم ومصيري تخوضه الامة العربية اليوم دفاعاً عن ارضها وشرفهـا ووجودها وأمنها ومصيرها ضد كل قوى السيطرة الاستعمارية والصهيونية العنصرية .

وانطلاقاً من الحقيقة الكبرى التي عبر عنها التاريخ الطويل ، وهي أن وحدة الوطن العربي ، بما تتيحه من امكانات ، وبما توفره من طاقات سياسية وعسكرية واقتصادية ، هي الرد الحاسم على تحديات الاستعمار والصهيونية وهي السبيل الى استرداد الكرامـة وتحرير الأرض والاجهاز على كل صور الاستعمار والاستغلال والتخلف في وطننا العربي.

وتصميماً على بناء الوطن العربي المتحرر ، القادر على مواجهة تحديات العصر ومقتضيات التقدم ، وأداء دوره الحضاري والانساني داخل مجتمعه وفي المجتمع الدولي .

وتقديراً وعرفاناً لتضحيات اجيال بعد اجيال من امتنا العربية ، خاضت بشرف وكرامة معارك تحقيق الذات القومية وتثبيت الاستقلال والحرية السياسية والاجتماعية ، دون ان يتزعزع ايمانها بأملها الكبير .

والتقاء بين الثورات الثلاث في كل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية الليبية والجمهورية العربية السورية ، والتي يمثل التقاؤها مطلباً جماهيرياً وضرورة نضالية تعطي لحركة النضال الشعبي العربي طاقات وأبعاد جديدة تؤكد الحتمية التاريخية لانتصار الثورة العربية .

وتأكيداً وامتداداً لمقررات دول ميثاق طرابلس ، ودعماً للتكامل والترابط بين دولها ، وتأميناً لمسيرة النضال العربي التي رفع لواءها القائد الخالد جمال عبد الناصر .

فانه من ذلك كله ، ووفاء لذلك كله ، فقد اتفق :

الرئيس انور السادات ، رئيس الجمهورية العربية المتحدة .

الرئيس العقيد معمر القذافي، رئيس مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراءبالجمهورية العربية الليبية .

الرئيس حافظ الأسد ، رئيس الجمهورية العربية السورية .

على اقامة اتحاد للجمهوريات العربية بين دولهم الثلاث على ان ينضم السودان الشقيق اليهم في اقرب فرصة تمكنه منها ظروفه الخاصة .

ان توقيع الرؤساء الثلاثة على هذا الاعلان ، يصدر عن الايمان الراسخ بضرورة قيام الدولة التي تجمع القوى والطاقات العربية ، وبأن هذه الدولة ستكون ، بفضل قدرة جماهير شعبنا ، وبفضل امكانات الدول الثلاث، القاعدة الصلبة لحركة النضال العربي وأحد الروافد الهامة لحركة التحرر العالمية، والرد الطبيعي والعملي على كل المؤامرات الاستعمارية والصهيونية التي تدبر ضد امتنا العربية لضرب حضارتها الانسانية والتاريخية ، ووضعها في اسار التخلف والتبعية .

ولقد انطلق الرؤساء الثلاثة في اتفاقهم على اقامة اتحاد الجمهوريات العربية من منطلقات اساسية تشكل حجر الاساس في بناء دولة الاتحاد وهي :

أولاً : ان تكون هذه الدولة النواة التي تستقطب نضال الجماهير العربية الوحدوي، وبالتالي أن تكون نواة لوحدة عربية أشمل .

ثانياً : أن تكون سبيل الجماهير العربية لتحقيق هدفها في اقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .

ثالثاً : أن تكون هذه الدولة هي الأداة الرئيسية للأمة العربية في معركة التحرير .

وعلى أساس من هذه المنطلقات ، فقد قرر الرؤساء الثلاثة بالاجماع ما يلي :

١ – ان تحرير الأرض العربية المحتلة هو الهدف الذي ينبغي ان تسخر في سبيله كل الامكانات والطاقات .

٢ – انه لا صلح ولا تفاوض ولا تنازل عن أي شبر من الارض العربية المحتلة .

٣ – انه لاتفريط في القضية الفلسطينية ولا مساومة عليها .

ويؤكد الرؤساء الثلاثة ان جمهورية السودان الديمقراطية وشعبها العربي المناضل الذي اسهم بقيادة الاخ الرئيس جعفر محمد نميري واخوانه اعضاء مجلس قيادة الثورة ، مساهمة جادة وفعالة ، في دفع عجلة العمل في اطار ميثاق طرابلس ، ستبقى فاعلة في النضال

الوحدوي وذات صلة وثيقة باتحاد الجمهوريات العربية ، حتى يتسنى لها الانضمام اليه .

واذ يضع الرؤساء الثلاث نصب اعينهم ان تكون دولة اتحاد الجمهوريات العربية ملبية لتطلعات جماهير شعبنا ، محققة لآمالها ، وقادرة على تنفيذ امانيها ورغباتها القومية، فانهم يؤكدون ان دعم الاتحاد واهدافه وقيمه ومبادئه يتطلب من القوى القيادية في الجمهوريات الثلاث تكوين جبهة سياسية فيما بينها ترتبط بميثاق للعمل القومي في اتحاد الجمهوريات العربية من اجل تحقيق التفاعل والترابط بين جماهير الشعب في اقطار الاتحاد وترسيخ أسس الديمقراطية وقيمها وتوحيد منطلقات واساليب العمل السياسي في الجمهوريات الثلاث وخلق المناخ الملائم لقيام الحركة العربية الواحدة .

ان المسؤولية التاريخية في هذه الايام العصيبة والمصيرية تفرض علينا كابناء مخلصين لوطننا الكبير ، وامناء على قضية القومية العربية ومستقبل الامة العربية ، ان نعمل معـا ، ومع غيرنا بروح التجرد والايثار من اجل اذابة كافة الحواجز والفوارق الاقليمية التي تعوق التفاعل الذاتي للمنطقة العربية تحقيقاً للوحدة الشاملة .

ان الانطلاق الى المسارعة في تنفيذ هذا الاتحاد ، ماهو الا حركة موفقة للوصول الى هدف مرحلي على طريق الوحدة العربية الشاملة ، وهو من اجل ذلك سيظل مفتوح الابواب لكل دولة عربية متحررة تؤمن بالوحدة العربية وتعمل من اجل اقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .

وبعون من الله وتطلعاً الى المستقبل بثقة الواثق المؤمن بالله ، وتجسيداً لكل هذه المعاني ، فقد تم الاتفاق بين الرؤساء الثلاثة على اعتبار الاحكام الاساسية المرفقة بهذا الاعلان أسساً لاقامة اتحاد الجمهوريات العربية ، وعلى تشكيل لجنة ثلاثية تتولى وضع دستور اتحاد الجمهوريات العربية ، في اطار من هذه الاحكام الاساسية ، على ان يتم اقراره في كل جمهورية وفق الصيغ الدستورية المعمول بها لديها ، كما تقرر عرض الاحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية على الاستفتاء الشعبي في كل جمهورية وفي تاريخ واحد .

ان واجبنا ونحن في سعينا على طريق املنا ان نظل مفتوحي الاعين منتبهي الحس والوجدان تحت رعاية الله وتوفيقه .

ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز .

معمر القذافي	**انور السادات**	**حافظ الاسد**
رئيس مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء بالجمهورية العربية الليبية	رئيس الجمهورية العربية المتحدة	رئيس الجمهورية العربية السورية

صدر في بنغازي في ٢١ صفر ١٣٩١ هـ
الموافق ١٧ ابريل (نيسان) ١٩٧١ م

الأحكام الأساسيّة

لاتحاد الجمهوريات العربية

١ – ان الشعب العربي في كل من الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية الليبية والجمهورية العربية السورية قد أقر، على أساس من الاختيار الحر المتساوي في الحقوق اقامة دولة اتحادية تسمى اتحاد الجمهوريات العربية .

٢ – الهدف من قيام اتحاد الجمهوريات العربية ، هو العمل على تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، وحماية الوطن العربي والدفاع عن استقلاله وبناء المجتمع العربي الاشتراكي والعمل على تحرير الاراضي العربية المحتلة ، ودعم حركة التحرر الوطني العربيـــة ، وحركات التحرر الوطني في العالم .

٣ – الشعب في اتحاد الجمهوريات العربية جزء من الأمة العربية .

٤ – لاتحاد الجمهوريات العربية علم واحد وشعار واحد ونشيد واحد وعاصمة واحدة .

٥ – نظام الحكم في اتحاد الجمهوريات العربية ديمقراطي اشتراكي .

٦ – يكون هذا الاتحاد مفتوحاً لجميع الدول العربية الاخرى ، التي تؤمن بالوحدة العربية ، وتعمل من اجل تحقيق المجتمع الاشتراكي الموحد .

٧ – يختص اتحاد الجمهوريات العربية بالامور التالية :

أ – وضع اسس السياسة الخارجية .

ب – مسائل السلم والحرب .

جـ – تنظيم وقيادة الدفاع عن اتحاد الجمهوريات العربية ، مع قيام قيادة عسكرية

مسؤولة عن التدريب والعمليات ، ويتم نقل القوات بين الجمهوريات ، بقرار عن مجلس الرئاسة ، أو من يفوضه في ذلك أثناء العمليات .

د - حماية الامن القومي ووضع اسس لتنظيم تأمين سلامة الاتحاد . واذا وقعت اضطرابات من الداخل او الخارج في احدى الجمهوريات تهدد امنها او تهدد امن الاتحاد . تخطر حكومة هذه الجمهورية الحكومة الاتحادية فوراً ،لكي تقوم هذه الاخيرة باتخاذ الاجراءات الضرورية ، ضمن حدود صلاحياتها لحفظ الامن والنظام ، وفي حالة ما اذا كانت حكومة احدى الجمهوريات الأعضاء في وضع لايسمح لها بطلب العون من الحكومة الاتحادية ، او اذا كان أمن الاتحاد في خطر ، فالسلطات الاتحادية المختصة أن تتدخل ، وبدون طلب ، لحفظ النظام واعادة الامور الى نصابها .

هـ - تخطيط الاقتصاد القومي ووضع خطط التنمية العامة المشتركة وقيادة المؤسسات الاقتصادية ذات الطابع الاتحادي .

و - وضع سياسة تعليمية وتربوية تهدف لبناء جيل قومي عربي اشتراكي مؤمن .

ز - وضع سياسة إعلامية اتحادية تخدم اهداف دولة الاتحاد واستراتيجيتها في السلم والحرب .

ح - وضع سياسة موحدة للبحث العلمي والتنسيق بين اجهزته في الجمهوريات .

ط - قبول اعضاء جدد في الاتحاد ويكون ذلك باجماع الرأي في مجلس رئاسة الاتحاد .

مؤسسات اتحاد الجمهوريات العربية

٨ - تقوم في اتحاد الجمهوريات العربية المؤسسات الآتية :

ا - مجلس رئاسة الاتحاد ، ويعتبر السلطة العليا في الاتحاد ويتكون من رؤساء الجمهوريات وينتخب هذا المجلس رئيساً له من بين اعضائه ، ويتخذ قراراته بالاغلبية .

ب - عدد من الوزراء يعينهم مجلس الرئاسة وهم مسؤولون امامه .

جـ - مجلس الامة في الاتحاد ويتولى مهمة التشريع للاتحاد ويشكل من ممثلين عن مجالس الشعب لكل من الجمهوريات ، بعدد متساو من الاعضاء ، تنتخبهم مجالس الشعب في الجمهوريات .

د - محكمة دستورية اتحادية تعين بقرار من مجلس رئاسة الاتحاد وتتكون من عضوين عن كل جمهورية ، وتختص بالفصل في دستورية القوانين ، والبت في المنازعات بين المؤسسات وسلطات الاتحاد والجمهوريات .

٩ - لايترتب على قيام الاتحاد اي اخلال باحكام المعاهدات والاتفاقات الدولية

المبرمة بين الجمهوريات الداخلة في الاتحاد وبين احداها والدول الاخرى وتظل هذه المعاهدات والاتفاقات سارية في الاطار المقرر لها وقت ابرامها وفقاً لقواعد القانون الدولي .

١٠ – يجوز لكل جمهورية في حدود اختصاصها التشريعي ان تبرم المعاهدات والاتفاقات مع الدول الاجنبية ، وان تتناول معها التمثيل الدبلوماسي والقنصلي .

١١ – تكون القيادة العامة للقوات المسلحة في كل من الجمهوريات الداخلة في الاتحاد لرئيس الجمهورية او لمن تحدده النظم المعمول بها في كل جمهورية .

١٢ – تختص الجمهوريات بكل مالم يدخل في اختصاصات الاتحاد وفقا لهذه الاحكام الاساسية .

١٣ – الى ان يتحقق قيام الحركة العربية الواحدة داخل الاتحاد ، تكون القيادة السياسية في كل جمهورية هي المسؤولة عن تنظيم ممارسة النشاط السياسي داخل الجمهورية ، ويحظر على اي تنظيم سياسي قائم في احدى جمهوريات الاتحاد ممارسة اي نشاط سياسي في جمهوريات الاتحاد الاخرى الا عن طريق ممثليه في قيادة الجبهة السياسية التي تضم قيادات التنظيم السياسي لجمهوريات الاتحاد .

١٤ – يعتبر اعلان قيام اتحاد الجمهوريات العربية الصادر في بني غازي في ٢١ صفر ١٣٩١ هـ الموافق ١٧ ابريل (نيسان) ١٩٧١ ، جزءاً لا يتجزء من الاحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية .

١٥ – لا يجوز تعديل الاحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية الا بعد الموافقة الاجماعية لمجلس رئاسة الاتحاد وعرضه للاستفتاء الشعبي ، وتوافر الاغلبية له في كل جمهورية .

١٦ – يجري التصديق على الاحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية قبل طرحها للاستفتاء الشعبي ، من قبل اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي ومجلس الوزراء ومجلس الامة في الجمهورية العربية المتحدة ، ومن قبل مجلس قيادة الثورة في الجمهورية العربية الليبية ، ومن قبل القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي ومجلس الشعب في الجمهورية العربية السورية .

معمر القذافي	**أنور السادات**	**حافظ الأسد**
رئيس مجلس قيادة الثورة	رئيس الجمهورية	رئيس الجمهورية
ومجلس الوزراء	العربية المتحدة	العربية السورية
بالجمهورية العربية الليبية		

اعلان دمشق

عن توقيع

دستور اتحاد الجمهوريات العربية

في دمشق قلعة العروبة وحصن الوحدة، في دمشق التي ارتبطت باسمها على مدى نضالنا المعاصر الدعوة الى الوحدة العربية وحققت مع القاهرة أول وحدة في تاريخ العرب الحديث .

ودفعاً واستمراراً للخطى الوحدوية التاريخية التي بدأت في بنغازي في ٢١ من صفر ١٣٩١ الموافق ١٧ من ابريل (نيسان) ١٩٧١ م بتوقيع الرؤساء الثلاثة انور السادات رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، ومعمر القذافي رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس مجلس الوزراء في الجمهورية العربية الليبية ، وحافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية ، على اعلان قيام اتحاد الجمهوريات العربية والأحكام الأساسية لهذا الاتحاد . وتتويجاً للجهود المستمرة التي لم تتوقف منذ ذلك الحين والتي اشترك فيها ممثلون عن الجمهوريات الثلاث ، لإنجاز دستور اتحاد الجمهوريات العربية .

واستجابة لارادة الشعب العربي في دفع الخطى ومضاعفة الجهد في استكمال كل الخطوات التحضيرية والتمهيدية لقيام هذا الاتحاد كحقيقة عربية اصيلة تواجه دورها العربي وتستجيب لمسؤولياتها التاريخية في مسيرة النضال العربي وفي حركة الثورة العربية .

واستشعاراً من الرؤساء الثلاثة بضخامة المسؤولية التاريخية التي يتحملها الجيل العربي الحاضر في مواجهة موجة العدوان الشرسة التي تعرضت لها الأمة العربية ، كان اجتماعهم في دمشق خلال الفترة ٢٦ ـ ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٩١ هـ الموافق ١٨ ـ ٢٠ من اغسطس / آب سنة ١٩٧١ ، للانتهاء من مناقشة مشروع دستور اتحاد الجمهوريات العربية واقراره تمهيداً لدفع الخطوات المتفق عليها في بنغازي لقيام الاتحاد ومؤسساته وبدء الممارسة الفعلية لمسؤولياته العربية والتاريخية .

وقد جرى اجتماع الرؤساء الثلاثة وسط مشاعر التأييد الواسع والأمل الكبير الذي عبر عنه الشعب العربي السوري العظيم ، الذي ظل رغم كل الظروف أميناً على الوحدة العربية داعياً لها وعاملاً من أجلها ومناضلاً في سبيلها .

وقد أكد الرؤساء الثلاثة خلال المداولات التي جرت بينهم وفي الاجتماعات التي عقدوها مع الوفود المرافقة لهم والتي تركزت حول المعركة وتقييم الوضع بكل ظروفه واحتمالاته ، ان المواجهة مع العدو الصهيوني الجاثم فوق أرضنا العربية قد اقتربت من الحسم ، وان العدو استشعاراً منه بذلك قد زاد من ضراوته وشراسته وتصميمه على تكريس احتلاله مستخدماً في ذلك ابشع وسائل القهر والغصب ضد المواطنين العرب في الاراضي المحتلة الى جانب تصعيد قوى الاستعمار العالمي بكل اشكاله بقيادة الولايات المتحدة الامريكية المعادي للأمة العربية والمستقبل العربي من مؤامراتها في محاولات محمومة لاضعاف جبهتنا المواجهة للعدو

وتفتيت وحدتها النضالية وسلب قدراتها على حسم المعركة عسكرياً مع العـــدو لصالح الحق العربي المشروع ، وان ما يجري الآن من تصفية المقاومة الفلسطينية واجهاض حركتها هو جزء من المخطط الصهيوني الاستعماري الواسع الذي يستهدف حماية الاحتلال الاسرائيلي للارض العربية وتأمينه ودعمه وتكريسه ضد الانتفاضة الكبرى التي يتأهب لها الشعب العربي على امتداد الوطن العربي كله .

ويؤكد الرؤساء الثلاثة ان هذا المخطط الصهيوني الاستعماري محكوم عليه بالفشل أمام اصرار الشعب العربي على تحرير أرضه واسترداد شرفه ، وان الأمة العربية تملك من الطاقات ومن الاسلحة الحاسمة ما تستطيع أن تدفع بها في معركة المصير في مواجهة اعتى التحديات وأن تحسم المعركة لصالح الحق والسلام .

ويرى الرؤساء الثلاثة في العمل الوحدوي الذي حققه اعلان بنغازي وفي قيام اتحاد الجمهوريات العربية في هذه الفترة الصعبة التي ظن فيها العدو أنه اقترب من فرض الاستسلام على الامة العربية هو الرد الحاسم الذي يؤكد قدرة الارادة العربية الصميمة على تجميع طاقتها وعلى مواجهة اعدائها واحباط مؤامراتهم .

وقد عبر الرؤساء الثلاثة عن ايمان الشعب العربي بالوحدة العربية عن وعي وفهم لحقيقة التاريخ العربي ولحقيقة الصراع العربي مع اعداء الانسان العربي على امتداد التاريخ كله ولحقيقة الوضع الدولي والأطماع التي تحيط بالمنطقـــة العربية ، وعن وعي وفهم للاعتبارات التي تتصل بمستقبل المنطقة وضرورة انبثاق كيان سياسي اقتصادي متصل العناصر على اتساع الارض العربية مسايرة لمقتضيات العصر الذي نعيشه ، لذلك كان تركيزهم على أن يقوم هذا الاتحاد على اساس يكفل له الاستقرار والبقاء ، وأن يكون انطلاق هـذا الاتحاد من ارض صلبة تأخذ من دروس الماضي عبرة للحاضر والمستقبل .

واعتماداً من الرؤساء الثلاثة على انهم يضعون بهذا الاتحاد النواة الصلبة للأمل الكبير الذي يختلج في وجدان الشعب العربي، أمل الوحدة العربية الشاملة، فانهم على ثقة من أن الجماهير العربية في الجمهوريات الثلاث ستدفع بهذه الخطوة الى الأمام وستحقق بارادتها وبعملها الغايات العربية الكبيرة التي يستهدفها قيام هذا الاتحاد لتستكمل ومعها الشعب العربي كله أمل الوحدة العربية الشاملة .

من اجل ذلك كله وانطلاقاً من اعلان بنغازي ومن الأسس التي ارساها هذا الاعلان بأن تكون دولة الاتحاد نواة الوحدة العربية الشاملة وسبيل الجماهير العربية الى اقامة المجتمع العربي الاشتراكي الموحد والأداة الرئيسية للأمـــة العربية في معركة التحرير، وتأكيداً على ان تحرير الارض العربية المحتلة هو الهدف الذي ينبغي أن تسخر في سبيله كل الامكانيات والطاقات ، وانه لا صلح ولا تفاوض مع العدو الصهيوني ولا تنازل عن اي شبر من الاراضي العربية المحتلة وانه لا تفريط في القضية الفلسطينية ولا مساومة عليها ، واستمراراً في طريق اتحاد الجمهوريات العربية ، فقد أقر الرؤساء المجتمعون مشروع دستور دولة الاتحاد ليعرض على الاستفتاء الشعبي مع اعلان بنغازي واحكامه الاساسية في الجمهوريات الثلاث يوم الاربعاء في ١١ رجب ١٣٩١ الموافق للفاتح من سبتمبر (ايلول) ١٩٧١ .

والله ولي التوفيق

معمر القذافي	انور السادات	حافظ الاسد
رئيس مجلس قيادة الثورة رئيس مجلس الوزراء بالجمهورية العربية الليبية	رئيس الجمهورية العربية المتحدة	رئيس الجمهورية العربية السورية

دستور دولة

اتحاد الجمهوريات العربية

مقدمة :

إن الشعب العربي في الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية الليبية وجمهورية مصر العربية ، ايماناً منه بأنه جزء لايتجزء من الأمة العربية ، وان الجمهوريات الثلاث تؤمن بالمصير العربي الواحد ، وان القومية العربية هي دعوة تحرير وبناء وعدل وسلام ، وانها طريق العرب الى الوحدة الشاملة ، وبناء نظام ديمقراطي واشتراكي يحمي حقوق المواطنين ويصون حرياتهم الاساسية ويدعم سيادة القانون .

واستجابة منه لنداء الوحدة العربية التي تحتل مكان الصدارة في الوجدان العربي ، والتي عززها الكفاح العربي المشترك ضد الاستعمار والصهيونية والنزعات الاقليمية والحركات الانفصالية واكدتها الثورة العربية المعاصرة ضد التسلط والاستغلال واهدار حقوق الانسان السياسية والاجتماعية .

وثقة منه بأن جميع الانجازات التي حققها أو يمكن ان يحققها أي

قطر في واقع التجزئة تظل مقتصرة عن بلوغ كامل أبعادها ومعرضة للتشوه والانتكاس مالم تعززها وتصنها الوحدة العربية .

وإيماناً بدور الأمة العربية الحضاري في قهر التخلف والتبعية ومساهمة ايجابية منها في دفع عجلة التقدم الانساني وصيانة السلام والامن الدوليين وارساء قواعد العلاقات بين الدول والشعوب على اساس من العدل والقانون.

وتنفيذاً للاحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية الصادرة في بنغازي بتاريخ ٢١ من صفر سنة ١٣٩١ هـ الموافق ١٧ من ابريل - نيسان - سنة ١٩٧١ ميلادية .

قد اقر ، بعد التوكل على الله ، قيام دول اتحاد الجمهوريات العربية على اساس المبادىء والأحكام الآتية :

الباب الاول

المقومات الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية :

مادة ١ اقام الشعب العربي في كل من الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية الليبية وجمهورية مصر العربية ، على اساس من الاختيار الحر المتساوي في الحقوق، دولة اتحادية تسمى « اتحاد الجمهوريات العربية » .

مادة ٢ – السيادة في الاتحاد للشعب وتمارس السلطات الاتحادية اختصاصاتها باسمه على الوجه المبين في هذا الدستور .

مادة ٣ - الشعب في اتحاد الجمهوريات العربية جزء من الامة العربية .

مادة ٤ – نظام الحكم في اتحاد الجمهوريات العربية ديمقراطي واشتراكي .

مادة ٥ – اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الاتحاد .

مادة ٦ – تؤكد دولة الاتحاد على القيم الروحية وتتخذ الشريعة الاسلامية مصدراً رئيسياً للتشريع .

مادة ٧ – للاتحاد وجمهورياته علم واحد ، وشعار واحد ، ونشيد واحد .ويصدر قانون اتحادي بتنظيم هذه الامور .

مادة ٨ – للاتحاد عاصمة واحدة تحدد بقانون .

مادة ٩ – تقبل في عضوية الاتحاد ، بقرار اجماعي من مجلس الرئاسة ، الجمهوريات العربية التي تؤمن بالوحدة العربية وتعمل من اجل تحقيق المجتمع العربي الاشتراكي الموحد وترتضي العمل بالاحكام المقررة في هذا الدستور .

مادة ١٠ – الى ان يتم صدور قانون اتحادي ينظم شؤون الجنسية الموحدة للاتحاد تتولى كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد تنظيم الشؤون المتعلقة بجنسية مواطنيها في نطاق الاسس العامة التي يصدر بها قانون اتحادي .

مادة ١١ – تلتزم كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد بالا يتعارض دستورها مع احكام هذا الدستور .

مادة ١٢ – تكفل دساتير الجمهوريات وقوانينها ، كحد ادنى المبادىء والحقوق التالية :

ا – المواطنون امام القانون والقضاء متساوون ، ولا تمييز بينهم بسبب الجنس او الاصل او اللغة او الدين .

ب حرمة المسكن .

ج – لا جريمة ولا عقوبة إلا بقانون والمتهم بريء حتى تثبت ادانته بحكم قضائي .

د – عدم جواز القبض على المواطنين الا في حدود القانون .

هـ – شخصية العقوبة .

و – حق التقاضي وسلوك سبل الطعن والدفاع امام جهات القضاء .

ز – حرية التنقل واختيار محل الاقامة .

ح – حظر الابعاد عن الوطن .

ط – حرية الاعتقاد واقامة الشعائر الدينية .

ي – حرية البحث العلمي .

ك – حرية الرأي والصحافة والنشر .

ل – حرية الاجتماع .

م – سرية المراسلات .

ن – حق المواطنين في اختيار حكامهم ومحاسبتهم .

س – حرمة الملكية الخاصة في حدود القانون بما لا يتعارض مع حق المجتمع في الملكية العامة والتعاونية .

ع – حق العمل .

ف – حق التعليم .

ص – الحق في الضمان الاجتماعي والتأمينات الاجتماعية .

ق – الحق في الرعاية الصحية .

ر – حماية الطفولة والامومة والاسرة .

ش – تحقيق تكافؤ الفرص بين المواطنين في مختلف المجالات .

مادة ١٣ – حق الانتقال والاقامة والعمل مكفول لمواطني الاتحاد بين جمهورياته، وينظم قانون اتحادي كيفية ممارسة هذا الحق .

الباب الثاني

اختصاصات الاتحاد ومؤسساته وماليته

الفصل الاول :

اختصاصات الاتحاد :

مادة ١٤ – يتولى الاتحاد ، ممارسة الاختصاصات التالية :

اولا – في المجال الخارجي :

أ – وضع أسس السياسة الخارجية والعمل على توحيد السياسات التي تتبعها الجمهوريات في علاقاتها الدولية .

ب – مسائل السلم والحرب وتصدر فيها قرارات مجلس الرئاسة بالاجماع .

ج – التنسيق بين الجمهوريات الاعضاء في مجال التمثيل الدبلوماسي والقنصلي مع الدول الاجنبية .

د – ابرام المعاهدات والاتفاقات الدولية مع الدول الاجنبية والمنظمات الدولية في الأمور الداخلية في اختصاص الاتحاد .

ثانياً – في مجال الدفاع :

أ – تنظيم وقيادة الدفاع عن اتحاد الجمهوريات العربية .

ب – قيام قيادة عسكرية مسؤولة عن التدريب والعمليات .

ج – تحريك القوات بين الجمهوريات بقرار من مجلس الرئاسة او من يفوضه في ذلك اثناء العمليات .

د – التنسيق بين الصناعات العسكرية في الجمهوريات الاعضاء .

ثالثاً - في مجال الامن القومي :

حماية الأمن القومي ووضع خطة تأمين سلامة الاتحاد وفقاً لما يقرره مجلس الرئاسة

رابعاً - في مجال الاقتصاد :

أ - وضع خطط التنمية العامة المشتركة على النحو الذي يكفل تحقيق التكامل فيما بين اقتصاديات الجمهوريات الأعضاء وتلتزم هذه الجمهوريات بأن تراعي في وضع الخطط الوطنية مقتضيات تنفيذ الخطط العامة .

ب - تنظيم انتقال السلع والخدمات ورؤوس الأموال بين الجمهوريات الاعضاء وتنظيم اقامة واستخدام مواطني احدى الجمهوريات الاعضاء في جمهورية اخرى عضو في الاتحاد .

ج - العمل على توحيد النظم والسياسات الاقتصادية والمالية في الجمهوريات الأعضاء وتقديم الخدمات الاحصائية والحاسبية التي تهم مجموع هذه الجمهوريات .

د - التنسيق بين اقتصاد الاتحاد واقتصاد الدول العربية الأخرى بما يحقق التكامل الاقتصادي العربي وذلك وفقاً لوسائل التنظيم التي يقررها مجلس الرئاسة .

هـ - العمل على توحيد السياسات الاقتصادية للجمهوريات الاعضاء في علاقاتها مع الدول الأخرى وتنسيق التعاون مع المنظمات الاقتصادية والمالية الدولية .

و - انشاء المرافق ذات النفع المشترك للجمهوريات الاعضاء والمشروعات المشتركة بينها والاشراف عليها .

ز - انشاء المؤسسات الاقتصادية والاتحادية والاشراف عليها .

خامساً - في مجال التربية والتعليم والثقافة :

آ - وضع سياسة تعليمية وتربوية وثقافية تستهدف بناء جيل قومي عربي اشتراكي ومؤمن .

ب - وضع سياسة موحدة للبحث العلمي تكفل ملاحقته للتطور العالمي ، والتنسيق بين مؤسسات البحث العلمي في الجمهوريات الأعضاء .

ج - وضع سياسة اعلامية اتحادية تخدم أهداف الاتحاد .

سادساً - في مجال التنسيق بين التشريعات وتوحيدها :

تتولى السلطات الاتحادية التنسيق بين التشريعات والانظمة في الجمهوريات الاعضاء وتعمل على توحيدها .

الفصل الثاني
مؤسسات الاتحاد

الفرع الأول
السلطة التنفيذية للاتحاد

أولاً ـ مجلس رئاسة الاتحاد

مادة ١٥ ـ يتكون مجلس رئاسة الاتحاد من رؤساء الجمهوريات الأعضاء ، وهو السلطة العليا في ممارسة الاختصاصات المقررة للاتحاد في هذا الدستور .

مادة ١٦ ـ ينتخب مجلس الرئاسة رئيساً له من بين أعضائه وذلك لمدة سنتين قابلة للتجديد ، ويضع المجلس لائحة داخلية تنظم عمله .

مادة ١٧ ـ يؤدي كل من أعضاء مجلس الرئاسة أمام مجلس الامة الاتحادي اليمين التالية :

اقسم بالله العظيم أن احافظ مخلصا على اتحاد الجمهوريات العربية ، وان احترم الدستور والقانون وان أناضل لخدمة مصالح الشعب وتحقيق أهداف الأمة العربية .

مادة ١٨ ـ تصدر قرارات مجلس الرئاسة بالاغلبية فيما عدا الحالات الآتية :

أ ـ المسائل التي يشترط فيها الدستور والأحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية الاجماع .

ب ـ المسائل الهامة الأخرى التي يرى احد اعضاء مجلس الرئاسة ضرورة الاجماع فيها وذلك خلال سنتين من تاريخ نفاذ هذا الدستور .

مادة ١٩ ـ اذا حدث فيما بين ادوار انعقاد مجلس الامة الاتحادي او في فترة حله، مايوجب الاسراع في اتخاذ تدابير لاتحتمل التأخير ، جاز لمجلس رئاسة الاتحاد ان يصدر في شأنها بالاجماع قرارات تكون لها قوة القانون .

ويجب عرض هذه القرارات على مجلس الامة الاتحادي لإقرارها في أول دور انعقاده ، فاذا لم تعرض على المجلس زال مالها من أثر من تاريخ انعقاد المجلس ، اما اذا عرضت ورفضها المجلس فيزول ما كان لها من أثر من تاريخ الرفض .

مادة ٢٠ ـ يصدر مجلس رئاسة الاتحاد اللوائح اللازمة لتنفيذ القوانين الاتحادية ولتنظيم المؤسسات والمرافق التي يشرف عليها .

مادة ٢١ – لاتنفذ قرارات مجلس رئاسة الاتحاد الا بعد نشرها في الجريدة الرسمية الاتحادية مالم ينص على غير ذلك في صلب القرار .

مادة ٢٢ - ينعقد مجلس رئاسة الاتحاد في عاصمة الاتحاد .

ويجوز بقرار منه عقده في أي مكان آخر داخل الاتحاد .

ثانياً – المجلس الوزاري الاتحادي :

مادة ٢٣ – يعين مجلس رئاسة الاتحاد عدداً من الوزراء يتكون منهم مجلس وزاري اتحادي برئاسة رئيس يعينه مجلس الرئاسة .

ويحدد مجلس الرئاسة اختصاصات كل وزير اتحادي .

ولا يجوز الجمع بين منصب الوزير الاتحادي وبين اي منصب عام او وظيفة عمومية في احدى الجمهوريات الا في حالات استثنائية يوافق عليها مجلس رئاسة الاتحاد.

مادة ٢٤ – الوزراء الاتحاديون مسؤولون امام مجلس الرئاسة في ممارسة مهامهم ويؤدون امامه اليمين المنصوص عليها في المادة ١٧ من هذا الدستور .

مادة ٢٥ – يعقد المجلس الوزاري الاتحادي اجتماعات دورية وطارئة للنظر في الشؤون التنفيذية للاتحاد ولتنسيق اعمال الوزراء الاتحاديون ويمارس المجلس والوزراء المسائل التالية على وجه الخصوص :

أ – اعداد مشروعات القوانين والقرارات الاتحادية .

ب – اعداد الدراسات التي يقتضيها تحقيق المهام المنوطة بالاتحاد .

ج – الاتصال بالوزراء المختصين في الجمهوريات الاعضاء لممارسة اختصاصات الاتحاد وفقا للقواعد التي يقررها مجلس الرئاسة .

د – متابعة تنفيذ القوانين والقرارات الاتحادية واعداد تقارير دورية لرفعها لمجلس الرئاسة .

هـ – اعداد مشروع موازنة الاتحاد .

مادة ٢٦ – يضع مجلس الرئاسة بقرار منه نظام عمل المجلس الوزاري الاتحادي .

ثالثا – المجالس والهيئات المتخصصة واللجان الفنية :

مادة ٢٧ – ينشيء مجلس الرئاسة مجالس اتحادية للشؤون التخطيطية والاقتصادية والاجتماعية ولشؤون الامن القومي ، والسياسة الخارجية والتربية والتعليم والثقافة والبحث العلمي والاعلام واية مجالس او هيئات متخصصة او لجان فنية اخرى يراها لازمة لتحقيق اهداف الاتحاد ، ويتحدد تشكيل واختصاصات تلك المجالس بالوزراء الاتحاديين بموجب قرارات تصدر عن مجلس الرئاسة .

رابعا – الموظفون الاتحاديون :

مادة ٢٨ – يصدر قانون اتحادي بنظام الموظفين الاتحاديين يبين شروط توظفهم وواجباتهم والمزايا المادية والمعنوية المقررة لهم وما يكفل لهم الاستقلال في اداء اعمالهم .

الفرع الثاني

السلطة التشريعية

مادة ٢٩ – يتكون مجلس الامة الاتحادي من عشرين عضوا عن كل جمهورية ينتخبهم مجلس الشعب فيها من بين اعضائه وتكون مدة مجلس الامة الاتحادي اربع سنوات ويؤدي عضو المجلس اليمين المنصوص عليها في المادة ١٧ من هذا الدستور .

ولا يجوز الجمع بين عضوية مجلس الامة الاتحادي وعضوية مجلس الشعب . وفي حالة غياب مجلس الشعب في احدى الجمهوريات والى ان يتكون ذلك المجلس فان القيادة السياسية في تلك الجمهورية تضع قواعد اختيار ممثلي جمهوريتها في مجلس الامة الاتحادي .

مادة ٣٠ – ينتخب مجلس الأمة الاتحادي رئيساً له ونائباً أو اكثر للرئيس من بين اعضائه .

مادة ٣١ – يعقد مجلس الأمة الاتحادي دورتين في العام وذلك بناء على دعوة من رئيس مجلس رئاسة الاتحاد ، وتحدد اللائحة الداخلية مدة كل دورة وموعد انعقادها.

ويجوز دعوة المجلس لدورة انعقاد غير عادية اذا دعت الضرورة الى ذلك بناء على طلب من رئاسة الاتحاد أو ثلث اعضاء المجلس .

مادة ٣٢ – يعقد مجلس الأمة الاتحادي اجتماعاته في المكان المحدد له في عاصمة الاتحاد ، ويجوز بعد موافقة مجلس رئاسة الاتحاد ان يعقد المجلس اجتماعاته في اي مكان آخر داخل الاتحاد .

مادة ٣٣ – لايصح انعقاد مجلس الامة الاتحادي الا اذا حضر الاجتماع ثلثا اعضائه على الاقل .

مادة ٣٤ – تصدر قرارات مجلس الامة الاتحادي بموافقة الاغلبية المطلقة لاعضائه الا اذا اشترط الدستور خلاف ذلك .

مادة ٣٥ – لمجلس رئاسة الاتحاد ولاعضاء مجلس الامة الاتحادي حق اقتراح القوانين .

مادة ٣٦ – يدخل في اختصاص مجلس الامة الاتحادي مايلي :

أ – مناقشة واقرار القوانين الاتحادية .

ب – مناقشة وإقرار موازنة الاتحاد .

ج – مناقشة واقرار المعاهدات والاتفاقات التي يبرمها الاتحاد والتي يشترط هذا الدستور اقرارها من المجلس .

د – مناقشة السياسة العامة لدولة الاتحاد واقتراح كل ما من شأنه تدعيم الاتحاد وتحقيق اهدافه .

هـ – توجيه الاسئلة والاستفسارات الى الوزراء الاتحاديين .

٣٧ – تنفذ القوانين بعد التصديق عليها من مجلس رئاسة الاتحاد بالاجماع ويعمل بها بعد شهر من تاريخ نشرها بالجريدة الرسمية للاتحاد ، الا اذا نص على خلاف ذلك في صلب القانون .

وللقوانين الاتحادية الاولوية على قوانين الجمهوريات فيما يتعلق باختصاصات الاتحاد.

مادة ٣٨ – تقوم السلطات المختصة في الجمهوريات بتنفيذ القوانين الاتحادية في اقليم كل منها ، ولمجلس رئاسة الاتحاد ان يعين الموظفين اللازمين لمراقبة سلامة تنفيذ القوانين الاتحادية في الجمهوريات الاعضاء وتقديم تقارير دورية الى كل من مجلس رئاسة الاتحاد ومجلس الامة الاتحادي .

مادة ٣٩ – جلسات مجلس الامة علنية ، ويجوز انعقاده في جلسة سرية بناء على طلب مجلس الرئاسة او ثلث اعضائه وللوزراء الاتحاديين حق حضور جلسات المجلس .

مادة ٤٠ – يصدر مجلس الامة الاتحادي لائحته الداخلية .

مادة ٤١ – يتولى رئيس مجلس الامة حفظ النظام والامن داخل المجلس .

مادة ٤٢ – لايسأل اعضاء مجلس الامة الاتحادي عما يبدونه من اراء داخل المجلس ولا يجوز القبض عليهم في غير حالة التلبس الا بأذن من المجلس .

مادة ٤٣ – يصدر قانون اتحادي ببيان المزايا المادية والمعنوية التي يتمتع بها اعضاء مجلس الامة الاتحادي ولا يجوز لعضو المجلس ان يشغل منصبا عاما أو وظيفة عمومية في احدى الجمهوريات الاعضاء او في الحكومة الاتحادية او ان يحصل على اية ميزة غير منصوص عليها في القانون الاتحادي المشار اليه .

مادة ٤٤ – تعود لعضو مجلس الامة الاتحادي عضويته في مجلس الشعب الذي انتخبه اذا انتهت عضويته في مجلس الامة الاتحادي لاي سبب كان وفقا للقواعد التي ينظمها دستور جمهوريته .

واذا فقد احد اعضاء مجلس الامة الاتحادي عضويته في مجلس الشعب الذي انتخبه

بسبب حل المجلس او انتهاء مدته يستمر العضو في ممارسة عمله في مجلس الامة الاتحادي حتى يتم انتخاب بديل عنه .

مادة ٤٥ – لمجلس الرئاسة ان يقرر حل مجلس الامة الاتحادي على ان يتم تشكيل المجلس الجديد خلال ثلاثة أشهر على الاكثر من صدور قرار الحل .

واذا لم يجتمع المجلس الجديد في هذا الموعد لأي سبب اجتمع المجلس القديم تلقائياً الى ان تتم دعوة المجلس الجديد للاجتماع .

واذا حل مجلس الامة الاتحادي لسبب فلا يجوز حله لذات السبب مرة اخرى .

الفرع الثالث
السلطة القضائية للاتحاد

مادة ٤٦ – يشكل مجلس رئاسة الاتحاد محكمة دستورية من عضوين عن كل جمهورية ويعين المجلس رئيساً للمحكمة من بين اعضائها ويكون له صوت مرجح عند تساوي الاصوات .

ولمجلس رئاسة الاتحاد ان يعين بالمحكمة اعضاء آخرين اذا اقتضت المصلحة العامة ذلك بشرط مراعاة مبدأ التساوي بين الجمهوريات .

وتكون مدة العضوية بالمحكمة اربع سنوات قابلة للتجديد .

مادة ٤٧ – يقسم اعضاء المحكمة اليمين التالية :

اقسم بالله العظيم ان احترم الدستور والقانون وان احكم بالعدل .

مادة ٤٨ – تختص المحكمة الدستورية الاتحادية بالامور الآتية :

آ – الفصل في الطعون التي تقدم في دستورية القوانين الاتحادية .

ب – الفصل في مدى مطابقة قوانين الجمهوريات لدستور الاتحاد وقوانينه .

جـ – الفصل في المنازعات ذات الطابع القانوني التي تقوم بين سلطات الاتحاد وسلطات الجمهوريات او فيما بين جمهورية واخرى عضو في الاتحاد .

د – الفصل في الطعون الموجهة ضد القرارات الادارية الاتحادية .

هـ – ابداء الرأي الاستشاري في أية مسألة دستورية او قانونية بطلب من مجلس رئاسة الاتحاد او الوزراء الاتحاديين او احدى الجمهوريات الاعضاء .

و – اية اختصاصات اخرى يصدر بها قانون اتحادي .

مادة ٤٩ – تصدر المحكمة الدستورية قراراتها بالأغلبية وباسم الشعب .

مادة ٥٠ – قرارات المحكمة الدستورية واجبة النفاذ في جميع أراضي الجمهوريات الاعضاء في الاتحاد .

مادة ٥١ – تعقد المحكمة الدستورية جلساتها في عاصمة الاتحاد ولا يجوز لها ان تعقد جلساتها في أي مكان آخر داخل الاتحاد .

مادة ٥٢ – يصدر قانون اتحادي ببيان نظام المحكمة واجراءاتها والشروط التي يجب توافرها فيمن يعين عضوا فيها ، والحصانات والمزايا المادية والمعنوية التي يتمتع بها اعضاء المحكمة والعاملون بها .

الفصل الثالث

ماليـــة الاتحـــاد

مادة ٥٣ – يعد مجلس الاتحاد مشروع موازنة الاتحاد ويحيله الى مجلس الامـــة الاتحادي لمناقشته واقراره بقانون اتحادي .

مادة ٥٤ – تبين الموازنة السنوية للاتحاد المبالغ التي تسام بها كل من الجمهوريات الاعضاء في نفقات الاتحاد على اساس حصص ذات قيمة متساوية ، وتنظيم الموارد الاخرى للاتحاد بقانون اتحادي .

مادة ٥٥ – يصدر قانون اتحادي ببيان تاريخ بدء وانتهاء السنة المالية للاتحاد وطريقة اعداد الموازنة الاتحادية .

وعلى الجمهوريات الاعضاء ان توحد بداية ونهاية السنة المالية في كل منها بما يتفق وبداية ونهاية السنة المالية للاتحاد .

مادة ٥٦ – يعرض الحساب الختامي على مجلس الامة الاتحادي لمناقشته واقراره .

مادة ٥٧ – يبين بقانون اتحادي كيفية مراقبة الحسابات الاتحادية ومراجعتها .

الباب الثالث

احكام عامة وانتقالية

مادة ٥٨ – تختص الجمهوريات الاعضاء بكل مالا يدخل في اختصاص الاتحاد وفقاً لأحكام هذا الدستور .

ولكل جمهورية من الجمهوريات الاعضاء ان تعهد الى سلطات الاتحاد بممارسة اي من اختصاصاتها على ان يقر ذلك مجلس رئاسة الاتحاد .

مادة ٥٩ – يعقد مجلس الرئاسة باسم الاتحاد المعاهدات والاتفاقات الدولية المتعلقة بالمسائل الداخلة في اختصاص الاتحاد ، ويبلغها الى مجلس الامة الاتحادي مشفوعة بالبيان المناسب، وتكون هذه المعاهدات والاتفاقات الدوليه نافذة في الجمهوريات الاعضاء بعد التصديق عليها من مجلس الرئاسة ونشرها وفقاً للاوضاع المقررة في هذا الدستور .

غير ان المعاهدات والاتفاقات الدولية التي تمس السيادة او يترتب عليها تعديل في احكام القوانين الاتحادية او تحمل خزانة الاتحاد نفقات غير واردة في ميزانيته لاتكون نافذة الا اذا اقرها مجلس الامة الاتحادي .

مادة ٦٠ – تظل المعاهدات والاتفاقات الدولية التي ابرمتها الجمهوريات الاعضاء قبل قيام الاتحاد نافذة طبقاً لاحكامها وفي المجال المقرر لها وقت ابرامها وفقاً لقواعد القانون الدولي .

مادة ٦١ – دون اخلال بالاختصاصات المقررة للاتحاد في هذا الدستور يحق لكل جمهورية ان تبرم المعاهدات والاتفاقات الدولية طبقاً لأوضاعها الدستورية وتبلغها الى مجلس رئاسة الاتحاد .

مادة ٦٢ – يتكون بقرار اجماعي من مجلس رئاسة الاتحاد جبهة سياسية تضم ممثلين عن قيادة التنظيم السياسي في كل من الجمهوريات الاعضاء وترتبط هذه الجبهة بميثاق للعمل القومي في اتحاد الجمهوريات العربية من اجل تحقيق التفاعل والترابط بين جماهير الشعب في جمهوريات الاتحاد وترسيخ اسس الديمقراطية وقيمها وتوحيد منطلقات واساليب العمل السياسي في الجمهوريات الاعضاء وخلق المناخ الملائم لقيام الحركة العربية الواحدة . والى ان يتحقق ذلك تكون القيادة السياسية في كل جمهورية وحدها المسؤولة عن تنظيم ممارسة النشاط السياسي داخل الجمهورية :

مادة ٦٣ – تكون القيادة العامة للقوات المسلحة في كل من الجمهوريات الاعضاء لرئيس الجمهورية او لمن تحدده النظم المعمول بها في كل منها .

مادة ٦٤ – اذا وقعت اضطرابات في الداخل او الخارج في احدى الجمهوريات تهدد أمنها او تهدد أمن الاتحاد تخطر هذه الحكومة السلطات الاتحادية فوراً لكي تقوم الأخيرة باتخاذ الاجراءات الضرورية ضمن حدود صلاحياتها لحفظ الأمن والنظام ، وفي حالة ما اذا كانت حكومة احدى الجمهوريات الاعضاء في وضع لا يسمح لها بطلب العون من الاتحاد او اذا كان أمن الاتحاد في خطر فلسلطات الاتحاد ان تتدخل وبدون طلب لحفظ النظام واعادة الامور الى نصابها .

مادة ٦٥ – للاتحاد ان يتملك او يحوز العقارات الضرورية في العاصمة وفي غيرها من أراضي الجمهوريات الاعضاء لاقامة مؤسساته ولا تخضع ممتلكات الاتحاد وامواله للضرائب والرسوم المقررة في قوانين الجمهوريات الاعضاء وينظم ذلك قانون اتحادي .

مادة ٦٦ – ينشيء مجلس رئاسة الاتحاد جريدة رسمية اتحادية تنشر فيها القوانين والقرارات واللوائح الاتحادية .

مادة ٦٧ – الى ان تقوم المؤسسات الاتحادية المنصوص عليها في هذا الدستور ، يشكل مجلس الرئاسة لجنة للمتابعة تضم ممثلاً عن كل جمهورية ، تكون مهمتها متابعة العمل على وضع الدستور الاتحادي موضع التنفيذ في أسرع وقت .

مادة ٦٨ – لا يجوز تعديل هذا الدستور الا بموافقة ثلثي أعضاء مجلس الامة الاتحادي وتصديق مجلس الرئاسة على هذا التعديل بالاجماع .

فاذا كان التعديل يمس حكماً من الاحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية . فلا ينفذ الا بعد عرضه على الاستفتاء الشعبي وتوفر الاغلبية له في كل جمهورية .

مادة ٦٩ – تعتبر مقدمة هذا الدستور جزءاً لا يتجزأ منه .

مادة ٧٠ – يستمد هذا الدستور مبادئه من الاحكام الأساسية لاتحاد الجمهوريات العربية ويفسر في ضوئها .

مادة ٧١ – يتم التصديق على هذا الدستور من قبل المؤسسات الدستورية المختصة في كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد ، ويطرح على الاستفتاء الشعبي مع الاحكام الاساسية لاتحاد الجمهوريات العربية الصادرة في بنغازي بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٣٩١ هجرية الموافق ١٧ من ابريل - نيسان - ١٩٧١ ميلادية .

وتكتسب الاحكام الأساسية للاتحاد ونصوص هذا الدستور قوة النفاذ بعد توافر الاغلبية لها في كل جمهورية من الجمهوريات الاعضاء .

مادة ٧٢ – يتم تبليغ هذا الدستور فور نفاذه كوثيقة رسمية الى كل الدول العربية والى الامانة العامة لجامعة الدول العربية .

معمر القذافي	**أنور السادات**	**حافظ الأسد**
رئيس مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء بالجمهورية العربية الليبية	رئيس الجمهورية العربية المتحدة	رئيس الجمهورية العربية السورية


المهرجان الفني لمعرض دمشق الدولي الثامن عشر يقدم
على مسرح المعرض
فيروز
والفرقة الشعبية اللبنانية
ناس من ورق
جمعت كل ألوان غناء فيروز
الأسعار
٢٠ - ٢٥ - ١٥ - ١٠ - ٥ ل.س.
التاريخ
من ٣ إلى ١٢ أيلول





يجري سحب الاصدار الاستثنائي الرابع بتاريخ ٧ ايلول ١٩٧١